

قبة

كلية الآداب
والعلوم الإنسانية

الرباط

جامعة محمد الخامس

العدد الثامن عشر

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

«تصدر مرة كل سنة»

المدير : عبد الواحد بن داود

هيئة التحرير :

عمير أمّا

عبد اللطيف بن شريفة	محمد منيار
أحمد اليابوري	محمد مفتاح
علال الغيازي	قاسم الحسيني
المختار المراس	محمد اللوزي

تعرّ الأفكار الواردة في المآلات عن آراء أصحابها

جامعة
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
الرباط

مجلة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الرباط

العدد الثامن عشر

1993



جميع حقوق الطبع محفوظة لكلية
الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
بمقتضى الفصل 49 من ظهير 1970/7/29
الطبعة الأولى 1414 — 1994

المحتويات

. بحوث أساسية :

- في مسألة البداية التاريخية للمعرفة العلمية
9 بناصر الجزائري
- التصويت وزمنا التنفس
25 محمد حساوي
- الذات والوجود عند المعتزلة
53 أحمد العلمي
- ملامح من تطور الخط المغربي خلال الكتابة على النقود
71 عمر أفا
- حول الجماعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط
93 محمد الأمين البزاز
- الأنتروبولوجيا والتاريخ :
- I — الأنتروبولوجيا والتاريخ ووضعهما في المجال الأكاديمي
117 ديل أيكلمان
- II — من الملاحظة الميدانية إلى الكتابة الأنتروبولوجية
125 إفلين آلين أورلي
- III — المغرب في الكتابة الأنتروبولوجية
133 محمد أعفيف

• بحوث مترجمة :

— أدوار ضابط الاستعلامات أثناء الحماية في المغرب

إبراهيم بوطالب 141

• نصوص ووثائق :

— لائحة مطالب وطنية

محمد المنوني 171

• دراسات وعروض بيليوغرافية :

— المصادر العربية لتاريخ المغرب

محمد المنوني 197

— قائمة الأطروحات والرسائل الجامعية لسنة 1992

إعداد : مصلحة النشر 219

— أنشطة كلية الآداب

إعداد : محمد معتصم 249

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في مسألة البداية التاريخية للمعرفة العلمية

بناصر البعزاتي

كلية الآداب — الرباط

ربما كانت مسألة البداية التاريخية للمعرفة العلمية، دون المسائل النظرية الأخرى، أهمية لدى فلاسفة العلوم ؛ لأنهم لا يهتمون بها كموضوع للبحث في حد ذاته. بيد أن كل تصور إبستمولوجي يعتبر، صراحة أو ضمناً، أن المعرفة العلمية قد تكوّنت في فترة معينة أو لدى شخصية تاريخية. ولهذا كثيراً ما نقع على آراء تقرر أن هذا العالم أو ذاك هو مؤسس علم كذا أو أول من بنى نظرية علمية في الميدان، إلخ. فتختلف هذه الشخصيات التي يُنسب إليها فضل السبق بحسب التصور الذي يستحوذ على ذهن هذا الدارس أو ذاك، ثم بحسب وزن الاكتشافات التي تتم في دراسة الحضارات القديمة ومدى التقدم في أساليب تحليل وفهم مختلفات تلك الحضارات.

بالمقابل، يتحدث الدارسون الذين يكتبون في تاريخ العلوم القديمة عن بدايات علم الفلك أو العلم عامة، أو عن اللبنة الأولى في تطور الفكر العلمي. ورغم ذلك فإن الاختلاف الذي نجده لدى فلاسفة العلوم موجود كذلك لدى مؤرخي العلوم، لأن هؤلاء كذلك لا يستطيعون الانفلات من التصورات الإبستمولوجية. بل ويختلف كل الدارسين حول السمات المميزة للنظرية العلمية ؛ وهذه بعض الآراء :

أ — في نظر كارل بوبر يبدأ البناء العلمي مع بارمينيدس⁽¹⁾، حيث بنى أول

Popper, K.R.; *Conjectures and Refutations*, London, 1972, pp. 79-83, 146

(1)

نظرية فرضية استنباطية عن العالم، فتهيأت للاختبار التجريبي ودُحضت (أُبطلت)، ثم عُوِّضت بنظرية جديدة من قبل ديمقريطس حول تكوين المادة من أجل تفسير العالم. وقد كوّن هذا الرأي في سياق تصويره لخصائص النظرية العلمية، حيث يرى أن كل قضية حول الواقع تكون علمية بقدر ما تكون قابلة للدحض أو الإبطال، وإذا لم تكن قابلة للدحض فإنها لا تتحدث عن الواقع، أي⁽²⁾ ليست من العلم.

يبدو لنا أن معيار قابلية الدحض بهذا التصور الحادّ ليس عملياً، لأن مسألة واقعية العبارات ولا واقعيتها ليست بمثل الصرامة التي يراها بوبر. لذلك يحقّ أن نسأل: هل الانساق غير العلمية لا تقبل الدحض دائماً وعلى مدى تقدم المعرفة وأدوات الاختبار؟ وكيف يتم تفنيد النظرية العلمية؟ هل يمكن أن تكون نظرية علمية صادقة يوماً ما ثم تُصبح فيما بعد كاذبة؟ وبما أننا لسنا بصدد مناقشة الآراء الأبيستمولوجية، فإننا نلاحظ بإيجاز ما يلي:

- 1 — إنه يمكن دحض (إبطال، تفنيد) بعض عبارات الانساق غير العلمية أو بعض تأويلاتها على الأقل. مثل الرأي الذي كان يقول بأن الأرض محمولة على قرن ثور، وكثير من الآراء التي تنتقل بالرواية.
- 2 — أن العناصر التي تقبل الدحض والتي لا تقبل ذلك متداخلة متفاعلة. ومسألة الاختبار تتوقف على توفير شروط تجريبية مثل أدوات وآلات...
- 3 — النظرية العلمية لا تُدحض كلية، أي لا تُكذّب، بل تعمل دينامية البناء العلمي على ضبط وتقييد مجال القول الذي تكون فيه صادقة، على إثر بروز بواذر نظرية أخرى أقوى منها يكون مجال قولها أوسع وأدق، فتتجاوز النظرية الجديدة النظرية القديمة دون أن تُكذّبها.
- 4 — ينتج عن هذه الملاحظات أن أولوية بارمنيدس لا يمكن الدفاع عنها. ثم إن فكر بارمنيدس لم يتلق ضربة قاضية إذ بقي حاضراً نوعاً ما لدى زينون الإيلي وغيره.

ب — أما باول فيرابند فإنه يدعي أنه لا توجد أية صفة تميز ما يُسمى علماً. فما أنه لا توجد عبارات تعبّر بأمانة كاملة عن الوقائع التجريبية، أي أن التجارب تتوّل لا محالة على ضوء الأفكار المؤطرة لها، فإن كل بناء نظري يستطيع أن يعيّن ويتّقي مجموعة من «الوقائع» يلورها ويؤسس عباراته عليها. كل نسق فكري مؤهل، في نظر فيرابند، أن يدعي أنه نظرية علمية، ولا وجود لمعايير موضوعية للتمييز. ويذهب إلى أن البناءات الأسطورية قادرة على تفسير ظواهر الطبيعة كما يفعل البناء الذي يُنسب إلى العلم. فالأنساق الفكرية بناءات ثقافية تتحكم فيها مقتضيات التداول والحاجة والسلطة⁽³⁾. لكن بالمقابل، يدعي فيرابند أن أول نسق هو الذي وضعه أنكسمنلر⁽⁴⁾.

نلاحظ على تصور فيرابند ما يلي :

1 — يعمل هذا التصور على إذابة المفاهيم العلمية كلية في المقام الثقافي حيث يفقد الاختبار التجريبي والاستدلال كل معنى، فيسوّي بين الخطابات والبناءات. لو كان هذا التصور صائباً لما وُجد السؤال والبحث والنقد والبناء وإعادة البناء إلخ.

2 — لا يفعل فيرابند إلا أن يقلب التصور العقلاني التقليدي الذي نجده لدى الوضعيين الجدد وكارل بوبر. لكي يعارض فيرابند كل هؤلاء، فإنه يشيد أياً إشادة بكل ما اعتبره التصور العقلاني التقليدي لا علمياً، ويصوّب نقداً لاذعاً لكل ما اعتبره ذلك التصور علمياً.

3 — في سياق تلك المعارضة المتطرفة، نجد فيرابند مدافعاً عن «فزياء» أرسطو (لأن العقلانيين التقليديين يعتبرونها محض ميتافيزيقا غير قابلة للتحقق)، بينما لا يذكر حتى مجرد الذكر العالم أرخميدس السيراكوسي (لأن أولئك يشيدون به كقمة العلم القديم).

ج — أما كتاب التاريخ الموجز للعلوم — دوهرنغ Duehring، ماخ Mach، دوغا Dugas... فإنهم يرون أن البناء العلمي يتبدى، كمعرفة دقيقة ومتسقة

(3) Feyerabend, P.K.: *Against Method*, 1975; *Science in a Free Society*, 1978; *Erkenntnis fuer Freie Menschen*, 1980.

Feyerabend, P.K.: *Against Method*, p. 246

(4)

متكونة من قوانين مضبوطة تستند إلى الاختبار التجريبي والصوغ الرياضي لظواهر الطبيعة، مع أرخميدس (حوالي 287 — 212 قبل الميلاد)⁽⁵⁾. هؤلاء الكتاب لا يتطرقون لأسلوب التفكير الذي تبلور فيه تقليد البحث الذي ينتمي إليه أرخميدس ومجموعة العلماء الذين عاصروهم، وتفاعل الأفكار الذي أدى إلى ترسيخ ذلك الأسلوب الذي تطورت في أحضانها المفاهيم والآليات المثمرة. وإذا حدث أن أورد كتاب الملخصات البنائيات المفاهيمية قبل أرخميدس فإنهم يعتبرونها من قبيل الأفكار الممهدة فقط لإنجاز العالم الفذ. من هؤلاء نذكر المؤرخ ديكسترهوس Dijksterhuis⁽⁶⁾. من عيوب هذا التصور لدى كتاب ملخصات تاريخ العلوم ما يلي :

1 — إنه يجرد العلم كلية من المقام الفكري الذي تبلور فيه مفاهيمه. وتبين الأبحاث في تاريخ العلوم (التاريخ المفصل، الذي تطور بعد الحرب الكبرى الثانية خصوصاً) أن المفاهيم تتحول وتتلاقح وتنتقل عبر أنسجة فكرية مختلفة. فلا يمكن عزل عمل أرخميدس عن سياقه.

2 — إنه يعتبر العلم بناءً متحققاً، بخلاف الانساق الأخرى. لكن هل يوجد معيار كوني صارم للتحقق ؟ إن إمكانية هذا المعيار قد طُرحت داخل التصور الوضعي الجديد، وقد أدى النقاش داخل هذا الاتجاه (من كارناب، إلى هبل، آير، ناجل وغيرهم) إلى الاعتراف باستحالة وجود معيار دقيق صارم يميز بوضوح بين ما هو علمي صرف (متحقق) وما هو غير علمي (غير متحقق) !

3 — درس أرخميدس ظواهر محددة (الرافعة، مركز الثقل، طفو الأجسام، إلخ) وبلورها بأسلوب بناء وصوغ رياضي دقيق. هذه البلورة لا يمكن أن نفهم إلا كتسوية لمسار فكري خلال قرن من الزمن على الأقل. وأرخميدس نفسه يُقر بأن عمله امتداد لأسلوب التفكير الذي ينتمي إليه أودكسوس، أركيطاس، ديمقريطس وغيرهم (لا ننسى أن عشرات الكتابات العلمية من هذه الحقبة قبل أرخميدس قد ضاعت، لكن كان لها تأثير بالغ في الفكر اللاحق).

(5) Duehring, E.; Kritische Geschichte der Allgemeinen Prinzipien der Mechanik 1873; E. Mach, The Science of Mechanics 1912; R. Dugas, Histoire de la Mécanique 1955.

(6) Dijksterhuis, E.J.; The Mechanization of the World Picture, Princeton, 1986

بمخلاف التصورات السابقة، نعمل إلى صوغ مجموعة من المقدمات النظرية، مستوحاة من طريقة العمل لدى مؤرخي العلوم المتأخرين (Kuhn, Holton, ... Hall, Drake, Serres)، حيث يبرز هؤلاء الطابع الدينامي والتفاعلي للمعرفة مع جميع أنشطة الإنسان.

1 — لو كانت البناءات العقيدة القديمة محض خيال عقيم لما تمكنت من الصمود في وجه النشاط البشري المتجدد. بل تحتوي خيرة استفادها الناس مع تتابع الأجيال. هذه الخبرة تبلور في خضم أرجوحة جدلية بين عمليتين متقابلتين متلازمين : استمرار التثبيت بالمعتقد وتجدد النشاط العملي. يتفاعل الاعتقاد والنشاط بشكل عضوي. الاعتقاد يلور أمثلة تجريبية يؤولها ويكيفها لضمان الاستمرار، والنشاط العملي (في الطبيعة) يبنى أمثلة تجريبية يؤولها ويكيفها لتجديد السلوك وتغيير أساليب مواجهة ظروف العمل. في هذه الجدلية الدينامية تتطور الخبرة لتشكّل نواة معرفية أكثر فأكثر أهمية.

2 — هذه النواة المعرفية لا هي مستقلة عن النسق العقدي ولا عن النشاط العملي (الذي يصبح أكثر فأكثر تقنية : أدوات الانتاج، البناء...). النواة المعرفية لا تنفصل عن نسق عقدي أو فلسفي إلا لكي يحتضنها نسق آخر، ولا تنفصل عن سياق عملي — اجتماعي إلا لكي يحتضنها سياق آخر، إذن في سياق تعاقب البناءات النظرية تغتنى النواة المعرفية عبر تجديد الخبرة والإدراك. والإدراك عملية نشيطة تبلور الموضوعات المدركة وتتوقع ما يمكن أن ينتج عنها ؛ ولهذا نقول بأن «في كل عملية إدراك استدلال». فالثقافات «القديمة» لم تكن خالية من استدلال.

3 — كل بناء نظري جديد إما يتكون على إثر اكتشاف عينة من الظواهر لا تستجيب لأحكام وتوقعات البناء القائم. وتجدد البناءات يتم في شكل تحول مفاهيمي شبه شامل، يمس كل جوانب الحياة البشرية : الاجتماعية والعقيدة والمعرفية. تفر الأبحاث الأركيولوجية — الانثروبولوجية حالياً أن الحضارات لم تتطور بشكل خطي مستمر منبثق من رقعة محددة على الأرض ؛ وتبيل إلى ترجيح تصور مفاده أن الحضارات تزعرت في مناطق جغرافية متعددة وفي ظروف مختلفة حسب اختلاف البيئة (وربما في فترات تاريخية متقاربة).

4 — تتسع رقعة التحول المفاهيمي أو تضيق حسب درجة متانة النواة المعرفية

وفائدتها العملية — بالمعنى الراسع — ومدى تشبث المجتمع بعناصرها. ولهذا تختلف درجة التحولات من فترة لأخرى ومن مجتمع لآخر. فهناك فترات ركود نسبي، وفترات تحول بطيء وفترات تحول جذري، وفترات تقهقر، إلخ. ويمكن أن تشهد نفس الحقبة التاريخية تحولاً بطيئاً في مجتمع ما، ويكون التحول سريعاً وجذرياً في مجتمع آخر، ويعم الركود أو التقهقر مجتمعاً آخر. ويمكن أن ينقلب البطيء إلى جذري والجذري إلى ركود...

5 — إستمولوجياً يتعذر الفصل في مسألة بداية المعرفة العلمية بدقة لأن الفصل يفترض إقراراً بانفصال العلم عن المقام الفكري — الحضاري العام ؛ ولهذا يظل كل تحديد تقريبياً ونسبياً، يحاول تبين تدرج المعرفة في البناء والصلابة والاستدلالية.

6 — تاريخياً، يتعذر الفصل في مسألة الفترة التاريخية (وكذلك الرقعة الجغرافية) لتكوّن المعرفة العلمية لأن حضارات قديمة مهدّمت ولغاتها انمحت، وما بقي منها ليس مادة كافية للتحديد الدقيق ؛ لهذا لا يمكن الحديث إلا عن الحضارات التي وصلت إلينا بعض ملاحظاتها البارزة نسبياً. هذا الحديث لا يمكن أن يكون قطعياً.

7 — التحولات المهمة تنتج عن التقاء بين ثقافات أو حضارات مختلفة. لأن الثقافة المنغلقة، إن وُجدت، لا تشهد تطوراً مهماً. بل إن التطور يحدث إذا تمخض عن الالتقاء جوٌّ حوارى بناءً بدل العداء والرفض المسبقين. إذ في جو الحوار البناء تشعّد القدرات الإدراكية — الاستدلالية وتنمو النواة المعرفية ويتسع أفق النقد وإعادة النظر في البناءات السائدة. يمكن أن يؤدي الرفض إلى شحذ القدرات تلك، لكن قصد تحصيل ما هو سائد باعتباره نهائياً. وهذا ما نلاحظه في فترات التحولات المهمة لدى مختلف المجموعات البشرية.

في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد عاشت المجتمعات البابلية والمصرية والإغريقية تحولاً مهماً في كل جوانب الحياة العقيدية والاجتماعية والمعرفية ؛ حيث تداخلت المعتقدات وتلاقحت وتغيرت الرموز الأسطورية بفعل الاحتكاك الكثيف بين مكوناتها الثقافية. هذه الفترة عرفت كذلك تراكمها للمعارف في جميع الميادين شكل مُحركاً مهماً في التغيير. إذ تطورت المعارف

(في الزراعة والتطبيب والمعمار...) وأسبابها (الملاحظة، الحساب، القياس...) فاتسعت النواة المعرفية وصارت أكثر صلابة بشكل بارز.

يرى فان در فيردن أن «علم الفلك أقدم علم طبيعي»، حيث احتل مكانة مرموقة نظراً للفائدة العملية التي كان يمثلها بالنسبة للتنجيم⁽⁷⁾. إذ يحتاج المنجمون إلى جداول تبين حركة الأجرام السماوية وموقع كل واحد بالنسبة للأجرام الأخرى، لكي يبنوا عليها قراءاتهم وتوقعاتهم (بل تنبؤاتهم) للمستقبل. هذه الجداول كانت بمثابة سجلات طويلة ودقيقة تُسجل فيها نتائج الملاحظات المتكررة والمنظمة عبر أجيال، معبر عنها بالحساب والخطوط والرسوم.

يرى أوتو نويغباور (O. Neugebauer) وفان در فيردن (Van Der Waerden) أن علم الفلك لدى البابليين كان أغنى وأقدم من الفلك المصري والإغريقي. لكن هذا العلم شهد تطوراً ملحوظاً بكيفية متوازية لدى المجتمعات الثلاث، وإن كان بوتيرة مختلفة هنا وهناك⁽⁸⁾. تراكمت الملاحظات وأصبح الاعتماد على الحساب والقياس أكثر فأكثر، مما يجعل التفسير والتوقع أكثر فأكثر متانة. كتب فان در فيردن : «نرى إذن أن الفترة ما بين 600 و300 قبل الميلاد كانت فترة مشعة في علم الفلك البابلي، سارت فيها الملاحظة والنظرية يداً في يده»⁽⁹⁾.

الملاحظة والنظرية ترتبطان فيما بينهما ارتباطاً عضوياً ؛ لا يمكن الفصل بينهما إلا لغرض عملي لتسهيل التحليل. ولهذا ينعكس كل تجديد في جانب ما على الجانب الآخر. فالتنجيم وعلم الفلك ارتبطا منذ القديم الواحد بالآخر. ومن الصعب الفصل الصارم في مسألة الأسبقية التاريخية فيما بينهما. إذ لكي يكون التنجيم أكثر نشاطاً في القراءة والتوقع (التنبؤ) يلزم أن تكون الملاحظة الفلكية أكثر دقة ؛ والعكس صحيح. وقد سجل البابليون منذ القدم ملاحظاتهم حول

Waerden, B.L. Van der; *Erwachende Wissenschaft*, b. II, *Die Anfänge der Astronomie*, 1968, pp. 4-6. (7)

Neugebauer, O.; *The Exact Sciences in Antiquity* 1969; B.L. Van der Waerden, *Die Anfänge der Astronomie*. (8)

وفي مقالات أخرى مهمة نشرت في مجلات متخصصة في تاريخ العلوم و/ أو تاريخ الحضارات. ويعبر الدارسان حالياً سلطة في تاريخ العلوم القديمة.

Waerden; *Die Anfänge...*, p. 202. (9)

القمر والشمس والكواكب الأخرى والكسوف والخسوف... ولهذا فإن التحول الذي شهدته الحياة الثقافية خلال القرن السادس قبل الميلاد كان شاملاً. فترى أن ذلك التحول ارتبط بترآكُم الخبرة والملاحظات في الفلك وغيره. وفعلاً، كما يثبت فان در فيردن فإن هذه الفترة عرفت تحولاً في التنجيم وعلم الفلك مرتبطين⁽¹⁰⁾. بل إن الارتباط أشمل، حيث تتفاعل كل مجالات الحياة الاجتماعية والعقدية والمعرفية والفنية، إلخ.

ولكن لا يمكن رصد جوانب ذلك التحول الذي عاشته المجتمعات البابلية والمصرية؛ ولهذا سنشير فقط إلى السمات البارزة للتحول الذي حصل في المجتمع الإغريقي. (لعبت اللغة اليونانية وعوامل أخرى دوراً مهماً في تطور الفكر، بينما بقيت اللغات الأخرى متمسكة ببنيات عتيقة). لكن رغم ذلك، فإن أغلب المؤلفات التي ركزت على ميدان العلوم قد ضاعت ولم تصلنا إلا أخبار مبعثرة لدى هذا المؤرخ أو هذا المُجادل.

خلال القرن الخامس قبل الميلاد اتخذ الاهتمام برصد حركات الأجرام السماوية لدى الإغريق شكلاً منظماً، يُوطره مشروعٌ من أجل المعرفة الواضحة وأسلوب تفكير يتوخى الدقة والبناء المتناسك. وقد لعبت دقة عمل الراصدين البابليين دوراً كبيراً في هذه اللحظة الدقيقة من الفكر الإغريقي، ولكن كذلك فيما بعد. واضح أنه، كما يرى فان در فيردن، بدون عمل الكتاب البابليين لما كانت دقة علم الفلك الإغريقي ممكنة.

يُعيّن نويغياور ما يسميه بدايات علم الفلك لدى الإغريق حوالي سنة 400 قبل الميلاد. بينما يذكر فان در فيردن أن راصدين فلكيين من صنف ممتاز أمثال: (Buktemon و Meton) قاما بملاحظات فلكية تمثل من الدقة ما يجعلها حاسمة في تطور الفلك الإغريقي، وذلك سنة 431 قبل الميلاد. في هذه الفترة (أواخر القرن الخامس وأول القرن الرابع قبل الميلاد) أقرَّ جل المفكرين فكرة كروية الأرض، وفسروا الكسوف والخسوف، وضبطوا انتظام حركة الاجرام، إلخ... لكن في هذه الفترة حدث ما هو أهم من الناحية الاستمولوجية، إذ لم يتوقف استخدام

الرياضيات في الملاحظات الفلكية عند وضع الجداول الحسائية، بل تعداه إلى التعبير عن المسافات بين الأجرام، وأحجامها، وزاوية الملاحظة، بالأشكال الهندسية. وقد تم هذا في إطار أسلوب تفكير اتجه نحو تعميق الاهتمام بالمشاكل الاستمولوجية المتعلقة بإمكانية المعرفة الدقيقة وأساليب الملاحظة والبناء... وفي هذا الجو المناسب وضع أفلاطون السؤال المشهور: «ما هي الحركات المنظمة والمتظمة التي بواسطتها نعبّر عن الحركة الحقيقية الثابتة وراء الظواهر، لحركة الاجرام السماوية؟». وفي هذه الفترة تعددت المدارس حيث شجعت الجدل والعمل المشترك من أجل بناء معرفة تقوم على الاستدلال والاختبار.

كان أودكسوس القينيدي (حوالي 408 — 355 قبل الميلاد تقريباً) وجهاً بارزاً في خضم التحول الذي عرفته الرياضيات وعلم الفلك (ثم انعكس هذا على العلوم التجريبية الأخرى بشكل مباشر). وعاصر مفكرين كان لهما أثر عمائل، وهما ديمقريطس وأركيطاس (كان الأول أكبر سناً من الثاني، وهذا أكبر سناً قليلاً من أودكسوس). كان أودكسوس يزور الأكاديمية ويناقش مع روادها؛ عُرف أنه كان ينتقد بعض أوجه فلسفة أفلاطون. ربما كان ينتقد الطابع التأملي والمثالي لفلسفة أفلاطون لما عُرف عن أودكسوس أنه كان يفضل الفحص والنقد والاستدلال والنشاط العملي. ثم إن أفلاطون عاب على أودكسوس وأركيطاس وآخرين كونهم يستعينون بالعمل والأدوات من أجل حل بعض المسائل الرياضية (مثل تضعيف المكعب). كما عرف عن أودكسوس انتقاده الشديد للتنجيم واعتباره إياه خارج المعرفة. حوالي 360 قبل الميلاد كتب مؤلفه «الظواهر»، لكن الكتاب ضاع ولم يبق منه إلا ما ورد في شعر أراطوس. بنى أودكسوس نموذجاً هندسياً للتعبير عن حركة الأجرام السماوية سُمي نموذج المدارات (أو الأفلاك) المتراكزة، حيث الأرض في مركز النظام الشمسي تدور حولها الأجرام الأخرى. وقد أخذ أرسطو بهذا النموذج وطوره قليلاً.

عاصر عالم الفلك هيراكليس القنطري أودكسوس وأرسطو؛ ولكنه كان يأخذ بأسلوب التفكير الفيثاغوري المتطور مع تتابع الأجيال. بنى هيراكليس نموذجاً مختلفاً عن السابق من أجل حل مسألة القرب والبعد وتغير الإشعاع بالنسبة لبعض الكواكب. حيث عطارده مثلاً يبدو أحياناً قريباً ومشعاً أكثر، وأحياناً أخرى

يبدو بعيداً وأقل إشعاعاً : معنى ذلك أن المسافة بينه وبين الأرض ليست ثابتة. في هذا النموذج يدور عطارد (Venus) والمريخ (Mercure) حول الشمس، وتدور الشمس، ومعها حولها عطارد والمريخ، حول الأرض كما تفعل الكواكب الأخرى ؛ بينما تدور الأرض حول نفسها في كل يوم مرة واحدة. ربما وُجد هذا التصور قبله، لدى فيلولاوس و / أو هيكتاس و / أو إكفانتوس. كيفما كان الأمر، فكل هؤلاء يتمنون إلى التقليد الفيثاغوري.

ومن أبرز الفاعلين في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد في تقدم علم الفلك تلاميذ أودكسوس (هيليكون، بوليمارخوس، وكاليبوس)، ثم فيدياس (والد أرخميدس)، ثم أرسطرخس (كوبرنيك القديم). وقد أصبح علم الفلك يستثمر الملاحظة الدقيقة ويختبر النماذج النظرية ويتبنى الصوغ الرياضي ويسلك الاستدلال الواضح بصورة بارزة. وقد لعبت مدرسة كزيكوس التي أسسها أودكسوس دوراً رائداً حيث تبلور أسلوب تفكير يتوخى العمل المنهجي الصارم، ويعمق تقليداً للبحث العلمي. من ذلك الأسلوب، هذا نص لأرسطرخس الساموسي (حوالي 310 — 230 ق.م) يبين الدور البناء للرياضيات في علم الفلك، من كتاب «في أحجام ومسافات الشمس والقمر» :

«القضية الثامنة :

عندما تنكسف الشمس كلية، فإن الشمس والقمر يحتويهما نفس المخروط الذي قمّته عند عيننا.

حيث انه، إذا انكسفت الشمس فإنها تُحجّب عنا لأن القمر مرّ قبالتها. يجب أن تقع الشمس في المخروط الذي يغطي القمر والذي قمّته عند عيننا. وإذا وقعت فيه، فإما أنها تقع فيه بالضبط، أو تخرج عنه من جانب، أو تحتل حيزاً أضيق من المخروط (Cône).

إذا خرجت الشمس عن المخروط، لن يكون الكسوف كلياً، إذ يكون الجانب الخارج عن المخروط ملحوظاً.

إذا احتلت الشمس حيزاً أضيق من المخروط فإنها تظل محجوبة عن البصر خلال الزمن الذي يستغرقه مرور الشمس عبر الحيز الذي يفصل بين حجم الشمس وجانب المخروط.

لكن الشمس تنحجب كلية ولا يستغرق الكسوف زمناً ما، وهذا واضح من خلال الملاحظة.

إذن، لا تخرج الشمس عن المخروط ولا هو عنها.

لهذا، فإنها تقع بالضبط في المخروط الذي يحتويها ويحتوي القمر، وقمته عند عيننا⁽¹¹⁾.

التحول الذي حصل في البناء المعرفي الفلكي (بُعِيد تحول عاشته الرياضيات استدلالاً وأسساً وبناءً) كان لابد أن يؤثر على الميادين الأخرى. فعلاً بُعِيد ذلك عاشت العلوم الفيزيائية (الستاتيكا، الهيدروستاتيكا، البصريا...) تحولاً مماثلاً منذ أواسط القرن الرابع قبل الميلاد. من بين من نشط في هذا التحول نجد ديمقريطس (قبيل الفترة تلك) وأركيطاس وأودكسوس وسطراطون (معلم أرسطو) وأرخميدس وكتيسيوس وإراطوستينيس وغيرهم. هؤلاء ينتمون إلى مدارس مختلفة، لكن يجمع بينهم التوجه المعرفي الذي يستند إلى الاستدلال والاختبار بدلاً من الركون إلى الأخذ بالآراء السائدة. بلور هؤلاء أسلوب تفكير حول كيفية دراسة ظواهر الطبيعة، ووضعوا فرضيات من أجل الفحص والمعالجة الدقيقة وليس من أجل الجزم السهل، متبنين الوزن والقياس والصوغ الرياضي الفعال.

في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد ساد الاهتمام في كل من الأكاديمية والليسيوم وكزيكوس (وربما في مدارس أخرى) بسبل الاستدلال والبناء والمعرفة الصائبة. فكانت تُناقش خصائص ومميزات التعريفات والبيدييات والمسلمات والقضايا والمبرهنات في أفق البناء. نرجح أن مدرسة كزيكوس (أودكسوس ثم تلاميذه مباشرين وغير مباشرين) لعبت دوراً أهم من دور الأكاديمية والليسيوم في تقدم الاستدلال الفعلي في الرياضيات والفلك والعلوم الفيزيائية. إذ كان أفلاطون يستعمل الرياضيات كطريق للجدل التأملي ؛ وكان أرسطو يباشر «التجريب» وينسق نظرية الاستدلال ولكن بدون توظيف الرياضيات بفعالية. أما أودكسوس وتلاميذه، فكانوا يتبنون الرياضيات كأسلوب للبناء وأداة للعمل. وربما جاز القول بأن مدرسة كزيكوس طورت أسلوب تفكير أكثر منهجية وعياً بأسباب العلم مما

Heath, T.; Aristarchus of samos. The Ancient Copernicus, 1981, p. 383

(11)

نجده في الأكاديمية والليسيوم. أسلوب التفكير ذاك هو المؤهل لأن يتفتح على التحليل النقدي (الاختبار وإعادة البناء والاستدلال إلخ) والنشاط التقني (الري، المعمار، النحت، إلخ) في أفق المعالجة التحليلية والمراجعة البناءة للمعرفة.

لم يتوقف استخدام الرياضيات في هذه الفترة عند الحساب والقياس (Mesure) والنسب، بل أصبح الصوغ الرياضي يوجه مجريات الملاحظة والتجريب ويكون عنصراً مهماً في إدراك تطور الظواهر. فالصوغ الرياضي يتكفل، بفضل إدراك النسب واتجاه القيم في الوزن والسرعة...، بإسناد قيم صائبة إلى ما تؤول إليه التجربة قبل إجرائها. الأمر يتعلق ببناء نموذج نظري — رياضي تُحمل إليه قيم التجارب المُنجزة عملياً، وبإنجاز العمليات الرياضية نصل إلى النتائج التي تؤدي إليها التجارب (حتى إذا لم تُجر التجارب في حينها). إذ الرياضيات تمكن من استنتاج «المجهول» من «المعلوم»، ومن هنا قيادتها للعمل العلمي بتسخير الثوابت والمتغيرات.

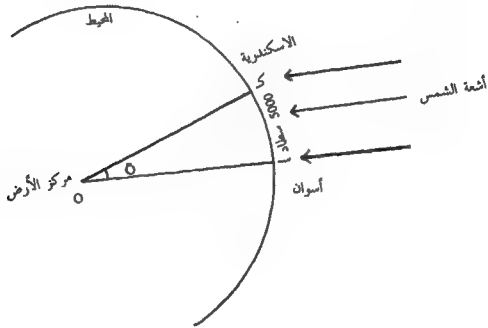
وهذا مثال يبين طريقة من الطرق التي ينوب بها النموذج الهندسي عن التجربة الفعلية، وكيف تمكن الأداة الرياضية من «الولوج إلى مركز الأرض» لقياس شعاعها و«السفر حول الأرض» لقياس محيطها كما لو تمت التجربة فعلاً. هذا الإنجاز يُسند إلى الرياضي والفلكي والجغرافي إراطوستينيس الكيريني (حوالي 280 — 195 ق.م) معاصر أرخميدس السيراكوسي وصديقه. تولى في كيرين، قورينا (Cyrena)، مدينة على شاطئ ليبيا، درس في أثينا، وعمل محافظاً لخزانة الاسكندرية وقد تمكن من حساب محيط الكرة الأرضية (وقطرها وشعاعها)، فوصل إلى قيمة تقريبية، لأنه في ذلك الوقت لم تكن تُتداول قياسات دقيقة (متر، كلم، إلخ)؛ أما من حيث البناء المنهجي فإن عمله لا يختلف عن أساليب العمل الحديثة. (توجد صيغ مختلفة لإعادة بناء إنجاز إراطوستينيس)⁽¹²⁾.

كان إراطوستينيس يعلم أن آباراً في أسوان (مدينة) تصل أشعة الشمس مستقيمة إلى عمقها، وذلك في منتصف النهار في أطول نهار في السنة (22 يونيو)؛

Heath, T.; A History of Greek Mathematics, Vol. II, 1981, pp. 106-7; G. Pólya, (12) Mathematical Methods in Science, 1977, pp. 12-14; V. Milnitchouk & M. Arabadji, Géologie Générale, Moscou, 1983, pp. 234-5.

بحيث إذا أوقفنا عوداً على سطح الأرض فإنه لا يَخْلَف ظلاً، إذ تكون زاوية الظل بالنسبة للعود صفراً. أما في مدينة الاسكندرية فإن عوداً واقفاً يَخْلَف ظلاً، يمكن حساب زاويته.

يمر نهر النيل الذي يجري من الجنوب إلى الشمال على مدينتي أسوان والاسكندرية. فاعتبر الدارس أن المدينتين تقعان على نفس خط الطول تقريباً. والمسافة بين أسوان والاسكندرية هي 5000 سطا. سطا. واحد = حوالي 258 متر.



البلورة المفاهيمية

المسافة بين أسوان والاسكندرية سـ ك = 5000 سطا.

يجب حساب الزاوية سـ O كـ.

بما أن أشعة الشمس متوازية تقريباً، فإن الزاوية سـ O كـ تساوي الزاوية A والزاوية B حسب مبرهنات أقليدس I، 27، 28، 29 من كتاب الأصول.

بما أن الزاوية B يمكن قياسها أو حسابها، وهي $7^{\circ}12'$ فإن A كذلك هي $7^{\circ}12'$ وكذلك سـ O كـ الواقعة في مركز الأرض (= $7^{\circ}12'$).

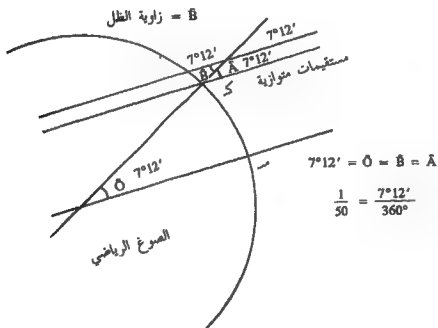
نسبة الزاوية θ ك على نسبة المركز 360 هي :

$$\frac{1}{50} = \frac{7^{\circ}12'}{360^{\circ}} = \frac{50 \text{ m}}{360^{\circ}}$$

إذن المسافة $\frac{1}{50}$ ك. تمثل $\frac{1}{50}$ بالنسبة لمخطط الأرض.

س۔ ک = 5000 سطاد ؛ فالحیط یساوی $50 \times 5000 = 250,000$ سطاد.

أي 150×250.000 م = 39500 كلم (40008,548 كلم بالتقدير الحالي). والشعاع هو 6290 كلم تقريباً (6371,11 كلم حالياً).



الصوغ الرياضي

القرن الثالث قبل الميلاد (وهو عصر أفقليدس وأرسطرخس وأرخميدس وإراطوستينيس وغيرهم) شكل لحظة التنوير للمع في بناء صرح المعارف العلمية في الفلك والميكانيكا والبصريات (بعد الرياضيات) كنتيجة للتحوّل الكثيف والجلدري الذي استغرق أكثر من قرن ونصف. لكن، مع نهاية القرن تغيّرت وتيرة التحوّل ثانية حيث أصبح بطيئاً بفعل التوتر الاجتماعي والسياسي (الحروب الرومانية) ؛ ثم أتت فترة ركود.

ويغلب الظن أن أياً من المجتمعات الأخرى لم تعرف هذا التحول الجذري المستمر. إذ عاشت في هذه الفترة تحولات بطيئة أو ركوداً نسبياً.

لنسجل بعض الملاحظات بخصوص ذلك التحول الجذري :

1 — النشاط المعرفي لا يقوم به أفراد منعزلون، بل يتم من خلال التواصل والحوار — وربما التنافس — بين مجموعة من العاملين في نفس الميدان أو ميادين متقاربة. في خضم التحول، نشأ الباحثون في تقاليد فكرية مختلفة أو إطلعوا عليها (فيثاغورية، ذرية...) لكن تشكّل، عبر الحوار، «أسلوب تفكير» يتقاسمونه قليلاً أو كثيراً، يوجه الأذهان نحو موضوعات محددة، لبلورة فرضيات وفحصها تجريبياً واستدلالاً.

2 — لا يساهم الباحثون بنفس القدر في نفس الميدان. إذ بينما يغلب الميل إلى الالتصاق بالتجربة على البعض، يغلب التنظير على آخرين، ويجمع آخرون بين الاثنين. مثلاً، لدى أفلاطون «تغلب الفلسفة على العلم»، لدى أودكسوس «يغلب العلم على الفلسفة»، ولدى أرسطو «يغلب الاستدلال الصوري والملاحظة على الصوغ الرياضي»، إلخ. ولهذا يمكن القول أن «أسلوب التفكير» الذي تطور في مدرسة كزيكوس تميز عن التوجهات الفكرية التي سادت في الأكاديمية والليسيوم، وأن الفكر العلمي مدين لأودكسوس أكثر مما هو مدين لأفلاطون وأرسطو. بل ونجد أنه في مدرسة كزيكوس تبلور ما يسمى اليوم «تقليداً للبحث» العلمي واضح المعالم.

3 — لم يكن نسفاً أفلاطون وأرسطو الفيلسوفان يشكلان، في كل تفاصيلهما، القاسم المشترك ولا حتى السمة المهيمنة على الفلسفة الإغريقية. بل كانت هناك بناءات فكرية متعددة. كان رواد وتلاميذ الأكاديمية والليسيوم ينتقدون كثيراً من أوجه فلسفتي المعلمين. فالتعدد والجدل كانا المحرك الأساسي لخصوبة الأفكار وتطور المعرفة الاستدلالية أكثر.

4 — التحول الفكري كان شاملاً : فلسفياً — عقدياً — علمياً — فنياً... التحولات دائماً شاملة، لكنها لا تكون بنفس السرعة والأثر في كل المجالات. ولهذا فإن الرأي القائل بأن «الفلسفة أم العلوم» والرأي القائل بأن «الفلسفة تظهر

في المساء بعد أن يكون العلم قد ظهر في الصباح» هذان الرأيان متعارضان بوضوح، يحتويان معاً على ثغرة إبستمولوجية، لكون الرأيين معاً يُقران التأثير في اتجاه واحد. إذ أن كل الأنشطة — الآداب والفنون والعلوم والفلسفة والاعتقادات... — تتداخل وتحترق بعضها بعضاً، بدرجات يصعب بيان حدودها.

5 — على إثر التحول الشامل، يُعاد تركيب عناصر الفكر السابق في نظام جديد، ويُعاد النظر في «الحقائق» و«المستحيل» بروح مخالفة. (ربما أصبحت «الحقائق» آراءً مسبقة وأصبح «المستحيل» أفكاراً تثبتتها التجربة). بل تُعاد قراءة تاريخ الفكر البشري كله، حيث تظهر ميادين معرفية جديدة وأدوات غير معهودة، إلخ. التركيب النظري الذي يتشكل على إثر التحول لا يستوعب كل مضامين التقليد الفكري الذي ينحدر منه ويتجاوزه. وبالمقابل، فإنه لا يوجد تركيب جديد متحرر كلية من كل عناصر أسلوب التفكير الذي يرجع إليه الفضل في بلورته. ولهذا لا يمكن تعيين بداية التحولات ولا نهايتها بكيفية مضبوطة. لأن لكل مفهوم ماضي في الفكر الذي مرّ منه قبل أن «يحطّ الرّحال» في هذا النسق أو ذاك، لكي «ينتقل» فيما بعد.

إذن، توجد محطات عبور بالنسبة للمعرفة، كما بالنسبة لأي جانب من جوانب الحياة الإنسانية، ولا يمكن الحديث عن المحطة — المنطلق الأول. فلا يمكن الحسم التام في مسألة بداية العلم⁽¹³⁾. بل يمكن الحديث فقط عن تحولات تختلف من حيث السرعة والمدى. لهذا لا يمكن اعتبار بارمنيدس أو طاليس أو أنكسمندر أول من بنى نظرية علمية ؛ فقد تكوّنت نواة معرفية صلبة (علمية أو قبل — علمية، لا يمكن الفصل ا) قبلهم، وتطورت معهم وبعدهم.

(13) يقترب تصورنا هذا من فكرة آبل ري Abel Rey حيث كتب : «لا توجد في التاريخ بدايات مطلقة... توجد متواليات، تتابعات... هناك جلور وبدايات نسبية».

La Jeunesse de la Science Grecque, 1933, p. 480.

وقد استفدنا من حيث بلورة تصورنا من كتابات L. Fleck ، L. Laudan ، I.B. Cohen وآخرين.

التصويت وزمنا التنفس

محمد حساوي

كلية الآداب — الرباط

تقديم :

إن التأمل في هذا العنوان يدرك بدءاً العلاقة الظاهرة بين شقيه، وبعتبر أوضح يدرك العلاقة بين وظيفتين : وظيفة التنفس ووظيفة التصويت. لكن إذا وُجد لوظيفة التنفس جهاز خاصّ يعمل بانتظام وبدون توقف لأن عمله مرتبط بوجود وحياة الكائن، فإن وظيفة التصويت، على العكس من ذلك، ليس لها جهاز خاصّ. إن إطلاق «الجهاز الصوت» ليس إلا إطلاقاً مجازياً. وهنا يدرك التأمل أن العلاقة الظاهرة أعقد مما يتصور ذلك أن وظيفة التصويت ملتصقة وملحقة بالوظيفة التنفسية (لأنه بدون التنفس يستحيل حصول الصوت أو حدوث التصويت) وبالتالي بالجهاز التنفسي، كما تلتحق أو تلتصق بجهاز آخر هو الجهاز الهضمي، وإن بشكل ثانوي، ونعني بالجهاز الهضمي بعض عناصره مثل الأسنان واللسان وغيرهما... وتزداد تلك العلاقة تعقيدا عندما يدرك التأمل أن التنفس يتكون من عمليتين، أولاهما دخول النفس وثانيهما خروجه. هاتان العمليتان تشكلان زمينين مختلفين : زمن إدخال النفس وزمن إخرجه.

هناك إذن زمانان تنفسيان، فأي منهما يرتبط التصويت ؟ وهل ارتباطه بأحدهما معناه الحلول محل هذا الأخير وإن إلى حين ؟. وبعتبر آخر كيف تنتظم العلاقة بين التصويت والتنفس ؟

إن إدراك العلاقة بين التنفس والتصويت ليس وليد اليوم وإن كان التقدم العلمي والتكنولوجي قد سمح بضبط أكبر وأدق لهذه العلاقة في كل أبعادها وحدودها. إن التصويت الإنساني قد كان دائما ومايزال أكبر لغز. فقد افتن الناس دوما

بالتصويت سواء في مجال الخطابة والفصاحة أو في مجال الغناء والانشاد، أو في مجال التخاطب والتواصل عموماً... إلخ. ويكفي أن تأمل العناصر المكونة للتعريفات المختلفة للغة (بمعنى اللسان) لنجد العنصر الصوتي حاضراً بقوة كبيرة قد لا تترك للعناصر الأخرى (الكتابة على سبيل المثال) سوى فرصة قليلة، بل شبه شاذة. لنأخذ إحدى التعريفات العربية الشهيرة والسائدة ؛ وهو تعريف ابن جني في كتابه الخصائص⁽¹⁾. يقول ابن جني : «أما حذّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».

هذا التعريف تناقله أغلب الذين تناولوا موضوع تعريف اللغة من بعده (وحتى الآن تقريباً). وهذا الحضور يعبر عنه بأشكال مختلفة، نقصد بكلمات متميزة مثل «عبارة» أو «لفظ» أو «كلام» إلخ. والمهم في كل ذلك هو وجود مفهوم الصوت. هذا الحضور القوي، نجده أيضاً في تعريفات غير العرب. فقد أحصى جورج موان في كتابه «اللسانية والفلسفة»⁽²⁾، تحت عنوان «تعريفات حديثة للغة»، أحصى مجموعة من التعريفات منذ القرن السابع عشر وإلى القرن العشرين ؛ فأبرز حضور العنصر الصوتي فيها كلها. هذا الحضور العام للعنصر الصوتي لا يبرره سوى أن اللغة صوتية في المقام الأول⁽³⁾.

إن الباحثين في موضوع الصوت والمهتمين به قد عرضوا لعناصره الثلاثة

(1) أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) : الخصائص (ثلاثة أجزاء)، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1 (1913)، ص 33/ ج 1.

(2) Georges Mounin, *Linguistique et philosophie*, P.U.F, 1975, Collection le philosophe, Les pages 103 à 120.

(3) القول : «إن اللغة صوتية في المقام الأول» يبرره ما يلي :
أ) أول شيء نستقبله من اللغة هو الكلام أي الوجه المادي الذي يدخل في إطار الظواهر الفيزيائية والفيزيولوجية.

ب) اللغة في أصلها وجوهرها وحقيقتها صوتية بالمثل أن معرفتها مشروطة بالكلام قبل كل شيء.
ج) الصوت هو القادر وحده على نقل الواقع اللغوي.

د) الناس صوتوا أي نطقوا أو تكلموا باللغة قبل أن يتعلموا الخط أو الرسم.

هـ) الفعل الصوتي سابق في الزمن لغيره من طرق ووسائل ترجمة الواقع اللغوي.

و) اللغة في واقعها الصوتي تظل هي هي مهما كان الرسم أو الخط الذي يعبر عنها في الواقع الفصائي (الكتابة مثلاً).

الكبرى (المادة / المصدر / السبب) مجتمعة أو متفرقة. فهذا ابن جني في كتابه «سر صناعة الإعراب» يقول : «اعلم أن الصوت يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والقم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أننا عرض له حرفاً»⁽⁴⁾. فأياً كانت الإشارات إلى بعض أسباب⁽⁵⁾ حدوث الصوت (والحرف)، فإن ما يتضح جلياً من كلام ابن جني شيان اثنان أساسيان :

1 — عدم وجود جهاز خاص بالتصويت.

2 — المادة الخام التي يتكون منها الصوت مأخوذة من النفس الخارج.

وهذا يعني أن وظيفة التصويت لا تملك جهازاً خاصاً بها، إنما هي ملتصقة بجهاز التنفس ويتضح عمق إدراك ابن جني لهذه العلاقة من خلال لفظ «مع»، أي أن التصويت لا يوقف النفس وإنما يتوازى معه. فالأصل النفس (الخارج) أما التصويت فهو تدخل بعض الأعضاء من الجهاز التنفسي (والجهاز الهضمي)، تدخلها في وجه كمية من النفس وفي نقطة محددة في مسارها وتحويلها إلى صوت لغوي وهو تحويل قصدي، وهذا يعني أن التدخل يكون بأشكال مختلفة وأحجام متنوعة وحركات متميزة من أجل انتاج أصوات وحروف لكل منها سمات وصفات خاصة.

إن وظيفة التصويت لا تلغي إذن وظيفة التنفس، ذلك أن الوظيفة الأولى طارئة على الوظيفة الثانية. وهكذا فالتصويت عملية يتطلب إنجازها توفر مادة أو طاقة معينة. هذه الطاقة تسمى : النفس.

(4) ص 4، ج 1 (تحقيق : مصطفى السقا وآخرين، ط 1، 1954، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة)، نفس الصفحة، ج 1 (تحقيق : حسن هندلوي، ط 1، 1985، دار القلم، دمشق).

(5) لن نخوض هنا في الحديث عن عناصر الصوت الأخرى (الأسباب مثلاً) ولا في الحديث عن وسائل وشروط انتقال الصوت أو وسائل وشروط استقباله (الصوت)، لأن الحديث عن كل هذا ليس هنا مجاله.

لا صوت إلا باستهلاك الطاقة (النفس) :

إن التصويت مثله مثل باقي العمليات الحيوية للجسم، فهو محتاج مثلها لمادة معينة يتكون منها نتيجة تفاعل الأجسام مع هذه المادة أو الطاقة. فلا يمكن لأي من العمليات الحيوية للجسم أن تتم دون استهلاك لكمية معينة من الطاقة ؛ مصدر هذه الطاقة يوجد في التفاعلات الكيميائية التي تحدث دون توقف داخل نفس الخلايا الحية، وأكثر هذه التفاعلات انتاجاً للطاقة، هي تفاعلات الاحتراق، أي التفاعلات التي يتدخل فيها الأكسجين⁽⁶⁾.

فالطاقة التي تحترق من أجل التصويت أو انتاج الأصوات البشرية تسمى النفس كما أسلفنا. هذا النفس يحصل نتيجة تعاقب عمليتين متعارضتين تشكلان ما يعرف بالتنفس. العملية الأولى وتتلخص في وصول الهواء الداخل إلى الرئتين وامتلاء الحويصلات أو الجيوب الرئوية به، وتسمى هذه العملية الإدخال أي إدخال الهواء أو استنشاقه وهذا المصطلح هو المقابل للمصطلح الفرنسي «Inspiration». إدخال الهواء يتم عندما «يصير الضغط داخل الرئتين أقل من الضغط الجوي : وهنا يدخل الهواء عبر الأنف، والفم، والحنجرة، والقصبية والشعبيات نحو الجيوب أو الحويصلات الرئوية، وتسمى هذه العملية بالتنفس ذي الضغط السلبي»⁽⁷⁾. عملية الإدخال تتم إذن نتيجة صراع بين قوتين : قوة الضغط داخل الرئتين وقوة الضغط الجوي. إلا أن قوة الضغط الرئوي لن تدوم طويلاً إذ ستعقبها القوة المقابلة، القوة الخارجية أو قوة الضغط الجوي. وسيترتب عن هذا عملية ثانية هي عملية الإخراج، ويقصد بها على وجه الاختصار، إخراج الهواء، وهذا المصطلح يقابل المصطلح الفرنسي «Expiration».

العملية الثانية أو عملية الإخراج تحصل إذن عندما يصبح الضغط داخل الرئتين أقوى من الضغط الجوي، فالهواء يجري إذن نحو الخارج في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي سلكه عند الدخول⁽⁸⁾.

(6) Isaac Asimov, *Le corps (Le squelette, les muscles, les organes)* ed. Marabout - Université, Paris 1977.

(7) Guy Cornut, *La voix*, ed que sais-je, N° 627, P.U.F 1983, p. 4

(8) نفس المرجع، نفس الصفحة.

كل من عمليتي الإدخال والإخراج تُولف ما يطلق عليه التنفس. وهذا المصطلح هو المقابل للمصطلح الفرنسي «Respiration»، وهكذا نستعمل :

الإدخال	مقابلاً لـ	Inspiration
الإخراج	مقابلاً لـ	Expiration
والتنفس	مقابلاً لـ	Respiration

والمقصود إذن استعمال مصطلحي الإدخال والإخراج على سبيل الاختصار أي بدلاً من تعبير «إدخال النفس» و«إخراج النفس». فنحن نستعمل هذين المصطلحين بدلاً من آخرين مفردين يكثر استعمالهما، لكن يشوبهما بعض الغموض وانعدام الدقة. هذان المصطلحان الآخران هما : الشهيق والزفير⁽⁹⁾. وتفضيلنا للمصطلحين الأولين، يبرره كذلك استعمالهما في النصوص التراثية المتخصصة في المجال الطبي. ففي الجزء الثالث من كتاب الحايي الكبير لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي⁽¹⁰⁾، نجد تحت عنوان كبير : «باب في التنفس وتقدمه المعرفة منه، بما يدل عليه وفعله في الجسم...»، نجد تناولاً دقيقاً لعمليتين تنفسيّتين أحدهما : «جذب الهواء إلى داخل والأخرى دفعه إلى خارج»⁽¹¹⁾.

كما نجد الرازي في حديثه عن «أصناف سوء التنفس، اما عظيم متواتر واما عظيم متفاوت واما صغير سريع متفاوت هذا في الانبساط ومثل هذا في الانقباض»⁽¹²⁾ يقول : «إن معنى السرعة إدخال الهواء وإخراجه سريع متواتر،

(9) إننا نتحاشى كثيراً استعمال مصطلحي «الشهيق» و«الزفير» لنتفرق بين نوعين من العملية التنفسية : النوع الأول، بيولوجي أو حيوي، ويعبر عنه أساساً بالمصطلحين المذكورين، والنوع الثاني، تصويطي، ويعبر عنه بمصطلحي الإدخال والإخراج.

(10) أبو بكر بن زكريا الرازي، (ت 313هـ) : كتاب الحايي في الطب، الطبعة الأولى، حيدرآباد، الهند، 1955.

(11) المرجع السابق، ص 282.

(12) نقل الرازي (في كتاب الحايي الكبير، الجزء الثالث) عن مختصر النبض على رأي ج، أن «التنفس مركب من انبساط وانقباض ووقتتين، أحدهما قبل الانبساط والأخرى قبل الانقباض، والوقفة التي قبل الانبساط أطول كثيراً من التي قبل الانقباض مادام الجسم بحاله الطبيعية، وكذلك مدة الانبساط أطول وإدخاله الهواء في وقت أبداً ومدة الانقباض أقصر، وإخراجه الهواء في وقت أقل، أو الوقتان يتعان في الطول والقصر طول وقت الانبساط والانقباض فيطولان ويقصران بطولهما وقصرهما...» [289].

سريع متفاوت، بطيء متفاوت ومثال ذلك في الانقباض وهو إخراج الهواء فذلك ستة عشر، ثمانية في الانبساط وثمانية في الانقباض، وذلك أن المفردات ستة عظيم وصغير، وسريع وبطيء، ومتفاوت ومتواتر. فالعظيم والصغير يكونان في كيفية الإدخال والإخراج، والسريع في سرعة حركة الإدخال والإخراج...»⁽¹³⁾.

وهكذا نلاحظ تقابلا بين عمليتين ومجموعتين من المفردات والمصطلحات :

جذب الهواء ⇌ دفع الهواء.

إدخال الهواء ⇌ إخراج الهواء.

الإدخال ⇌ الإخراج.

هذه المجموعة من المفردات والمصطلحات تنتهي إلى تقابل مصطلحي الإدخال والإخراج، وهو التقابل الذي سيتكرر مرات (في هذا الباب على الأقل) وعلى سبيل المثال، عند حديثه عن الأمراض الحادة والتنفس وذلك بقوله : «يعرض النفس المتواتر والعظيم عند انضغاط الحجاب في الأطعمة الكثيرة المحتبسة وذلك أنه يجب ضرورة أن يقل الهواء عند الإدخال من أجل ضغط المعدة للحجاب»⁽¹⁴⁾.

إن حركة التنفس إذن ومرة أخرى عملية تتشكل من تعاقب حركتين ذاتيتين هما الإدخال والإخراج.

فالتنفس بشكل رئيس وظيفة حيوية تضمن وصول الهواء إلى الرئتين، كما تضمن التبدلات الغازية. فالتهوية الرئوية، وامتلاء الحويصلات الرئوية هما اللذان يثيران الحركات الصدرية والبطنية المتوافتة، لكن ذات المدد الزمنية المتفاوتة، فالإخراج أطول مدة⁽¹⁵⁾ من الإدخال الذي يتم عبر المسلك الأنفي⁽¹⁶⁾.

(13) المرجع السابق، ص 286.

(14) المرجع السابق، ص 289.

(15) يقول الرازي في ص 289 من الكتاب المذكور : «إذا كان النفس إلى خارج سريعا كانت الوقفة قبله سريعة، وإذا كان بطيئا كانت طويلة. لأن التنفس إلى داخل يعني في الانبساط إنما يكون سريعا عند فضل حاجة إلى الهواء البارد. وإذا كان التنفس إلى داخل بطيئا، كان الأمر في الوقفة التي قبله على العكس : لأن الطبيعة لا يحفز بها شيء إلى سرعة اجتذاب الهواء».

(16) Claude Dinville, *Les troubles de la voix et leur rééducation*, ed Masson 1978, p. 17

إن عملية التنفس، عملية تتم في إطار وظيفة بيولوجية حيوية أساسها حفظ الكائن الحي (هنا البشري) وهي عملية تتم بواسطة جهاز خاص ومنتظم يطلق عليه الجهاز التنفسي. هذا الأخير يقدم المادة الخام كما يقدم عناصر من جهازه لتساهم في أداء وظيفة أخرى ثانوية ملحقة به هي وظيفة التصويت. وهذه الوظيفة يتطلب إنجازها استهلاك جزء من نفس الطاقة التي تستهلك لإنجاز وظيفة التنفس. هذه الطاقة تحتجزها الرئتان وهي مختلفة الحجم.

حجم (17) الطاقة الرئوية :

إن حجم الطاقة الرئوية يختلف بحسب الفرد والجنس والسن والحالة الصحية والنفسية وبحسب المرات والأحوال الجوية، كما يختلف باختلاف طبقات التنفس وباختلاف الوظيفة البيولوجية أو اللغوية.

هذا الحجم التنفسي لا يكاد يتجاوز لتراً واحداً عند الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8 و10 سنوات، بينما تتراوح بين 2,3 لتر و5 لترات (وأحيانا كثيرة يتجاوز هذه النسبة) عند الراشدين. وهذا الحجم أهم عند الرجل منه عند المرأة⁽¹⁸⁾.

فالحجم الأقصى للرئتين شيء دينامي، ذلك أنه يتحدد بحسب طبيعة التنفس وبحسب نمط الادخال. فبينما هو مع التنفس الهادئ يقدر معدله بـ 500 سم³، فإن هذا المعدل يصل إلى 5000 سم³ مع الادخال الاجباري، بل قد يتجاوز الحجم الرئوي هذا المعدل، كما يقول اسحاق ازيوف، ليصل إلى ستة لترات ونصف، وهذا الفارق في تقدير ازيوف يعود إلى عدّ الرئتين جسماً مكوناً من

(17) «معجم الفيزياء أو الطبيعة»، الصادر سنة 1971، الصادر عن المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم، يقترح تحت رقم 218 مصطلح «سعة» مقابل للمصطلح الأجنبي Capacity (capacité) ونفس المصطلح يقترحه «المعجم الموحد للمصطلحات الفيزيائية»، الصادر سنة 1989 عن نفس المؤسسة، وذلك تحت رقم 371. هذا المصطلح (سعة) يقابل «Capacité» بمعنى «الختى الكمي». بهذا المعنى نستعمل بلورتنا هذا المصطلح، كما نستعمل أيضاً مصطلح «كمية» ومصطلح «حجم» بنفس المعنى.

(18) نفس المرجع السابق (الاحالة رقم 11) نفس الصفحة.

عدد غير محدد من الحويصلات أو الجيوب⁽¹⁹⁾ الرئوية. فالرئتان ليستا كيسيّين كما قد يرى غيره.

إن حجم الطاقة الرئوية يخضع أيضاً للوضع الذي يكون عليه الفرد المتنفس، فهو «أقل أهمية بالنسبة للوضع المنبسط، وأكثر عمقا عندما يكون الفرد واقفاً. وهو أقل قليلاً عندما يكون هذا الفرد جالساً»⁽²⁰⁾.

إن حجم الطاقة الرئوية يختلف بحسب نمط التنفس (إدخالاً أو إخراجاً) وبحسب طبيعة التصويت، أي بحسب نمط النشاط اللفظي المقصود (طول الجمل أو قصرها قوة أو ضعف التلفظ). لكن هذا الحجم يفوق، في كل الأحوال، محتوى «الحجم الجاري» للتنفس الهادئ أو التنفس في وضع الراحة⁽²¹⁾. فالأحجام النفسية المعبأة لغير النفس العادي، يتم ضبطها بواسطة العضلات المخرجة. وهو ما يعني تنوعها وتغيرها وفق درجات الضغط الرئوي، أو الضغط الحاصل تحت الزردمة (الضغط تحت زردمي). فخلال التكلم يتراوح هذا الضغط الأخير عادة بين 2 و 12 سم ماء، لكن في الخطاب العلني، يمكن أن يصل إلى 20 سم ماء، فالكمية الإخراجية تتراوح بين 60 و 300 مل/ث. أما أحجام الهواء المعبأة فقلما تتجاوز ثلثاً ونصف اللتر.

ففي التكلم بصوت عادي تقترب الأحجام من السعة الوظيفية المتبقية. أما في الحديث العفوي، ذي الشدة (القوة) الضعيفة، فإن الأحجام تكاد تكون دائماً

(19) إن عدد الحويصلات الرئوية ليس موضوع إجماع وبالتالي غير محدد. فعددها عند فاسيلي تاتارينوف في مؤلفه «شرح وفزيولوجيا الإنسان» (دار همرة للطباعة والنشر، ط 1، 1983)، يتراوح بين 300 و 400 مليون حويصلة عند الشخص البالغ، ويصل سطحها الكلي عند الإدخال إلى حوالي 100م²، (ص 197 من المرجع المذكور) أما اسحاق أزيوق فيقدر عددها بـ 600 مليون، وعندما تنبسط يصل سطحها (مساحتها) إلى 60 متر، (ص 120 من المرجع المذكور بالأحالة رقم 6).

(20) Claude Dinvill, *La voix chantée*, ed Masson, Paris 1982, p. 18

(21) إن تعبير «وضع الراحة» يجب ألا يفهم منه وضع السكون أو الجمود لأن التنفس لا يتوقف (اللهم هنيئة من الزمن بسيطة جداً)، وإنما يجب أن يفهم منه وضع ما قبل الشروع في المجهود الإضافي.

أقل من السعة الوظيفية المتبقية⁽²²⁾.

أما في القراءة بصوت مرتفع، فإن الفرد (القارئ) يبدأ عادة خطابه بأحجام رئوية كبيرة (60 إلى 90%) من الحجم الحيوي.

وبخصوص الإنشاد، فإن الضغط تحت — زردمي، يتراوح غالبا بين 5 و20 سم ماء، لكنه في الإنشاد ذي الشدة القوية قد يصل إلى 50 أو 60 سم ماء. فهذه الضغوطات القوية يمكن الحصول عليها بسهولة كبيرة في إطار الحجم الرئوي الكبير. فالسعة الإخراجية تتراوح بين 100 و500 مل/ث، ولكي يكون استئناف إدخال الهواء سريعا ومهما، فإن هذا الإدخال يتم عادة عبر الفم مع فتح كبير للفضاء الخلفي — الخنجري بشكل يسمح بتخفيض مقاومة جريان الهواء إلى حد أقصى.

إن أحجام الهواء المستعملة تتراوح في أغلب الأحيان بين 50 و60% من السعة الحيوية، أي أنها تفوق بوضوح السعة الوظيفية المتبقية.

وبخصوص الأحجام الرئوية المعبأة، أوردت كلود دانفيل في كتابها المذكور أرقاماً، تقول إن مجموعة من الباحثين حصلوا عليها بعد العديد من اختبارات قياس سعة الطاقة الرئوية. فهذه السعة، بعد «إدخال عميق» تختلف من فرد لآخر. فهي تتراوح بين 3,5 لتر و5,30 لتر عند الرجال (كاروزو كان يدخل 4,5 لتر). أما عند النساء فتتراوح هذه السعة بين 1,8 لتر و3,7 لتر.

أما في حال الغناء (التصويت الغنائي) فإن السعة تتراوح عادة بين 1,1 لتر و1,5 لتر حسب طول الجمل. كما أن هذه السعة تتغير حسب نمط التنفس، ففي التنفس الضلعي الأعلى تكون السعة قليلة (ضعيفة) لأن هذا الموضع، هو الأكثر ضيقاً في القفص الصدري، يسمح بتطور قليل، ويحدث انقباضات مفاجئة في منطقة العنق والعضلات الخنجرية. يضاف إلى ذلك أن الصعود الحاجبي محدود والسبب في ذلك غياب الحركات الجوفية، وعلى العكس فإن التنفس الضلعي — الجوفي يسهل الاتساع في الاتجاه الأمامي — الخلفي، واذن يزيد في السعة التنفسية

Guy Cornut, *La voix ...* p. 11 (22)

دون مجهود، مع إمكان صعود الحجاب الحاجز⁽²³⁾.

إن فعالية التنفس لا تتوقف على السعة وحدها، بل تعتمد أساساً على ضبط النفس وعلى طريقة تنظيمه واقتصاده واستعماله بطريقة واعية. وضبط النفس معناه هنا معرفة حجم هذه الطاقة النفسية وحدود استعمالها.

فإذا كان حجم الطاقة الرئوية يصل إلى 5000 سم³ أو يتجاوزها، فإن توزع هذه الكمية يتم حسب مؤلف «التعبير الشفوي»، كما يلي :

- أ — الهواء المتبقي (L'air résiduel) : 1500 سم³
- ب — الهواء الجاري (L'air courant) : 500 سم³
- ج — الهواء التكميلي (L'air complémentaire) : 1500 سم³ إلى 2000 سم³
- د — الهواء الاحتياطي (L'air de réserve) : 1500 سم³⁽²⁴⁾

فهذه الكميات المعبأة يتحكم فيها، كما سلف الذكر، عمل العضلات التنفسية. فعند التنفس في حالة الراحة، وهو التنفس الذي نستعمله في الحياة العادية خارج أي مجهود خاص. فكمية الهواء المعبأة تقع بين 400 و500 مل وتحمل اسم «الحجم العادي» فكل من الإدخال والإخراج قد يصيران بحسب الحاجة والضرورة إجباريين، وهذه الإجبارية تأتي من تمديد أقصى للعمليتين العاديتين.

1) الإدخال الاجباري : إذا مددنا — بعد إدخال عادي، مددنا الحركة الإدخالية إلى أقصاها، فإننا نحقق إدخالاً إجبارياً. فحجم الهواء الذي ندخل بهذه الطريقة إلى الرئتين يحمل اسم «حجم الاحتياط الإدخالي» ويتطابق تقريباً 3000 مل. هذه الحركة تتم بفعل انقباض الحجاب الحاجز والعضلات البين — ضلعية والعضلات الإدخالية الثانوية وأيضاً بفعل العضلات الموسعة للعمود الفقري، فالعمل الأساسي خلال الإدخال يعود للحجاب الحاجز الذي يهبط لمعدل 1 سنتم ونصف⁽²⁵⁾.

2) الإخراج الاجباري : بعد إخراج هادئ يتطابق الهواء المتبقي في الرئتين

Guy Cornut, *La voix ...* p. 12 (23)

Lionel Bellenger, *L'Expression orale, que sais-je*, N° 1785, p. 45 (24)

Guy Cornut, *La voix ...* p. 6 (25)

مع «السعة الوظيفية المتبقية» أي مع 30 إلى 40% من «السعة الحيوية»، وفي هذه الحال يكون الضغط الرئوي لاغياً لأن القوة التمددية للقصص الصدري وللنسيج الرئوي تتعادلان، «فإذا تم انطلاقاً من «السعة الوظيفية المتبقية» أي من مضمون الرئتين في الهواء عند نهاية التنفس العادي، إذا تم انطلاقاً من هذا تمديد الإخراج ما أمكن فإنه ينتج عن هذا ما يسمى بالإخراج الإلجباري. والهواء الذي يخرج من الرئتين بهذه الطريقة يطلق عليه «حجم الاحتياط الإخراجي» وهو حجم يقرب من 1200 مل. هذا الإخراج الإلجباري يتم بفعل انقباض العضلات الإخراجية وخاصة العضلات البطنية»⁽²⁶⁾.

إن المجهود الإضافي — بغض النظر عن درجته وقوته — للعضلات الإدخالية والإخراجية يوضح أن الوظيفة التصويتية — الملحقة بالوظيفة التنفسية — تتطلب، من حيث مادة الانجاز، كمية خاصة بها وهو ما يعني ضرورة توزع مضمون الرئتين بشكل يضمن استمرار الوظيفة البيولوجية ويسمح بانجاز الوظيفة الصوتية، ونقول يسمح لأن ترتيب الوظائف يمكن ولكن في حدود مضبوطة، أي حدود الإرادي بالنسبة لحدود البيولوجي، وإذن ستكون في هذه الحال مع نوعين من النفس.

النفسان البيولوجي والصوتي بين التداخل والترتيب :

1 — إن الوظيفة الأولى للجهاز التنفسي هي ضمان تنقية الدم، أي تحويل الدم الوريدي إلى دم شرياني. فالتعاقب الدائم للحركة الإدخالية، التي خلالها يدخل الهواء إلى الرئتين، وللحركة الإخراجية التي خلالها يتسرب الهواء من الرئتين في اتجاه الخارج، هذا التعاقب ينتج تجديداً دائماً للهواء الموجود في الحويصلات الرئوية وهو ما يسمح بأكسنة الدم وبطرح الغاز الكربوني الضروري لتنفس خلايا الجسم⁽²⁷⁾.

والفضاء الذي يتم فيه هذا التنفس بكل مكوناته وتعقيداته يختلف من حيث

(26) المرجع السابق، ص 6.

(27) المرجع السابق، ص 6.

الحجم ومن حيث الشكل. وهذا الاختلاف في حد ذاته يؤثر على نوع التنفس وبالتالي على نوع ما يصدر من أصوات بفعله.

فالنظر في القناة التنفسية، يلاحظ أن هذه الأخيرة تبدأ واسعة عند قاعدة الرئتين ثم تضيق أولاً عند الصدر الأسفل، وثانية عند الصدر الأعلى، فهناك إذن ثلاث طبقات تنفسية، الأولى جوفية أو بطنية، الثانية صدرية والثالثة رأسية. وهذه الطبقات لها تأثيراتها على الصوت، وهي تأثيرات تنعكس خاصة على مستوى الجرس الصوتي، كما تنعكس عامة فيما يسميه علماء الأكوستيك «بالسجلات»، فكلما انتقلنا من الرئتين في اتجاه الشفتين، مروراً بالصدر، كلما صغرت التجويفات (ومعها صغرت كمية الهواء الخارج) وكثر الضغط والعكس، ولا يعني هذا مرة أخرى أن الضغط مرهون، ضعفاً وقوة، بحجم التجويفات فقط.

إن الحديث عن الطبقات التنفسية، معناه الحديث عن أنماط تنفسية. عدد هذه الأخيرة يساوي عدد الطبقات، وكل طبقة تشكل نمطاً تنفسياً خاصاً. فعادةً يتم التمييز بين ثلاثة أنماط : التنفس الصدري الأعلى، التنفس الصدري الأسفل، التنفس الجوفي (البطني). وبالفعل فإن التنفس يحصل وفق ثلاث حركات كل منها تتم في طبقة من الطبقات المذكورة.

الحركة الأولى تتم في الأسفل وذلك بتقدم وتراجع الجدار الجوفي أو البطني.

الحركة الثانية تقع فوقها وتتعلق بتوسيع وتضييق قاعدة الصدر.

الحركة الثالثة وتم فوق هذه الأخيرة وتم برفع وخفض الصدر.

وهذه الحركات الثلاثة تتطابق تقريباً مع ثلاثة أنظمة عضلية⁽²⁸⁾ والفرد المتمرن يمكنه أن يتنفس وفق كل واحد من هذه الأنماط الثلاثة.. كما يمكنه أن يجمع بينها جميعاً في حركة واحدة شاملة.

«وبالفعل فإن الحركة التنفسية تجري بشكل متنوع حسب مزاج الفرد وحسب

(28) تتوزع هذه الأنظمة العضلية حسب ثلاثة أنواع من العضلات :

- 1 — عضلات رافعة للصدر (العضلات الأجمعية).
- 2 — عضلات موسعة للصدر (العضلات البين — ضلعية).
- 3 — عضلات مكورة للتجويف البطني (الحجاب الحاجز).

استعداداته في اللحظة التي يتنفس فيها، فإذا كان البال منشغلاً بأحلام غامضة وهادئة، يكون التنفس من النوع الصدري البطني، وإذا كان منشغلاً بأفكار مثيرة فإن التنفس يتطور نحو النمط الصدري الأعلى. فالانفعال يُرفع معه (التجويف) الصدري، والمفاجأة تترجم بادخال نشيط للنفس مع رفع (التجويف) الصدري، وفي حال الارتباك يظل الصدر مرتفعاً...»⁽²⁹⁾.

إن النفس البيولوجي يطرأ عليه تعديل من حيث الكم ومن حيث الأعضاء الفاعلة، هذا التغير يبدأ قبيل الكلام. «فأغلب الناس يدخلون النفس قبل أن يشعروا في التكلم، وهذا الإدخال يتم بانقباض الحجاب الحاجز وهبوطه ثم بدفعه الأضلاع السفلى نحو الخارج. وفي نفس الآن فإن العضلات البين — ضلعية الخارجية وجزء من الواقعة القصية للبين — ضلعية الداخلية، يرفعان الأضلاع... فعندما يكون الإدخال عميقاً فإن العضلات البين — ضلعية الخارجية قد تصحبها دون شك عضلات أخرى من عضلات الجذع. لكننا لم نعرف بعد على وجه التدقيق ماهية هذه العضلات الإدخالية الثانوية (لأنه حتى بعد إخراج عميق، فإنه يبقى دائماً كمية ما من الهواء داخل الرئتين). وكيفما كان الحال فإن الغشاء الجداري يتبع الحركة الرابطة للحجاب الحاجز، كما يتبع حركة التوسيع التي يقوم بها القفص الصدري، مادامت تتصل بهذا الجزء أو ذاك من أجزاء الجسم. ومن نتيجة هذا الزيادة في الفضاء البين — غشائي. لكن بما أن هذا الفضاء محكم الغلق، فإن الضغط يصبح سلبياً. أما الهواء الذي يوجد في الرئتين فإنه ما فتئاً يتمدد من أجل تحييد هذا الضغط السلبي. فالرئتان عندما يكبر حجمهما، فإنهما تخلقان ضغطاً سلبياً في الحويصلات، فيدخل الهواء الخارجي عبر الأنف (أو الفم) إلى المسالك التنفسية السفلى من أجل تحييد هذا الانخفاض (في الضغط)»⁽³⁰⁾.

إن الهواء المُدخل (المستنشق) لكي يصير كلاماً، يجب أن يدفع من جديد نحو الخارج. وهذا الدفع يتم بقوة معينة. وبتعبير آخر فإن التكلم يجب أن يكون

François Le Huche et André Allali, *(La voix Anatomie et physiologie des organes de la voix)*, ed. Masson, Paris 1984, p. 75.

Y. Lebrun, *Anatomie et physiologie de l'appareil phonatoire*, ed. Labor / Fernand Nathan, (30) Collection : Langues et culture, 1968, p. 10.

قادراً أن ينتج، خلال بعض الثواني، ضغطاً شبه ثابت داخل الرئتين والقصبية الهوائية. فكلما أردنا التكلم بصوت مرتفع (بقوة) كان لابد من رفع الضغط الهوائي⁽³¹⁾.

إن النسيج الرئوي، نسيج تمددي ومن ثم فهو دائماً في حالة توتر ويميل باستمرار نحو الانقباض... فتمدد القفص الصدري وانخفاض الحجاب الحاجز المترتب عنه، يرغمان الرئتين على الاتساع. هذا النسيج الرئوي كما يقول «هـ. روفير» في مختصره، كثير الصلابة وكثير التمدد في نفس الآن⁽³²⁾.

فهذه القدرة على التصلب والتمدد هي التي تساعد على المساهمة في خلق الضغط أو إزالته كما تساعد على ضبط عمليتي التنفس عموماً.

«فالرئتان — وهما العضوان التمدديان — تكونان عند نهاية عملية الإدخال قد انتفختا هواءً. وبما أنهما تميلان طبيعياً إلى الانقباض (الانكماش والتقلص) فإنهما تجذبان الغشاء الجداري، ويترتب عن هذا أن الحجاب الحاجز يُجذب نحو الأعلى بواسطة الرئتين وذلك منذ أن يبدأ في الانبساط، بينما يدفعه من الأسفل الضغط البطني الداخلي. هذا الضغط قد تضاعف بفعل هبوطه أثناء الإدخال».

1) النفس الصدري الأعلى :

إن هذا النفس ناتج عن الانخفاض الضلعي في شكل «قبة مضخة» وذلك بفعل العضلات البين — ضلعية الداخلية، وهو انخفاض يترجم بتقعر للقفص الصدري (انزياح سلبي للقفص). هذه الحركة ينتج عنها انضغاط الجزء الأعلى للرئتين، فحدوث نفس صدري أعلى يفترض حركة صدرية تنفسية عليا. «ذلك أن التنفس الصدري الأعلى يتطابق مع الكلام أو مع الصوت غير الموجه (التعبير البسيط). واستعمال النفس الصدري الأعلى يؤدي إلى عمل خاصٍّ للحنجرة، التي يجب أن تلعب في هذه الحالة دوراً مزدوجاً، دور الغالق ودور «الهاز» مع قطع الصوت في شكل «وقفة حنجرية».

(31) المرجع السابق، ص 11.

(32) H. Rouvière, Précis d'anatomie et de dissection, ed. Masson, 1976 (32)

إن استعمال النفس الصدري الأعلى خلال مدّ الصوت يعدّ العنصر الرئيس لسلوك الصّوت الإجماعي، وهذا لا يمنع أن يكون هذا النفس — خارج هذا الاستعمال — عادياً جداً وذلك خلافاً لبعض الأقوال التبسيطية⁽³³⁾.

وبخصوص هذا النفس أيضاً قيل الكثير عن مساهمة الحجاب الحاجز في مراقبة الضغط النطقي، لكن جميع التجارب «الالكتروميوغرافية» التي تمّ اعتمادها من أجل التحقق من هذا الزعم، أعطت نتائج سلبية : فعند أغلب المتكلمين الذين تمّ فحصهم، فإن الحجاب الحاجز ينبسط [أي لا ينقبض] في بداية الفعل الكلامي وبالنتيجة فهو لا يساهم البتة في مراقبة الضغط النطقي⁽³⁴⁾.

إن التنفس إذن فعل طوعي وغير طوعي في نفس الآن. فالإرادة تمارس على التنفس بشكل يجعل من الممكن تسريعه أو حصره أو حتى إيقافه بضع دقائق في حالة الحاجة (السباحة تحت الماء، اختراق غطاء غازي سأم على سبيل المثال). فليس الضغط النطقي سوى نتيجة لتطافر عدة عوامل تتحكم مباشرة أو بشكل غير مباشر، في عملية التنفس عموماً والتنفس الصوتي خصوصاً، لكن هذا الموضوع ليس مجال اتفاق بين الباحثين في التشريح وفزيولوجيا الصوت ؛ فقد ذكر في كثير من المؤلفات الصوتية أن العضلات البطنية تساهم في انتاج الضغط النطقي. إلا أن هذه الأطروحة تمّ دحضها بواسطة النتائج التي توصل إليها مجموعة من الباحثين على رأسهم فوناكي وليدفوكد ودراير وويتروجر ومولر ولوبران. هذه النتائج تمّ التوصل إليها بالاعتماد على تقنية «التصوير الكهربائي للعضلات» (الاليكتروميوكرافيا) : فعندما نتكلم بشكل عادي فإن العضلات البطنية لا تنقبض أي أنها لا تتحرك إلا عندما نتكلم بصوت مرتفع أو لما لم نعد نتوفر — على مستوى الاحتياط النفس — إلا على كمية قليلة من الهواء داخل الرئتين⁽³⁵⁾.

أما مستون فقد وصف في كتابه الأصواتية الآلية (الطبعة الثانية)، وصف فزيولوجيا عضلات الجذع في عملية الكلام، فلاحظ أثناء الكلام أن عضلات

Le Huche, *La voix (anatomie ...)* p. 78 (33)

Y. Lebrun *(anatomie ...)* p. 13 (34)

(35) المرجع السابق، نفس الصفحة.

الجدع الكبيرة تنقبض بين وقتين⁽³⁶⁾ أو إدخالين، وهذا الانقباض، الذي يتم ببطء، يقلص التجويف القفصي فيصعد تيار الهواء من الرئتين نحو الحنجرة والتجويفات الفمية والأنفية. وهذا التيار تلتصق به نفخات من الهواء تحدنها انقباضات مفاجئة للعضلات البين — ضلعية الداخلية. فانقباض عضلات الجذع — حسب ستسون — انقباض مراقب أي أنه تدريجي وبطيء، أما انقباض العضلات البين — ضلعية الداخلية فهو على العكس قذفي، لأنه يحرك القفص الصدري ثم يزول. أما هبوط الأضلاع، فيوقفه الانقباض القذفي للعضلات البين — ضلعية الخارجية. أو يوقفه الضغط المضاد الحادث بفعل نطق صوت صامت يمنع أو يحد من هبوط الهواء الخارج. إن نفخة الهواء الناتجة عن انقباض البين — ضلعية الداخلية والتي تم إيقافها بفعل انقباض البين — ضلعية الخارجية أو تضيق أو غلق صامتي في الفم — هذه النفخة من الهواء تشكل مقطعاً. فعندما يرد إنتاج مقطع منبور، فإن الانقباض القذفي للبين — ضلعية الداخلية يتقوى بفعل تسريع مفاجيء وقصير لانقباض عضلات الجذع الكبير هذه النظرية المسماة غالباً بـ «نظرية خفق الصدر» (Chest - pulse theory)، قد تبناها عدد من اللسانيين، رغم أنها تركز على ملاحظات عامة. وقد دحضتها نتائج التحريات الألكتروميوجرافية⁽³⁷⁾.

(2) النفس البطني⁽³⁸⁾ :

في هذا النفس تنتج حركة العضلات المائلة والعضلات العرضية للبطن، تُنتج في نفس الآن :

(36) يسمى الرازي، في كتابه السابق، الوقفة أحياناً «سكوناً» وذلك في قوله «إن التنفس مركب من ادخال الهواء وهو الانبساط والوقفة التي تكون قبل أن تبدأ باخراج الهواء أعني الانقباض والوقفة التي تكون بعده حتى تبدأ بالانبساط ثان، فهذه أربعة أجزاء، حركتان إحداهما انقباض والأخرى انبساط، وسكونان أحدهما قبل الانقباض والآخر قبل الانبساط. والذي قبل الانقباض أقصر بالطبع وكأن النفس إنما هو ثلاثة أجزاء الانبساط والسكون الذي بعده والانقباض» (ص 291).

Y. Lebrun, Anatomie ... p. 14 (37)

(38) تحدث لوبران في «تشريحه...» (الحالة 17) عن مجموعة من الخصائص تميز المقعدة (Ventriloquie) عن الفعل الكلامي العادي. وخلص منها إلى القول : «إن المقصاق لا يستخدم بطنه أبداً من أجل التكلم»، وهذه الخصائص هي : (1) الحجاب يظل متشنجاً، =

— تراجعاً للجدار البطني الذي يترتب عنه سحب الحجاب الحاجز نحو الأعلى.
— انخفاضاً ضلعيّاً في شكل «عروة سطل» يترتب عنه تضيق جانبي جديد للقفص الصدري.

ومن تأليف هاتين الحركتين يحصل انضغاط الجزء الأسفل للرئتين، وفي هذه الحركة، فإن الحجاب الحاجز — المضاد (المعاكس) للبطنيات، يحتوي ويراقب حركة هذه العضلات، متيحاً بذلك انفاقاً دقيقاً للنفس حسب ضرورات إنتاج الصوت. فالبطنيات تدفع والحجاب الحاجز يجذب وذلك مثل اليد الثانية للعامل الذي يستخدم آلة للصقل فهو يدفع الآلة بيد ويجذبها باليد الأخرى. وهذا ما يسمح له بعمل قوي ودقيق في نفس الآن. ومن شأن هذا أن يتيح للحنجرة، التحرر من دورها كعاصرة، وتقتصر فقط على عملها كهزازة بشكل أكثر ليونة. والملاحظ هنا أن الصدر، خلال النفس البطني، لا يتغير أثناء البث (الصوتي)، لكن على العكس من ذلك، تبدو اليد القصية (Manubrium sternal) ممدودة قليلاً إلى الأعلى وإلى الأمام (انزياح إيجابي للقص). إن انجاز تنفس بطني يتطابق ومدّ الصوت، أي التصوير الحادث بالقصد الصريح للتأثير في الناس. فما أن تبدأ العضلات البين — ضلعية الخارجية والجزء الوافي، للقص من العضلات البين — ضلعية الداخلية (واحتمالاً أيضاً العضلات الادخالية الثانوية)؛ ما أن تبدأ هذه العضلات في الانبساط حتى يتم خفض الأضلاع بواسطة الرئتين اللتين تجذبان الوجه الداخلي للقفص الصدري. كما أن هذا الخفض يتم أيضاً بواسطة الغضاريف الضلعية التي تشنجت أثناء الادخال. إن انقباض الرئتين يحدث ضغطاً زائداً في الحويصلات، فيتسرب جزء من الهواء المدخل نحو الخارج من أجل تحييد هذا الضغط الزائد⁽³⁹⁾.

إن قوة الجذب في الرئتين، والحركة التي تقوم بها الغضاريف الضلعية، يشكلان

= (2) كمية الهواء تقل، (3) التردد الأساسي يرتفع أكثر، (4) لسان المزمار يفلق جزئياً مخرج الحنجرة، (5) الحلق يضيق أكثر، (6) الفك الأسفل والشفتان يكونان شبه ساكنين، (المراجع، ص 28).

معا ضغط الاسترخاء، الذي يتناسب مع كمية الهواء الحاصل في الرئتين. وعندما يفوق الاسترخاء الضغط النطقي الحاصل (وهذا يتم عندما نتأهب للنطق ببطء، بعد إدخال عميق)، فإن العضلات التي رفعت الأضلاع أثناء الإدخال، تنبسط ببطء، وبشكل يحد من ضغط الاسترخاء... فكلما تناقص حجم الهواء في الرئتين، ومعه تناقص ضغط الاسترخاء⁽⁴⁰⁾، فإن العضلات الداخلية تحتزل حركة الحصر (الكبح)⁽⁴¹⁾.

(3) النفس المختلط :

إن النفس الصدري الأعلى والنفس البطني، المتميزين جدًا، وبصفة عامة، بإمكانهما أن يجتمعا ولو انتقل الفرد من أحدهما إلى الآخر. وفي حالة توجيه الخطاب نحو المخاطب، فإن الطابع التعبيري يكون مهمًا. إن حركة الانحناء الفقاري، قد تتدخل أحيانًا لتعقد أيضا الآلية التنفسية. فالفرد يمكن أن يحدث ضغطًا أكبر تحت الزردمة، ويكون هذا مصحوبًا بيث صوتي أكثر كثافة من الناحية المبدئية. إلا أن هذه الآلية، يجب أن تبقى نسبيًا استثنائية حتى لا تؤدي إلى نتائج مزعجة بالنسبة للحنجرة. وبهذا نكون قد وصلنا حدود الباتولوجيا⁽⁴²⁾. إن الرئتين والجدار القفصي — عكس القلب — لا يملكان سلطة إيقاعية ذاتية، ذلك أن الطبيعة الدورية للإدخال وللإخراج مراقبة بواسطة أعصاب متموقة في عجرة المخ⁽⁴³⁾. فعند نهاية التلفظ بجملة طويلة، وبنفس واحد، أو عندما نتكلم بصوت مرتفع، فإنه من الضروري أن يصاحب العضلات البين ضلعية، عضلات أخرى، وخاصة الأيمن الأكبر، والمائل الخارجي، والمائل الداخلي، والعضل العرضاني.

Y. Lebrun, *Anatomie ...* p. 11 (40)

(41) كلما تناقص الحجم الرئوي، فإن «ضغط الارتخاء» ينخفض ويصير في النهاية غير كاف. فالعضلات المدخلة، تتوقف عن الحركة أما الضغط فيحافظ عليه بواسطة العضلات الخارجة. فيعد إدخال عميق، فإن «ضغط الارتخاء»، الناتج عن القوة التمددية، يكون جئًا مرتفع. فالعضلات المدخلة، يجب أن تظل متقبضة «لتحصر» حركة غلق القفص الصدري (إحالة رقم 13، ص 11).

Le Huche et Allali, *La voix (anatomie) ...* p. 78 (42)

(43) المرجع السابق، ص 76.

وهذه الأعضاء كلها لا تساهم فقط في خفض الأضلاع السفلى، ولكنها تقلص التجويف البطني الداخلي، وهذا الضغط، عندما يتزايد يدفع، الحجاب الحاجز وقاعدة الغشاء الجداري، يدفعهما أكثر نحو الأعلى⁽⁴⁴⁾.

إذا كانت الوظيفة الأساسية للجهاز التنفسي تتعلق أولاً بضمان تنقية الدم أي تحويل الدم الوريدي إلى دم شرياني، كما سلف الذكر، فإن هذا الجهاز، يصلح ثانياً لإنتاج النفس الضروري لتنفيذ بعض الأفعال مثل: النفخ، والصفير، والسعال، وكذا التكلم، والغناء، والصراخ. وخلال كل هذه الأفعال، التي يعد النفس محرّكاً لها، فإن الوظيفة الأولى للجهاز التنفسي — تنقية الدم — يجب أن تستمر حاضرة، لكنها لم تعد الوظيفة الوحيدة التي تتحكم في الحركة التنفسية، فقد أصبح على هذه الأخيرة أن تتكيف قبل كل شيء مع ضرورات إنتاج النفخ، وهكذا، فإن على هذا الجهاز التنفسي، أن يقوم، في حال التصويت، بوظيفتين اثنتين في نفس الآن : 1) الاستمرار في ضمان تنقية الدم، 2) توفير النفس الملائم للضرورات المتغيرة للإنتاج الصوتي⁽⁴⁵⁾.

إن الحديث هنا عن النفخ ينطلق في عدّ جهازنا التنفسي نوعاً من أنواع الآلات النفخية، لكونه يحتوي منفخة (Soufflerie) تتكون من الرئتين والقفص الصدري والبطن ؛ ونظاماً منتجاً للاهتزاز يتكون من الحنجرة والوترين ؛ وأعضاء مدعمة للجرس أو مُجرّسة وهي الفم والحلق والتجويفات الأنفية. فالتنفس الصوتي ليس هو التنفس الرياضي أو التنفس في حالة الراحة⁽⁴⁶⁾.

واعتبار جهازنا التنفسي من الآلات النفخية معناه فيما يرجع لموضوع التصويت أن الإخراج هو الصوت أي أن التصويت يتشكل من الهواء الخارج وذلك في الأغلب الأعم⁽⁴⁷⁾. لكن التأكيد على الهواء الخارج (دون الخارج) معناه التفريق بين لحظتين في خروج النفس : لحظة الخروج الهادئ وهو حاصل عودة

Y. Lebrun, *Anatomie* ... p. 12 (44)

Le Huche et Allali, *La voix (anatomie)* ... p. 75 (45)

Lionel Bellenger, *L'Expression* ... p. 44 (46)

(47) نقول الأغلب الأعم حتى لا نلغي من الحساب أي امكانية لاستعمال الهواء المدخل، رغم أن هذه الامكانية قليلة جداً، ولا يعد بها في اللغات المعروفة.

الأعضاء التنفسية إلى وضع الراحة تحت تأثير القوتين التمديدية القفصية (الصدرية) والرئوية، وذلك عندما تتوقف هذه العضلات عن العمل. ولهذا السبب يعد الزمن الإخراجي زمناً سلبياً⁽⁴⁸⁾.

أما لحظة الخروج (هنا الإخراج) النشيط، فهي اللحظة التي تتدخل فيها الإرادة بقصد التصويت. وهذا الإخراج يتطلب منذ بدايته تدخل نشاط عضلي، اللهم في حالة جدّ خاصة (حالة تنفس الصعداء المحسوس). وهذا التدخل هو ما يعبر عنه بالقول : إن الإخراج نشيط في التصويت ؛ وهذا النشاط يستدعي حسب المخطط التصويتي المقصود مجموعتين عضليتين تتألفان من :

1 — المجموعة البين — ضلعية الداخلية.

2 — مجموعة العضلات الجوفية.

فخلال الإخراج يلاحظ استمرار النشاط الداخلي، الشيء الذي يعدل ويراقب الإخراج أي النفس الصوتي، ومن ثم فالحجاب الحاجز يراقب النفخ الجوفي. إن التصويت يؤدي إلى تبني إيقاع تنفسي خاص، مختلف كليّة عن إيقاع التنفس الهاديء.

— ففي التنفس الهاديء، يكون الإيقاع التنفسي منتظماً ولا تتغير المدة من دورة إلى أخرى إلا قليلاً. إن مدة الزمنين التنفسيين متشابهة، وإن كانت مدة الإخراج (النفسي) أطول قليلاً من مدة الإدخال (النفسي)⁽⁴⁹⁾.

— أما في التصويت، فإن الإيقاع التنفسي يفقد انتظامه، إذ الإدخال يتقلص بشكل كبير ويتخذ شكل حركة نقطية، والإخراج يصبح نفخاً (نفساً) صوتياً، ويمتد بشكل متغير وأحياناً بشكل متقطع بواسطة توقفات مع حبس أو عرقلة حنجرية، تتطابق والتردد الطبيعي الذي يميز بداية الكلام العفوي.

هذا الانقلاب الإيقاعي، يدل بوضوح على أن الوظيفة الصوتية، تصبح العامل الحاسم في السلوك التنفسي، كما يدل على أن ضرورات تنقية الدم تتراجع إلى المرتبة

Le Huche et Allali, *La voix (anatomie)* ... p. 76 (48)

Le Huche et Allali, *La voix (Anatomie)* ... p. 75 (49)

الثانية، وقد يترتب عن كثرة التراجع إلى هذه المرتبة، أن تنقية الدم لم تعد مضمونة بشكل كاف مما يترتب عنه حصول لُثْث يَأْتِي بدوره ليعرقل عملية الكلام⁽⁵⁰⁾. وهذا يوضح حدود التدخل الإرادي، كما سلف الذكر.

ز) منا التنفس أو تكييف التنفس للتصويت :

إن الرئتين ليستا مجرد مؤكسن للدم، بل إنهما خزان هواء التصويت. وتكييف التنفس للتصويت معناه ضبط التفاعلات الأساسية الحاصلة في إطار من تداخل العمليتين البيولوجية واللغوية. وبناء على ذلك فاللحجم الأقصى للرئتين هو حاصل (مجموع) كميات فرعية بعضها ينتمي لعملية التنفس والبعض الآخر ينتمي لعملية التصويت. فلذلك «يجب أن تضبط كمية التبادل بين الهواء المتبقي (L'air résiduel) وهو 1500 سم³ الذي يظل في رئتيها بعد إخراج إجباري وبين الهواء الجاري وهو 500 سم³ الذي يكفينا في حالة الراحة، وبينهما وبين الهواء التكميلي ويتراوح حجمه بين 1500 سم³ و2000 سم³، وهي الكمية التي يمكن اختزانها بواسطة الإدخال الاضطرابي. فعند التكلم يجب استدعاء (أو استحضار) الهواء الاحتياطي الذي نحن في حاجة إليه بانتظام وحجمه هو 1500 سم³. فإذا لم نحط عند إدخال الهواء التكميلي فإننا سنغرف من الهواء الاحتياطي وسنلهث⁽⁵¹⁾.

ت) تكييف التنفس للتصويت :

إن تكييف التنفس للتصويت معناه فرض انتظام خاصّ لضمان حصول الوظيفتين في ظروف ملائمة لا تخلّ بمتطلبات وبشروط أي من العمليتين أو الوظيفتين وجوداً وطريقة إنجاز.

هذا الانتظام الجديد لنظام الجهاز التنفسي (ولنظام الجهاز الهضمي) سيؤدي إلى انتظام مركب (من الجهاز التنفسي والهضمي) يقف وراء التسمية المجازية الجارية على ألسنة الباحثين في هذا الموضوع ونقصد «الجهاز المصوت أو الصوتي».

(50) نفس المرجع، الصفحة 76.

(51) Lionel Bellenger, L'Expression ... p. 45

إن المقصود بالتكيف إذن هو مراقبة عملية التنفس بالشكل الذي يسمح لعملية التصويت أن تتوازى (مؤقتاً) أو تتعاقب معها. وهذا هو ما عبر عنه ب. بلانسيان⁽⁵²⁾ في الجزء الثاني من مقالته حول فيزيولوجيا التصويت : الوظيفة الصوتية بقوله : «خلال التصويت يجب مراقبة التنفس حتى يكيف تأثيراته (فعله) مع متطلبات البث الصوتي. وهذا ما يسمى «النفخ». فإيقاع الإدخال والإخراج يتعدل. وهكذا يجب أن يكون الزمن الإدخالي سريعاً حتى لا يقطع الإرسال الصوتي بشكل غير مضبوط ($\frac{01}{16}$) من الدورة تقريباً. أما الزمن الإخراجي فسيتمدد (يطول) وهذا يتطلب إمساكاً (= حجزاً) للنفس من أجل السماح بمدة للبت الصوتي أطول ما أمكن مع المحافظة على ضغط صحيح»⁽⁵³⁾.

إن الصوت يمكن عده إخراجاً نفسياً مُصَوِّتاً. ففي التنفس الهادئ، تمتلئ الرئتان إلى حد ما بفعل حركة العضلات الإدخالية أو المُدخِلة، وتفرغان نسبياً بفعل العودة البسيطة لهذه العضلات إلى وضع الراحة. وعلى العكس فإن الإخراج يكون نشيطاً في التصويت أي أن الهواء يخرج من الرئتين بفعل حركة العضلات الإخراجية، أو المُخرجة، وهذا الإخراج النشط والضروري لإنتاج الصوت، يسمى النفخ الصوتي⁽⁵⁴⁾ أو النفس الصوتي.

فإذا انطلقنا من الطبقات التنفسية (كما سبق) وأضفنا إلى ذلك طريقة التنفس وطبيعة الصوت المبثوث نجد أن كل ذلك يترك بصماته وآثاره على علاقتي الإخراج والإدخال كزمنين تنفسين متعارضين، بعملية التصويت.

«فعندما يكون الصوت، جيد الجرس، لا نُحس أن هناك بثاً للنفخ ولكن بثاً للاهتزاز. فالإخراج يفقد خاصيته كهواء ليكسب خاصية الصوت، ورغم إصماته ومراقبته بواسطة تقنية متطورة، فإن تيار الهواء يوجد مع ذلك. فالنفخ الصوتي لا ينتج دائماً بنفس الطريقة، فهو أحياناً ينتج بواسطة تخفيض القفص الصدري (النفخ القفصي الأعلى) وهذا ما يحدث أثناء التعبير البسيط. وأحياناً ينتج بفعل

B. Vallancien / A. Moles : *Phonétique et phonation*, Masson et cie 1966 (52)

(53) المرجع للذكور، ص 65.

Le Huche et Allali, *La voix (anatomie)* ... p. 25 (54)

حركة العضلات البطنية (النفخ البطني) وهذا ما ينتج أثناء المدّ الصوّتي. وأحيانا ينتج بواسطة حركة مركّبة من التخفيض القفصي ومن حركة العضلات البطنية (النفخ المختلط). وأحيانا يستعمل الانحناء القفصي (تقوس الظهر)، في سياق جهد مهم إلى حدّ ما وهذا ما يحدث في سلوك الإجهاد الصوتي⁽⁵⁵⁾.

إن طبيعة التصويت الحاصل ذات علاقة مباشرة مع طبقة التنفس، ففي التصويت المفاجئ يسود التنفس الصدري، بينما مجرد التكلم يتطلب أكبر استهلاك للهواء وتوزيعا جيّداً للتنفس، وهو ما يحصل بواسطة الحزام البطني.

إن التنفس حركة آلية وإرادية في نفس الآن، ونقصد بالحركة الآلية ما يحدث خلال الراحة أو خلال النوم حيث التنفس العادي يتواصل بإيقاع يضمن حصول عمليتي التنفس بالشكل الملائم.

والحديث عن الجانب الإرادي معناه التدخل القصدي في التنفس والتصرف فيه تسريعاً أو حصرّاً بل وحتى إيقافاً لبضع ثوانٍ إذا اقتضت الحاجة ذلك مثل المساعدة على رفع أو دفع شيء ثقيل أو عبور منطقة يملؤها الدخان الخائض أو الغازات السامة، أو عند السباحة تحت الماء... إلخ إلا أن هذا التدخل يزداد أهمية في حالة التصويت. إنه التحكم في عملية التنفس الذي يجعل الكلام ممكناً، بل إن جودة الكلام أو عدمها تخضع لشكل وطبيعة التحكم في الحركات التنفسية، ولطريقة توزيع الكمية النفسية. فأول ما يجب أن يقوم به الخطيب أو المغني وحتى المتكلم المثالي هو الضبط الواعي لعمليتي التنفس وخاصةً منهما العملية الثانية أي عملية الإخراج. وهكذا فالتكلم السريع أو البطيء يفرضان على المتكلم أن يتوقف ليسترجع نفسه إن هو أراد مواصلة الكلام.

إن التنفس الصوّتي لا يشبه التنفس الرياضي أو التنفس في حالة الراحة، بل وأكثر من هذا، فإن التنفس في حال التلفظ ليس طبيعياً أو عقوياً لذا يجب معرفته نظرياً والتحرر عليه⁽⁵⁶⁾. إن تكييف التنفس وفق متطلبات التصويت سيعدل من الأحيزة الزمنية العادية التي يحتلها أي تعديل في عمليتي التنفس على وجه

(55) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(56) Lionel Bellenger, L'Expression ... p. 44

الخصوص. «في التنفس العادي، أي تنفس حالة الراحة أو المشي، تكون مرحلة إدخال الهواء هي النشيطة والطوعية. أما الإخراج فيتم بمجرد إرخاء (تسريح) العضلات المقصودة. فعند التكلم نلاحظ أن مرحلة الإخراج تستغرق أكبر مدة للتنفس الصوتي الذي يكسر روتين آليتنا التنفسية»⁽⁵⁷⁾. فعندما نتكلم، نخضع سدس $\left(\frac{01}{6}\right)$ الوقت للدخال والباقي أي خمسة أسداس $\left(\frac{5}{6}\right)$ للإخراج البطيء. ومعنى هذا أن الإخراج هو الوقت القوي.

والإخراج البطيء هنا شيء يرتبط بالتعلم والاكسساب لأن كل اضطراب فيه يؤثر سلباً من حيث الكمية ومن حيث الزمن الذي يستغرقه توزيعها، وانفاقها وفق متطلبات الكلام، فالكلام يتطلب مراقبة وضبطاً للتنفس الذي يجب أن يكون بطيئاً وأكثر سعة من وضع الراحة، «فالتنفس أثناء الكلام معناه تلبية الحاجيات الدائمة في أكسنة الدم وفي التخلص من الغاز الكربوني، فالهواء يتبع مسلكاً معروفاً: الفم، المناخير، الحلق، الحنجرة، القصبة، الشعبات ثم الرئتين. ذلك أن اتصال الدم والهواء يتم في فصوص الرئتين، وعن هذا الاتصال ينتج التبادل الكيميائي»⁽⁵⁸⁾.

إن نمط التنفس ينعكس سلباً أو إيجاباً على نوعية الصوت. «فالصوت يكون محجوراً إذا صدر عن نمط مرتكزه التنفس القوي بواسطة نفخ القفص الصدري، ورفع الكتفين، وإخراج كمية النفس بسرعة أكبر. فيجب إذن إيجاد نمط آخر للتنفس: التنفس البطيء والضلعي. إذ عند التكلم لابد من «تسيير» (إدارة) حجم أقصى للرئتين (5000 سم³)»⁽⁵⁹⁾.

إن المطلوب إذن آلية تنفسية تدخل الهواء بشكل ينفخ البطن (التنفس البطيء) ويوسع القفص الصدري جانبياً (التنفس الأضلاعي) وذلك بهدف ضمان وجود كتلة الهواء المطلوبة فوق الحجاب الحاجز (الديافراغم).

«إن التنفس أثناء الكلام يرجع إلى إدخال الهواء بواسطة الفم وبكمية تفوق

(57) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(58) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(59) نفس المرجع، الصفحة 45.

الكمية العادية، ونفخ البطن وتوسيع القفص الصدري، وإخراج الهواء وذلك بالتكلم بموازاة النفس خلال 15 أو 20 ثانية⁽⁶⁰⁾.

«فالتكلم بتواز مع النفس يسمح للمتكلم أن يصوت طويلاً أو بقوة دون أن يحس بالتعب أو بالاجتهاد، لكن في حال استعمال مكبر الصوت، فإن هذا الأخير سيرز، إذا لم يأخذ المتكلم في الحسبان تخفيف هذا الجهاز لمجهود المتكلم، سيرز التوازي المذكور بشكل يصبح معه الكلام مشوباً بتوازي نفسي قويّ يحتل معه صفاء الصوت وتبرز كل عيوب التنفس (الإدخال المتقطع، اللاجب، غياب النفس في نهاية الجملة الطويلة، تعديل جرس الصوت بشكل مستقيم)⁽⁶¹⁾ فيبدو المتكلم وكأنه لاهث.

إنّ قوة الفعل الصوتي وسلامته تشترط حركة تنفسية أكثر انسجاماً. فإذا كان من الضروري اختزان كمية معينة من الهواء داخل الرئتين ليشكل منها الصوت المراد إنتاجه، فإن ذلك يكون بسبق حركة تنفسية أي حركة إدخال ؛ سبقها لبث النفخ الصوتي.

فانسجام الحركة التنفسية إدخالاً وإخراجاً وانفاقها بشكل مضبوط شرط لا بد منه في تكييف النفس للتصويت، وهذا التكيف يتطلب التنسيق المنسجم بين عمل النفس وعمل أعضاء الجهاز التنفسي (وكذا الهضمي). وهذا التنسيق معناه أن الصوت البشري أو اللغوي بصفة خاصة انتاج قصدي وبراغي حدود القصد : أعني الشروط التشريحية والفيزيولوجية، ذلك أن «كل صوت إنما يولد مناسبة للجسم الذي يكون منه، وبحسب صفاء جوهره وكدره الذي يكون متخذاً منه وكبر أجسامه وصغرهما، وطولها وقصرها، وسعة أجوافها وضيق ثقبها ودقة أوتارها وغلظتها، وبحسب تحريك المحرك لها والمصوت بها»⁽⁶²⁾.

«وكيفما كانت الصعوبات في تكييف النفس للتصويت، فإن المهم، أن تظل دائماً الحركات الجوفية والصدريّة، في علاقة مع كمية الهواء المنتفس [...] فإذا

(60) نفس المراجع، الصفحة 46.

(61) Lionel Bellenger, L'Expression ... p. 77

(62) إخوان الصفا، الرسائل، دار صادر، بيروت (بدون تاريخ)، ص 134، ج 3، الرسالة 17.

استعملنا مقياس التنفس أثناء التدريب التنفسي، فإننا نحصل على معلومات مهمة وذلك باستخدام اختبارين : اختبار يقيس سعة الطاقة الرئوية، واختبار يوضح فعالية العمل العضلي. وهذه ثلاثة أمثلة على ذلك :

- | | | |
|---------------------|---|-------------------------------------|
| عادي، 3 لترات. | } | (1) مغنية محترفة : إخراج |
| بطيء، 38 ثانية. | | |
| عادي، 3 لترات ونصف. | } | (2) تلميذة في نهاية الدراسة : إخراج |
| بطيء، 16 ثانية. | | |
| عادي، لتران ونصف. | } | (3) تلميذة في السنة الثالثة : إخراج |
| بطيء، 34 ثانية. | | |

فعندما يكون النفخ (النفس) غير منتظم، فإننا نلاحظ تناقصاً في الاختيار الثاني، فهذه الأمثلة توضح أن سعة الطاقة ليست العنصر الأكثر أهمية. وإنما الأهم من ذلك هو ضبط انقباض ورخاوة العضلات⁽⁶³⁾.

إن العمل العضلي ذو أهمية كبيرة في ضبط كل من عمليتي الإدخال والإخراج، كما أنه يؤثر مباشرة في الأحجام الرئوية زيادة ونقصاناً. وهكذا فإن «حركة الإدخال تتميز بتوسيع في القفص الصدري في كل أبعاده (أحجامه)، ومن ثم تمدد الرئة التي ترتبط بجدران القفص الصدري بفضل صفيحتي غشاء الرئة. فعضلة الحجاب الحاجز تمثل القوة العضلية الرئيسة في عملية الإدخال، فهي عندما تقلص تحفز مسنّجها دافعة بذلك المضمون الجوفي نحو الخارج، وجارّة، نحو الأسفل، سطح القفص الصدري، وتمدد، على التوالي، الأضلاع الست الأخيرة، مكبرة القطر العرضي والأمامي الخلفي للقفص. فحركة تمدد الأضلاع يتممها تقلص العضلات بين — ضلعية الخارجية، وأحياناً، تقلص بعض عضلات العنق المسماة بالعضلات المدخلة الثانوية التي يمكنها أن ترفع الأضلاع العلوية⁽⁶⁴⁾.

لكن أي انتظام في عملية التنفس لا يمكنه أن يجهل أو يتجاهل عناصر تفوق

Claude Dinville, *La voix chantée*,... p. 19 (63)

Guy Cornut, *La voix* ... p. 5 (64)

التدخل الإرادي (على محدوديته)، ذلك أن آلية التنفس تخضع لسن الفرد، فهي عند البالغ يتراوح ترددها — في وضع الراحة — بين 14 و20 إدخالاً في الدقيقة كما تخضع لقامته. فكلما كان الفرد قصير القامة كان إيقاع تنفسه سريعاً. ومثال على ذلك أن التنفس أسرع عند الطفل مما هو عند الراشد. وعلاقة عنصر القامة بالإيقاع التنفسي، نجدها عند الحيوان أيضاً. فهذا الإيقاع يصل إلى 60 إدخالاً في الدقيقة عند الفأرة و108 عند طائر (الكناري) لكنه يصل إلى 12 إدخالاً فقط عند الفرس⁽⁶⁵⁾.

إن انتظام الإيقاع التنفسي خلال التصويت معناه المراقبة التامة لأزمة كل من وظيفتي التنفس البيولوجي ووظيفة التنفس اللغوي، أي مراقبة التغير الحاصل في ترتيب كل منهما، حسب أولوية إحداها على الأخرى، فإذا تكلمنا بشكل أسرع أو أبطأ فإنه يكون من الواجب علينا، إذا نحن أردنا مواصلة الكلام، أن نتوقف لاسترجاع نفسنا، وهذا التوقف يحتاج بدوره إلى لحظة مضبوطة وإلا سيصبح جلياً فيتحول إلى شبه نفس أو حتى نفس خالص. وبالتالي يتقطع الصوت. وبهذا الصدد لا بد أن نوضح أن المقصود بالمراقبة، «تسيير» أو «إدارة» جزء من النفس فقط لأن الجزء الأكبر يتم بشكل آلي :

هذا «التسيير» يتم في مجالات محددة كالغناء والتجويد والانشاد والخطابة... إلخ. هذه المجالات تتفاوت متطلباتها وبالتالي يتفاوت ويختلف «تسيير» مادتها الخام أي النفس الصوتي.

خاتمة : إن تكييف التنفس للتصويت معناه إحداث انتظام جديد في عمليتي الإدخال والإخراج التفسيين. وهذا يعني بتعبير آخر وجود اختلاف بين العمليتين كما وكيفاً. هذا الاختلاف يتجلى أساساً في المستويات التالية :

1) الإيقاع : إن الإيقاع التنفسي يتعدل بشكل عميق حيث يختزل الإدخال ويمتد الإخراج.

2) الأحجام الرئوية المعبأة تخضع لنمط النشاط الصوتي وهي أحجام تفوق

في كل الأحوال «الحجم الجاري» للتنفس. هذه الأحجام تنضج من جهة أخرى للضغط الرئوي.

3) الضغط الرئوي : إن الضغط الرئوي الذي يتطلبه التصويت يفوق بشكل ملحوظ الضغط الذي قد يحصل في التنفس العادي.

هذه التعديلات والاختلافات والتنوعات في الفعل التنفسي، تشهد على دينامية العملية الصوتية وتعقدها. وهذا يدل على أنه ليس هناك طريق مفضل وأمثل للتنفس خاصة وأن الفعل التنفسي يتدخل فيه أكثر من عامل وعلى رأس هذه العوامل العامل العصبي أو النورولوجي. وأخيراً فإنه مهما حصلت ضرورة التحكم و«التسيير» والترتيب في الفعل التنفسي وخاصة عندما يتعلق الأمر بوظيفة التصويت عموماً، فإن التدخل يظل قائماً وإن تفاوتت درجته من نمط صوتي لآخر.

الوجود والذات عند المعتزلة

أحمد العلمي

كلية الآداب — القنيطرة

يهدف هذا البحث إلى دراسة إحدى اشكاليات الميتافيزيقا وهي علاقة الوجود بالماهية كما نوقشت في علم الكلام وبالمخصوص في كتب المعتزلة. لقد درس هذا الاشكال بدقة عند فلاسفة المسلمين، من أمثال ابن سينا (ت 428هـ) وابن رشد (ت 595هـ)⁽¹⁾. لكن لم يكن فلاسفة المسلمين هم أول من بحث في ذلك. وقد بينت دراسة الأستاذ جوليفي⁽²⁾ الجذور الكلامية لأبحاث ابن سينا بصدد الشيء والثبوت والوجود. فالكاتب الكلامية زاخرة بمادة فلسفية تدور حول اشكالية الذات والوجود. وسنعمل في الصفحات التالية على إبراز موقف المعتزلة من هذا الاشكال، وكيف بلوروا موقفا أصيلا شكل، بحق، تحولا أساسيا في تاريخ الفلسفة.

I — الوجود والماهية في تاريخ الفلسفة :

انقسم تاريخ الفلسفة بصدد علاقة الوجود بالماهية إلى اتجاهين : اتجاه ينادي بعينيتهما، واتجاه ينادي بالتمييز بينها أي بزيادة الوجود على الماهية.

كان أرسطو هو مؤسس الاتجاه الأول، أي عينية الوجود والماهية. لقد ابدعت الأرسطية تصورا وجوديا أصيلا يقسم الوجود إلى عشر مقولات، هي الجوهر وتسعة أعراض (الكم والكيف...). فالوجود يتطابق مع الجوهر، وموقف أرسطو (ت 322 ق.م) هذا يدخل في إطار اشكالية رفض الاتجاه المثالي المتعالي

(1) إتيان جيلسون : «الوجود والماهية»، الفصول الخاصة بابن سينا وابن رشد، فران، باريس.

(2) جون جوليفي : «إلى جذور أو نطولوجيا ابن سينا» بحث شارك به جوليفي في ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية، كلية الآداب، الرباط 1980، انظر مجلة الكلية.

الأفلاطوني. فالماهيات عند أفلاطون مثل متعالية لا مبالية بما هو موجود. وفي نصوص شهيرة في تاريخ الفلسفة انتقد أرسطو هذا الموقف. فالماهية إذا اعتبرت متعالية فلا تأثير لها في ما هو موجود في العالم المحسوس. فوجودها أو عدمها لا يؤثر البتة في صيرورة العالم الحسي. لذلك أقام أرسطو تصورا فلسفيا تكون الماهية وفقه في تخايل مع ما هو موجود. يقول جيلسون «نلاحظ بأن الانتقاد الأرسطي للأفلاطونية كمي يكون محللا، فإنه لا بد أن تكون الماهية متطابقة مع «ما هو موجود» وبالفعل، إذا لم تكن كذلك، فإن علمنا لن يكون علما بالواقع المتحقق»⁽³⁾.

هكذا إذن تتطابق الماهية مع ما هو موجود في الفلسفة الأرسطية. ويستحيل تصور تمييز بينهما. إذ ادعاء ذلك هو رجوع إلى المثل الأفلاطونية.

لقد أسس تصور أرسطو هذا تيارا فلسفيا هاما اخترق العصور والثقافات. وسنرى كيف أن الاشاعة ومجموع أهل السنة قد قالوا بعينية الوجود والماهية. ولا يهم هنا البحث في ما إذا كانوا قد تأثروا بأرسطو أو أنهم قالوا بذلك وفق شروط أخرى. إذ الأمر الثابت هو أنهم قد أقرروا بالعينية وهذا كاف لجعلهم في إطار هذا التيار الفلسفي.

وبشكل واعي وصريح نادى ابن رشد بنفس الموقف الأرسطي. يقول في كتاب تفسير ما وراء الطبيعة «وقد غلط ابن سينا غلطا كبيرا فظن أن الواحد والوجود يدلان على صفات زائدة على الذات. والمعجب من هذا الرجل كيف غلط هذا الغلط وهو يسمع المتكلمين من الأشعرية الذين مزج كلامه الإلهي بكلامهم»⁽⁴⁾.

وبمقابل هذا الموقف تأسست فلسفة أونطولوجية لا تقل أصالة عن التيار الأول كانت قد نادت بأن الوجود متميز عن الماهية. فهو ليس إلا تمحيذا عارضا لها من الخارج. فهو عارض والماهية معروضة. فلا عينية ولا تطابق بل تمييز واختلاف.

(3) إتيان جيلسون : «الوجود والماهية»، ص. 62، دار نشر فران، باريس، 1981، الطبعة العاشرة.

(4) ابن رشد : «تفسير ما وراء الطبيعة»، ص. 313، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1938.

ويعتبر جان دان سكوت، في إطار الفلسفة المسيحية القوروسطية، المدافع بحماسة عن هذا الموقف الأونطولوجي الفذ ضد القديس طوما الاكويني الأرسطي والرشدي النزعة. إلا أن دان سكوت نفسه يشير بوضوح إلى المصدر الذي أخذ منه هذا التصور للوجود والماهية. يقول ايتيان جيلسون في معرض تحليله لفلسفة دان سكوت «إن نقطة الانطلاق (بالنسبة لدان سكوت) ليست إلا التصور السينوي للماهية، أو للطبيعة المشتركة، التي لم يفتأ دان سكوت تدريسيها بدون أي تقليص»⁽⁵⁾. ومعنى ذلك أن دان سكوت يستعيد تصور ابن سينا للماهية. والماهية السينوية متميزة عن الوجود. إذ الوجود لا يدخل في تحديدها. فهي من حيث هي ليست إلا هي، لا عامة، ولا خاصة ولا متخصصة ولا كلية، ولا موجودة ولا معدومة. بل هي ماهية فقط. «إن الوجود الفعلي (عند دان سكوت) يضاف إذن إلى الماهية المتخصصة كأنه تحديد نهائي، ولكنه يترتب عنها. هل يتميز (الوجود) عن الماهية نعم، بلا شك، ولكن كما يتميز في مذهب ابن سينا»⁽⁶⁾. حقيقة أن دان سكوت لم يساير ابن سينا في كل مواقفه الأونطولوجية، لكن هذا الاختلاف بين الفيلسوفين لا يمكن اعتباره إلا «بافتراض أن دان سكوت وابن سينا قد اترقا بفضل نفس المبدأ، وإن أمكن القول، إنهما اختلفا انطلاقاً من نفس نقطة الانطلاق»⁽⁷⁾.

هكذا يبدو إذن أن التمييز بين الوجود والماهية لم يبدعه دان سكوت ولم يكن كذلك وليد الفلسفة الاغريقية، بل إن موطن أحداثه قد كان في الفلسفة العربية الإسلامية. وبالفعل فإن إحدى الصراعات الفلسفية الحادة والخطيرة التي دارت بين السينوية والاشعرية والرشدية قد كانت حول زيادة الوجود على الماهية. وكتب ابن سينا بأسلوبه الاثباتي الجازم تبلور ذلك بوضوح. يقول ابن سينا في كتابه الشاغل الإشارات والتنبيهات : «قد يجوز أن تكون الماهية للشيء سببا لصفة من صفاته. وأن تكون صفة له سببا لصفة أخرى، مثل الفصل للخاصة. ولكن لا يجوز أن تكون الصفة التي هي الوجود للشيء، إنما هي بسبب ماهيته التي هي

(5) ايتيان جيلسون : «الماهية والوجود»، ص. 131.

(6) المرجع نفسه.

(7) المرجع نفسه.

الوجود، أو بسبب صفة أخرى ؛ لأن السبب متقدم في الوجود، ولا متقدم بالوجود قبل الوجود»⁽⁸⁾.

لكن التساؤل الذي يطرح نفسه بالخاص هو التالي، هل كان ابن سينا هو أول من أبدع هذا الموقف الفلسفي الهام أم أنه قد أحدث قبله، بل وقبل التيار الافلوطيني العربي ؟

II — الوجود والماهية في الفكر الإسلامي :

يبدو أن التمييز بين الوجود والماهية، الذي علق باسم ابن سينا في الفلسفة المسيحية، قد أبدعه المعتزلة. صحيح أن هذه النظرية قد وجدت أفاقاً جديدة عند السينوية، لكن الشرف في ذلك يعود إلى المعتزلة التي أحدثت هذا التصور وبلورته في محث أصيل للوجود. وبصدد شرحه لأرسطو، يدعي ابن رشد أنه بتبنيه الفرق بين الماهية والوجود، لم يعمل ابن سينا إلا على اتباع الأشاعرة⁽⁹⁾. إن هذا النص يؤكد على الأقل بأن هذه النظرية لم تكن من إبداع الإغريق. وكأرسطي خالص ومتحمس يثبت ابن رشد كيف أن المعلم الأول قد بلور نظرية جوهرية للوجود توحد بين الوجود والجوهر. إن أصل التمييز إذن قد نبغ من علم الكلام الإسلامي. إلا أننا نعتقد اعتقاداً جازماً، وعكس ما يدعيه ابن رشد، بأن المعتزلة، وليس الأشاعرة، هي التي أبدعت هذا الفرق بين الوجود والذات. ذلك لأن الأشاعرة بتبنيها للتقليد الحنبلي، قد عملت جاهدة على تكفير هذا الموقف الاعتزالي. وهذا واضح وجلي من خلال كتب الشراح المتأخرين. «إن وجود كل مهية عبارة عن نفس حقيقتها»⁽¹⁰⁾، «لأن المشهور أن الأشعري (ت 324هـ) لا يقول بمعنى الوجود إلا المهية المخصوصة فعنده لفظ الوجود في كل مهية مخصوصة يرادف الاسم الموضوع لتلك المهية بمخصوصها كالإنسان والفرس...»⁽¹¹⁾.

(8) ابن سينا : «الاشارات والتبيلات، الالهيات»، الفصل السابع عشر، إشارة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1985.

(9) ابن رشد : «تفسير ما وراء الطبيعة»، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1938، ص. 313.

(10) عبد الرزاق اللاهيجي : «شوارق الالهام»، مخطوط ص. 40، المكتبة الشرقية، باريس.

(11) المرجع نفسه، ص. 40.

والفناري (ت 834هـ) المتصوف الفذ الذي أبدع شرحا هاما لرسالة النفحات لصدر الدين القونوي يلخص لنا موقف الاشاعرة بصدد الوجود والذات. «الوجودات متخالفة وكل وجود عين مهية الموجود...»، «الوجود عين كل موجود»⁽¹²⁾.

ولا يجب الاعتقاد بأن هذه النصوص ليست إلا تأويلات للفكر الاشعري وأنها لا تقدم لنا روح المذهب كما ورد عند أصحابه، وذلك لأن كتابات الاشعرية نفسها تؤكد ذلك. إن الباقلاني (ت 403هـ) الأشعري الفذ، يوحد، في كتاب التمهيد، بين الوجود والذات والشيء والموجود. فالقول بأن هذا الشيء ذات وبأنه موجود، ليس إلا التعبير عن حقيقة واحدة بثلاث كلمات مترادفة ومتطابقة. هكذا سينقسم الوجود حسب اختلاف النوات⁽¹³⁾. «والأشعرية، يقول الشهرستاني (ت 548هـ)، لا يفرقون بين الوجود والثبوت والشيئية والذات والعين»⁽¹⁴⁾. «إن وجود الشيء وعينه وذاته وجوهرية وعرضية عندنا عبارة عن معبر واحد... والتمييز بين الشيئية والوجود وبين الشيئية مما لا يؤول إلى معنى ومعنى بل إلى لفظ ولفظ»⁽¹⁵⁾.

وحتى موقف الجويني (ت 479هـ) لا يضع موقف شيوخه موضع سؤال. صحيح أنه على خلاف الاشعري والباقلاني لا يوحد بين الوجود والذات التي لها خصائص وحقائق متحدة بكونها هذا السواد أو هذا البياض، إلا أنه يوحد بين الوجود والذات من حيث هي، أو حسب تعبيره، توحيد الذات والثبوت. وهكذا يتميزه بشكل ما بين الوجود والحقائق القائمة بالذات أمكنه اعتبار هذه الخصائص، من سوادية ولونية، كأحوال. فكون الشيء أبيض حالا زائدة على الذات وعلى الوجود ؛ وهكذا. فصفات الشيء أحوال، لكن الوجود ليس البتة بحال.. والجويني نفسه يعلن ذلك بوضوح. «إن الوجود ليس بحال مع تقدير اثبات

(12) المرجع نفسه، ص. 71.

(13) الباقلاني : «التمهيد»، ص. 158، سطر 2 — 6، نشر مكارثي، بيروت، 1957.

(14) الشهرستاني : «نهاية الاقدام في علم الكلام»، ص 151، سطر 1 — 2، نشر أ. كيوم.

(15) الباقلاني : «التمهيد»، ص. 129.

الأحوال»⁽¹⁶⁾. ان الدليل الذي يستعمله الجويني لاثبات ذلك، أي نفي كون الوجود حالا، ليس إلا الدليل الذي كان قد استعمله الأشعري والباقلاني لدفع نظرية الأحوال جملة. «أما بطلانه (أي بطلان كون الوجود حالا زائدة على الذات) على مذهبنا فلأن حقيقة الذات الوجود، وليس الوجود معنى زائدا على الذات»⁽¹⁷⁾، إذن «فالوجود هو الثبوت»⁽¹⁸⁾.

فعلى عكس ما يدعيه ابن رشد فليست الأشاعرة هي التي أحدثت القول بالتمييز بين الذات والوجود. وتبعاً لنص له أهمية تاريخية قد ورد في كتاب المواقف للأبيجي (ت 756هـ) فإن الجاحظ هو أول من تصور أن الذات هي الثابتة وليست هي الموجودة. وهذا الموقف المتميز للجاحظ قد دشن تياراً أونطولوجياً جديداً في تاريخ الفكر الفلسفي. وحسب الأبيجي واللاهيجي وغيرهما من الشراح الكبار فقد تبلور تياران في الفكر الإسلامي يستحيل رد واحد منهما إلى الآخر⁽¹⁹⁾. فمن جهة نجد الأشعري وأبا الحسين البصري (ت 436هـ)، وهو من متأخري المعتزلة، يتفقان على إثبات وحدة الذات والوجود. وهذا الموقف يندرج فيه حتى ابن رشد. وبصفة عامة فهو التيار الفلسفي الذي أخذ انطلاقة مع أرسطو واستمر حتى القديس طوما الأكويني مروراً بالأشعرية والرشدية. ونحن لا نريد من ذلك أن نقول بأن الأشاعرة قد ورثوا موقف أرسطو، لأن التيار الأشعري قد استلهم روح المذهب الصفاتي. فالصفاتية قد نشأت باكراً في الفكر الإسلامي قبل بداية الترجمة. فعينية الوجود بحقيقة الشيء وصفاته قد نبع كذلك في أحضان مذهب أهل السنة والجماعة. وكيفما كان الحال فإن هذا الموقف الفلسفي قد كان متأصلاً في الفكر الإسلامي. وعقبه نجد تمييز الوجود والماهية الذي أبدعه المعتزلة وقال به الحكماء.

(16) الجويني: «الشامل في أصول الدين»، ص. 129، تحقيق علي سامي النشار وفيصل بدر عون وسهر محمد مختار، منشأة المعارف بالاسكندرية 1969.

(17) المرجع نفسه، ص. 129.

(18) المرجع نفسه، ص. 637.

(19) عضد الدين الأبيجي: «المواقف»، المبحث الأول، «الشيء عندنا الوجود، وقال الجاحظ والأشعرية هو المعلوم»، ص. 56، عالم الكتب، بيروت.

III — أدلة المعتزلة :

أ) الوجود والذات والشيء :

يتركب الموجود، في التصور الاعترالي، من ذات وصفة ذات وصفات مقتضاة عن صفة الذات، ثم من الوجود الذي يظهر هذه الصفات. وهذه المستويات تكون أي موجود كان. وإذا كان المستوى الأول، أي الذات، والمستوى الأخير، أي الوجود، يتسمان بالشمولية فإن صفة الذات والصفات المقتضاة عنها هما اللتان تحددان تفرد الموجود واختلافه عن موجود آخر. فالجوهرية التي هي صفة الذات، والتحيز الذي هو صفة مقتضاة عنها، هما اللذان يحققان تفرد واختلاف الموجود. إن التساؤل الذي يطرح نفسه هو التالي : أية علاقة تتحدد بين الوجود والمستويات الثلاثة الأخرى، هل هو عنها أم مختلف عنها جملة ؟ أم أنه مختلف عن بعضها وعين البعض الآخر ؟

لنبحث أولاً في علاقة الوجود بالمستوى الأول، أي الذات. هل هناك عينية بين الطرفين ؟، بحيث أن بينهما ترادفاً وتطابقاً، أم أن هناك اختلافاً وتمييزاً ؟ لنترجع إلى تقسيم المعلومات كما وردت عند المعتزلة.

يقسم المعتزلة المعلومات إلى ثلاثة أقسام. أولاً المستحيل وهو الأمر المتناقض في ذاته والذي لا يصبح قطعاً وجوده. وهو مثل اخبار «الخبر عما لا أصل له فلا يكون خبره خبر»⁽²⁰⁾. ومثال ذلك الاخبار عن شريك القديم، واخبار الخبر عن الأمور المستحيلة.

ثم هناك المعلوم الذي هو ثابت. أي ما يصبح وجوده. وهو «الخبر الذي له خبر»⁽²¹⁾ والعلم الذي له متعلق. وهو ينقسم إلى قسمين : أولاً ما هو متحقق ومتعين في الخارج كجواهر موجود متعين، وعرض متخصص وقائم بجوهر ما. ثانياً ما يتصور وما يخبر عنه أي ما له خبر لكن خبره ومعلومه ليس بمتحقق وليس

(20) ابن متويه : «التذكرة في أحكام الجواهر والاعراض»، ص. 334، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، تحقيق سامي نصر لطف وفيصل بدر عون.

(21) المرجع نفسه.

بوجوده، لكنه ثابت. أي يصح ويمكن وجوده و تحققه. وهو ما سماه المعتزلة بالمععدم. فالمععدم ليس هو الخبر الذي «لا أصل له فلا يكون لخبره غير». أي ليس هو المستحيل. لأن ما لا يخبر له لا يسمى معدوما بل منفيا. أما المععدم هنا فهو المعلوم المتعلق بعلم يكون غير متحقق وغير متعين لكنه يكون ثابتا أي يصح وجوده. «لأن من حق كل معلوم أن يصح حدوثه على وجه وذلك طريق العلم به، لأنه متى لم تجوز حدوثه من جهة القادر عليه لم يعلم معدوما»⁽²²⁾.

هكذا نرى بأنه عندما أقصى المعتزلة المستحيل والمنفي فإنهم قد حصروا المعلوم بين التحقق والمععدم. وهما معا يشتركان في الشيئية. لأنه سواء تعلق الأمر بالموجود المتحقق أو بما سيوجد فيما بعد فإنه شيء ثابت. فالشيئية تعم كل معلوم يصح وجوده. لذلك فالشيئية لا تعني قط الوجود. وليست هي الموجود. إذ يستحيل ونحن بصدد المعتزلة إقامة معادلة بين الشيئية والوجود أو الموجود. لأن كل ما هو موجود فله الشيئية، لكن ليس كل ما هو شيء موجود ضرورة. وقد استدل المعتزلة على ذلك بأدلة شهيرة.

يقول ابن متويه (ت 469هـ) في إيراد الدليل الأول ضد من يصرف الشيء إلى الموجود «فإن زعم زاعم أن قولنا شيء ينصرف إلى الموجود، لم يستقم له ذلك، لأنهم يقولون علمت شيئا موجودا، ولو كان كما يدعونه لاقضى التكرار. كأنه يقول: علمت موجوداً موجوداً»⁽²³⁾. ولما كان قول القائل علمت شيئا موجودا ليس بتكرار بل إفادة، إذ انها تحدث معنى اخباريا أي أنها تضيف صفة، التي هي الوجود إلى شيء ما، وجب إقامة تمييز بين الشيئية والموجود. ومن جهة أخرى لو كان «هذا الاسم [الشيء] يختص بالموجود [يقول أبو هاشم الجبائي (ت 321)] لوجب أن يكون قول القائل «علمت شيئا معدوما متناقضا»⁽²⁴⁾،

(22) القاضي عبد الجبار: «المنفي في أبواب العدل والتوحيد»، الجزء الرابع، ص. 247، سطر 12 — 14، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني.

(23) ابن متويه: «التذكرة في أحكام الجواهر والاعراض»، ص. 74.

(24) القاضي عبد الجبار: «المنفي»، الجزء الخامس، ص. 252، سطر 9 — 11.

«كأنه يقول علمت موجودا معدوما»⁽²⁵⁾، «وإذا بطل ذلك علم أنه [الشيء] يجري على المعدوم والموجود جميعا»⁽²⁶⁾. هكذا فالشيئية إذا تساوت مع الوجود ستؤدي إلى التكرار أي إلى تحصيل الحاصل، ومن جهة أخرى ستؤدي إلى التناقض أي إلى جمع الموجود والمعدوم. وكل من التناقض وتحصيل الحاصل باطلان منطقيا. فوجب بذلك اعتبار معنى الشيئية مخالف لمعنى الوجود ولمعنى المعدوم. ولذلك لا يستفاد بقول القائل «علمت شيئا» أن الذي علمه موجود أو معدوم»⁽²⁷⁾.

(ب) الوجود وصفات الذات :

بعدما ميز المعتزلة بين الوجود والذات فإنهم سيميزون بين الوجود وصفات الذات والأحكام الثابتة فيها. وحجج المعتزلة على ذلك هي التالية : «إن هذه الصفة [الوجود] هي غير صفة الجنس»⁽²⁸⁾. إن صفات الذات (صفات الأجناس) مثل الجوهرية واللونية لازمة للذات. لكن الوجود ليس بصفة ذات وليس البتة بذات، بل إنه يضاف إلى هاته مثلما يضاف إلى تلك. فالوجود ليس إلا شرطا لظهور الصفات المقتضاة عن صفات الذات. فالجوهرية صفة ذات. والتساؤل عن علة الصفة باطل، إذ لا علة لصفة الذات. إذ أنها غير مجعولة. لأن كل صفة ذات ثابتة لنفسها ولا تحتاج إلى علة وإلى فاعل كي تكون كذلك. فالجوهرية التي هي حال غير معلل، لازمة، بمصاحبة الأحكام المتضمنة فيها، للذات المتساوية. وكفي تظهر هذه الأحكام المتضمنة والثابتة في الجوهرية يجب أن يضاف إليها الوجود من الخارج. فالوجود ليس علة لهذه الأحكام بل هو شرط في ظهورها. فالوجود إذن شرط في ظهور صفات الذات. صحيح أن تحقق هذه الأحكام في الأعيان تحققا ضروريا يحتاج إلى شيء آخر فوق شرط الوجود. إذ لا بد من علة توجب ذلك. وكون هذه الأحكام ثابتة في صفات الذات يدل على العلة الموجبة لها. فمع الوجود توجب الجوهرية الأحكام الثابتة فيها مثل التحيز والكون.

(25) ابن متويه : «التذكرة»، ص. 74.

(26) القاضي عبد الجبار : «المنهاج»، الخامس، ص. 252، س. 10 — 11.

(27) المرجع نفسه، ص. 252، س. 13 — 15.

(28) ابن متويه : «المجموع في المحيط بالتكليف»، ص. 138، س. 4.

فصفات الذات هي التي توجب أحكامها. إلا أن هذا الإيجاب يحتاج رغم ذلك، إلى شرط يصاحبه. فهو إيجاب مشروط. إيجاب ثبوتي مشروط بالوجود. على الوجود إذن أن يضاف إلى صفات الذات كي توجب هاته الأخيرة أحكامها. «فأما حكم كونه موجودا فهو ظهور أحكام الذات لأنه موقوف على الوجود»⁽²⁹⁾. فالجوهرية هي العلة الموجبة للتحيز في حين أن الوجود شرط لذلك. «فكل موجود لأجل وجوده تظهر صفته المقتضاة عن صفة الذات وبوجوده يعرف ما هو عليه في ذاته»⁽³⁰⁾. فالجوهر لما هو عليه يؤثر في تحيزه عند الوجود. «وكذلك السوداء»⁽³¹⁾.

الوجود إذن يُظهر، وبه تتحقق الذات في الأعيان وتظهر صفاتها وأحكامها الواجبة والممكنة والمستحيلة. في حين أن الوجود عند الأشعرية ليس ما به تتحقق الذات بل هو التحقق الذي للذات. وهذان الموقفان يختلفان اختلافا صارخا. فموقف المعتزلة الذي يعتبر الوجود شرطا للتحقق يفترض أساسا أن صفات الذات لها ثبوت قبل الوجود. الأمر الذي يتضمن زيادة الوجود على صفات الذات والأجناس. فإذا كانت صفة الذات تحتوي وتوجب أحكامها، وإذا كان الوجود شرطا فقط لظهور هذه الأحكام، فإننا نرى أن حكم صفة الذات يختلف عن حكم الوجود، إذ كيف يمكن الخلط والمزج بين هذين النوعين من التأثير. فالاختلاف الحاصل بين العلة الموجبة وما هو فقط شرط يدلنا أو، حسب تعبير المعتزلة، يقودنا إلى اختلاف وتمييز أكثر عمقا وهو الحاصل بين الذات وبين الوجود. فلأنهما يختلفان يختلف تأثيرهما.

أما الدليل الثاني الذي يورده أبو رشيد النيسابوري كي يثبت «أن الجوهر جوهر لذاته»⁽³²⁾ وليس جوهرًا لأجل وجوده، فإنه يقوم على إثبات أن الوجود صفة واحدة متواطئة بين الموجودات. فإذا كان الوجود هو صفة الذات وجب

(29) ابن متويه : «المجموع في الغيظ بالتكليف»، ص. 159، س. 27.

(30) المرجع نفسه، ص. 136، س. 5 - 6.

(31) المرجع نفسه، ص. 136، س. 10.

(32) أبو رشيد النيسابوري : «كتاب المسائل في الخلاف»، ص. 38، تحقيق معن زياده ورضوان السيد، معهد العلماء العربي، ط. 1، 1979.

ضرورة أن يكون علة لها. وإذا كان الأمر كذلك وجب «أن تكون الموجودات كلها جواهر وقد عرفنا فساد ذلك»⁽³³⁾. «لأن صفة الوجود صفة واحدة»⁽³⁴⁾. ليست صفة الوجود هي صفة الذات، أي صفة ذات كانت. وثبوت الصفات سابق على وجودها. صحيح أن الوجود يظهر ويحقق هذه الصفة في الأعيان، لكن الصفة بتحقيقها تكسب كيفية جديدة ليس إلا. إذ من الثبوت تتحول إلى الظهور والتحقق.

يستنتج المعتزلة من هذا الدليل دليلاً آخرًا. إذا كانت صفات الذات ثابتة بدون علة لأنها ثابتة لنفسها، فإنها رغم ذلك تتحقق وتوجد بالفاعل. وذلك لأن كل صفات الذات، ماعداً الإلهية، حادثة. وجوب الثبوت الذي هو ثابت لكل صفة ذات لا يعني أنه وجوب الوجود. إذ وجوب الثبوت وجوب الوجود لا يثبت إلا للإلهية. أما صفات الذات الأخرى فإنها تكفي فقط بوجوب الثبوت. لذلك فوجوب الثبوت الذي يكون ثابتاً لكل صفة لا يعني أنها ضرورة واجبة الوجود. فكي توجد صفات الذات وكي تتحقق على الفاعل أن يضيف إليها الوجود. هكذا نلاحظ بأن هناك تمييزاً بين ما هو ناتج عن الفاعل وبين ما هو ثابت في نفسه. «بين ذلك أنا قد دللنا على أن كونه جوهرًا لا يجوز أن يكون بالفاعل. وقد ثبت وجوده بالفاعل. ومحال أن تكون الصفة الحاصلة بالفاعل هي الصفة التي لا يجوز أن تحصل بالفاعل»⁽³⁵⁾.

والخلاصة التي تترتب على ذلك هي أن الوجود صفة تضاف إلى الجوهر، بل إلى كل صفات الذات. ومرة أخرى فإن التمييز بين الذات والوجود يتصور من جهة المعلولية. إلا أنه عوض الانطلاق من التمييز الحاصل بين الأحكام الذي يقودنا إلى التمييز الواقع بين العلل، أي عوض الانطلاق من حكم الوجود الذي هو شرط لظهور صفات الذات، كي نصل إلى اختلافه مع ما هو علة لهذا الظهور، فإننا هنا، في هذا الدليل، نتمركز مسبقاً في مبدأ الوجود وصفة الذات. فالاختلاف الحاصل بين ما هو بالفاعل وبين ما هو لنفسه هو الذي يسمح لنا بتقييم الاختلاف

(33) المرجع نفسه، ص. 28.

(34) المرجع نفسه، ص. 30.

(35) المرجع نفسه، ص. 46.

بين الجوهر والوجود. فالتمييز بين عليهما هو الذي يؤدي بنا مباشرة إلى التمييز بين أحكامهما.

ج) الوجود وأحكام صفات الذات :

ليس الوجود زائدا على صفات الذات فقط، بل كذلك على أحكامها المتضمنة فيها. فالجوهر عندما يستقبل الوجود يتحيز. والتحيز متضمن في الجوهرية. فهو ليس صادرا عن الفاعل. ولا عن علة خارجة عن الجوهر. فالتحيز يتحقق ويظهر عندما يضاف الوجود إلى الجوهر. وحتى وإن كان الجوهر لا يتحيز إلا مع الوجود، وإن كل متحيز فهو ضرورة جوهر موجود، فإن العكس ليس بصحيح. لأن كل موجود ليس ضرورة متحيزا. فوجب اعتبار الوجود زائدا على التحيز كذلك. إذ هو شرط لتحقيقه ليس إلا. ولذلك رفض أبو هاشم الجبائي موقف النصيبي الذي يدعي بأن «صفة الوجود في الجوهر هي التحيز، ولا يفرد الوجود لمجرد صفة زائدة على التحيز ولا التحيز يكون صفة زائدة على الوجود»⁽³⁶⁾.

ويخصص ابن متويه (ت 469هـ) فصلا كاملا للرد على هذا الموقف المدخول. ومرة يستعمل ابن متويه الدليل الذي استعمله أبو رشيد، ومرة أخرى يعيد دليل التعليل. وفي كتاب المسائل يورد أبو رشيد النيسابوري توطؤ الوجود كدلالة على فساد موقف النصيبي. إن الأحكام التي تترتب عن الجوهرية من تحيز وكون ليست هي الوجود، «وأحد ما يدل على ذلك أيضا أن الجوهر عند الوجود يجب أن يكون متحيزا. فإما أن يكون الوجود مؤثرا في تحيزه، أو يكون المؤثر أمرا سواه ولا بد من ذلك لأن الصفة إذا وجب ثبوتها عن صفة أخرى، ووجب زوالها عن تلك الصفة، ولا يمكن تعلق الصفة بأمر آخر سواها، وجب أن تعلق بها لأن المؤثرات تثبت بهذه الطريقة وما يجري مجراها. ولو كان المؤثر في التحيز صفة الوجود لوجب في كل موجود أن يكون متحيزا. وإذا استحال ذلك وجب أن يكون المؤثر في ذلك صفة أخرى زائدة على الوجود»⁽³⁷⁾.

(36) ابن متويه : «التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض»، ص. 59.

(37) أبو رشيد : «كتاب المسائل»، ص. 43 - 44.

إن الفكرة الأساسية المتضمنة في ثنايا هذه الأدلة هي نظرية الأحوال. لأن إحدى المعايير الأساسية لهذه النظرية هي تقرير تفرد وتميز الحال. إذ القول بأن مفهوم ما حال هو إثبات تمييزه عن المفاهيم الأخرى، وإن كانت متشابهة ومتواجدة معا. هذا يعني بأنه كلما حصلت هناك وحدة فإن الحال سيختفي وسيرتفع. لأن الحال أساسا تمييز واختلاف. إن هناك على الأقل ثلاثة أنواع من الاختلافات تنطبق على صفات الذات التي هي أحوال غير معللة. فهي أولا تتميز عن الذات المتساوية والتي تكون لازمة لها. ثم انها تتميز فيما بينها. فالجوهرية ليست هي اللونية، وأخيرا تتميز عن الوجود الذي يضاف إليها من الفاعل. فاعتبار صفة الذات حالا هو افتراض أنها تختلف عن ملزومها أي عن الذات وعن لازمها أي صفة الوجود.

(د) الوجود وحكمه :

كل هاته الأدلة، التي تثبت زيادة الوجود وتميزه عن صفة الذات، تنطلق من صفات الذات كي تقرر تميز صفة الوجود. إلا أن المعتزلة لم تكف بهذه الطريقة اللامباشرة لاثبات زيادة الوجود. حقيقة أن القول بزيادة وتميز صفات الذات يفترض تمييز وزيادة الوجود، إلا أن تفرد صفة الوجود، بهذه الطريقة، ليس إلا استنتاجا. لذلك فإن كتاب «المجموع» يسيح عن امكانية اثبات مباشر ومبدئ لزيادة الوجود. ودليل ابن متويه ينطلق من الوجود نفسه دون حاجة للمرور من صفة الذات. وهنا كذلك يتدخل الحال لحسم الاشكال. إذ الوجود حال. وهذا يعني أولا أن الوجود ليس صفة ذات. ومثلما أن الأحكام هي التي أدت بنا إلى إثبات تمييز صفات الذات فكذلك هي التي ستقودنا إلى تمييز الوجود من حيث هو. لأن الصفات انما تتميز عن غيرها بالأحكام فلا يحصل العلم بالصفة على طريق التفصيل والتمييز بينها وبين غيرها إلا بعد أن نعلم حكمها⁽³⁸⁾.

علينا إذن أن نبحث عن حكم الوجود من حيث هو. وكتاب المجموع يورد لنا ذلك «فأما كونه موجودا فهو ظهور أحكام الذوات لأنه موقوف على الوجود. فما لم يكن موجودا لم يثبت الصفات المقتضاة ولا يثبت الأحكام الراجعة

(38) ابن متويه، كتاب «المجموع»، ص. 157، م. 5 - 6.

إليها»⁽³⁹⁾. «... وكان حكم صفة الوجود ما ثبت من ظهور صفة الذات بها حتى يكون هو الذي يصح ذلك (..) فكل موجود لأجل وجوده تظهر صفةه المقتضاة عن صفة الذات وبوجوده يعرف ما هو عليه في ذاته»⁽⁴⁰⁾. حكم صفة الوجود إذن اظهار صفات الذوات. وهذا الحكم، الاظهار، هو الذي يضمن تفرد وتميز الوجود عن غيره من الصفات. إذ لا اظهار إلا للوجود.

هكذا يبدو، من خلال النسق الاعتزالي، ان الوجود تابع وخاضع للثبوت. فصفاة الذات تتضمن في ثنائياها وجوب ثبوتها. وليس الوجود هنا إلا إحدى كفياتها. وفي هذا التصور، حيث الوجود ليس إلا شرطا للظهور وللتحقق، فإنه سيكون ضرورة خاضعا للثبوت ولأحوال الذات. فالتحيز لا يصدر عن الوجود، لكن هذا الأخير شرط في ظهوره. حقيقة أنه قبل الوجود تكون أحكام صفات الذات ثابتة ومتضمنة فيها. فالتحيز لا يظهر إلا عند الوجود. إلا أن هذا لا يمنع من كون التحيز صفة حقيقية وثابتة في الجوهر. فبالوجود يتحلّى الجوهر بكيفية جديدة إذ يمر من الثبوت إلى الظهور. وهذا تغير في كيفية ثبوت التحيز وليس اختلافا في طبيعته. إلا أن التحيز لا يمر من اللاوجود، من العدم، إلى الوجود. لكنه ينتقل من الثبوت إلى الوجود، من التضمن إلى الظهور. فالتحيز مثله مثل كل صفات الذات الأخرى يكتسي كيفية جديدة ليس إلا.

ووفق هذا المنظور فإن الاختلاف والتماثل لا يترتبان عن الوجود، بل عن صفات الذات وأحكامها المتضمنة فيها والمقتضاة عنها. وبهذا الصدد فإن نظرية الفرق الاعتزالية ستتدخل كي تستخلص تصورا حيث أن الذات وصفاتها تكون ثابتة في نفسها ويكون الوجود زائدا عليها.

لنلخص إذن موقف المعتزلة. الموجود تركيب بين الوجود وثلاث مستويات من الثبوت. الذات، وصفة الذات ثم الأحكام المترتبة عنها. فهذه المستويات الثلاثة تنتمي إلى الثبوت. فلها أسبقية على الوجود والظهور. فكأن أسبقية مستوى يؤدي بنا إلى مستوى آخر. فالثبوت يؤدي بنا إلى ثبوت آخر. فالتحيز يقودنا إلى

(39) ابن مته، كتاب «المجموع»، ص. 159، س. 27 — 28.

(40) للمرجع نفسه، ص. 136، س. 1 — 6.

الجهورية. مثلما ان صفة الذات، التي هي علم تفصيل، تفترض علم جملة أي ثبوت ذات متساوية. فكل مستوى من المستويات الثابتة يقودنا إلى المستوى الآخر. لكن أي طرف منها كانت أهميته وأسبقية ثبوته فإنه لا يؤدي بنا البتة إلى الوجود. فالثبوت لا يتضمن الوجود بل إنه يستقبله كحال وحدث قادم من الخارج.

IV — اعتراضات الاشاعرة :

إن هذا التصور الجديد لعلاقة الذات بالوجود، الذي أحدثه المعتزلة ودشن منحي وجوديا جديدا في الفلسفة، قد واجه اعتراضات وانتقادات من طرف مجموع الاشاعرة. وقد لخص لنا الايجي في كتاب المواقف، هذه الشكوك والشبه. فإذا كان الوجود يضاف إلى الماهية «من حيث هي غير موجودة فكانت معدومة فيلزم اتصاف المعدوم بالوجود وأنه تناقض»⁽⁴¹⁾.

أما الاعتراض الثاني فإنه يتلور على الشكل التالي : «قيام الصفة الثبوتية بالشيء فرع وجوده في نفسه ضرورة، فلو كان الوجود صفة قائمة بالماهية لزم أن يكون قبل الوجود لها وجود. ويلزم تقدم الشيء على نفسه. ويعود الكلام في ذلك الوجود ويتسلسل»⁽⁴²⁾. أما الاعتراض الثالث فإنه متعلق بالعرض أي بالوجود. «فلو كان زائدا لكان له وجود ويتسلسل»⁽⁴³⁾.

إن هذه الاعتراضات الثلاثة التي أوردها الايجي سيقدمها التفتزاني في شرح المقاصد، لكنه سيجعل منها اثنين فقط. الأول متعلق بالعرض أي بالوجود. والثاني بالمعروض أي بالماهية. «فالماهية المعروضة إما معدومة فيتناقض أو موجودة فيدور أو يتسلسل. وتقرير الثاني ان الوجود العارض اما معدوم فيتصف الشيء بنقيضه ويثبت في المحل ما لا ثبوت له في نفسه واما موجود فيزيد وجوده عليه وتتسلسل الوجودات»⁽⁴⁴⁾.

(41) الايجي : كتاب «المواقف»، ص. 48.

(42) المرجع نفسه، ص. 48.

(43) المرجع نفسه، ص. 48.

(44) التفتزاني : «شرح المقاصد»، ج. 1، ص. 361، تحقيق عبد الرحمن عميرة، مكتبة الكليات الأزهرية.

إن هذه الاعتراضات التي أرادت تحطيم نظرية زيادة الوجود على الماهية التي أحدثها المعتزلة قد وجدت حلها في كتبهم. وسنحاول استخلاصها من خلال كتب المعتزلة التي وصلتنا مؤخرا وكذلك من خلال التحليلات التي أقامها المفسرون بعد المعتزلة. ونحن نعتقد بأن نظرية الأحوال التي أبدعها أبو هاشم الجبائي هي بالضبط التي ستسمح بتجاوز الصعوبتين. فنظرية الأحوال ستكسر الفكر الثنائي الذي ساد عند الأشاعرة والذي مكثهم من إيراد الاعتراضين. فالحال سابق على الوجود والعدم. إذ هو ليس بوجود وليس بعدم. لأن الحال ثابت. فالثبوت ليس هو الوجود وليس هو العدم. بل هو سابق لهما، بحيث إن الشيء لا يكون موجودا أو معدوما إلا إذا كان أولا ثابتا. وعلى العكس من ذلك فما ليس بثابت، مثل الأمور المنفية فيستحيل أن يكون موجودا أو حتى معدوما. الحال إذن «توصف بالثبوت دون الوجود» لذلك فالحال «لا يوصف بالوجود والعدم»⁽⁴⁵⁾. ثم فرقتم «يقول الأشاعرة لأصحاب الأحوال» بين الوجود والثبوت فاطلقتم لفظ الثبوت على الحال ومنعتم إطلاق لفظ الوجود»⁽⁴⁶⁾. وكتاب المغني للقاضي عبد الجبار يؤكد هذا الفهم الذي اختاره الشهرستاني للحال «لا مدخل لها [الصفات الراجعة للجنس] في الوجود والعدم، وإنما هي أحوال تحب له لجنسه»⁽⁴⁷⁾. فصفات الأجناس، أي الأحوال اللامعللة، ثابتة ولا يدخل في حقيقتها الوجود والعدم.

هكذا فالثنائية الأشعرية بين الوجود والعدم ستحطم على يد المعتزلة. إذ هناك مستوى سابق للوجود وهو الثبوت. لذلك جاز للصفات الثابتة أن تستقبل الوجود من حيث هي ثابتة. فلا تناقض ولا تسلسل. لأن الوجود لا يضاف إلى الجوهرية من حيث هي موجودة وإلا فتحصيل حاصل أو تسلسل. ولا يضاف إليها من حيث هي معدومة فيضاف الوجود إلى العلم. بل انه يضاف إليها من حيث هي ثابتة.

(45) الشهرستاني : «نهاية الاقلام في علم الكلام»، ص. 135.

(46) المرجع نفسه، 134، ص. 14 - 15.

(47) القاضي عبد الجبار : «المغني في أبواب العدل والتوحيد»، الجزء الثامن، ص. 166، ص. 9.

هكذا سيتم تجاوز الاعتراض بأبداع مستوى جديد سابق للوجود، وهو الثبوت. وهذا الثبوت لا يرد إلى الذهن ولا إلى العلم الإلهي، بل هو منقرر في الخارج.

أما جواب المعتزلة على الاعتراض الثاني فإنه قد تبلور على الشكل التالي. إذا كان الوجود يضاف إلى الذات الثابتة في الخارج فإنه يتحتم على الوجود أن يكون ثابتا كذلك. لذلك فإن موقف المعتزلة بشأن هذا الاعتراض كان دليلا لاثبات الأحوال. «الوجود ليس موجودا، وإلا زاد وجوده ويتسلسل، ولا معلوما، ولا اتصف الشيء بنقيضه»⁽⁴⁷⁾. ومعنى ذلك أن الوجود حال. أي لا يمكن رده إلى الذات ولا يكفي القول بأنه اسم مخطوط ولا حتى أنه معقول ثان كما سيقول الطوسي فيما بعد. فكون الوجود ليس بذات ولا بصفة ذات تعذر أن تنطبق عليه الموجودية والمعدومية. إذ هو وجود فقط. إذ كي يكون موجودا أو معدوما وجب أولا أن يكون ذاتا. لكن الأمر على خلاف ذلك. فوجب هنا كذلك إقامة مستوى يتمحور فيه الوجود بعيدا عن مستوى الموجود. لأن الوجود صفة للموجود وليس هو الموجود. وفي نص يمتاز بحجب فيه الطوسي على تمويهات فخر الدين الرازي المعتادة ضد المعتزلة «يقولون [المعتزلة] إن الوجود أخص من الثبوت. والموجود كل ذات ليس له صفة الوجود والصفة لا يكون لها ذات لا جرم لا تكون موجودة ولا معدومة ومن هنا ذهبوا إلى القول بالواسطة. فإنهم يعنون بالذات والشيء كل ما يعلم أو يخبر عنه بالاستقلال والصفة كل ما لا يعلم إلا بالتبعية وكل ذات اما موجودة أو معدومة»⁽⁴⁸⁾. فالوجود لا يكون موجودا «لأن الصفة لا يكون لها ذات موصوفا بالوجود»⁽⁴⁹⁾.

إن نظرية الاحوال إذن هي التي مكنت المعتزلة من تجاوز اعتراضات الاشاعرة بصدد زيادة الوجود. فكي يكون الوجود زائدا على الماهية عليه أولا أن يكون حالا. فعند زيادته فهو ليس بموجود في الاعيان حتى نسقط في التسلسل إلى ما لا نهاية ؛ وليس بمعدوم لأن الذات وحدها هي التي قد تكون كذلك، وهكذا

(48) الأبيي : «المواقف»، ص. 57 — 58.

(49) الطوسي : على هامش «الحصل للرازي»، ص. 39، القاهرة.

(50) المرجع نفسه.

يتفادى التناقض. وحتى وان كان الوجود لا موجودا ولا معدوما فإنه يستحيل رده، من حيث هو، إلى الذهن، أو الادعاء بأنه من المعقولات الثانية. فأسبقية الثبوت والتقرر على التحقق في الاعيان هي التي تقصي مفهوم المعقول الثاني. فزيادة الوجود على الذات بمستوياتها ليست منطقية بل ميتافيزيقية.

هكذا يبدو جليا بأن السبق قد كان للمعتزلة في إبداع تيار فلسفي كان هو أول من واجه، في إطار الفكر الإسلامي، بوعي أو بلا وعي، الاتجاه الأرسطي. فنقطة الانطلاق للتمييز بين الوجود والماهية لم يكن عند الاشاعرة ولا عند ابن سينا بل عند المعتزلة. بحيث يمكن اعتبار هذا التمييز إحدى المحددات الأساسية للفكر الفلسفي الاعتزالي. ان دراسة هذا الاشكال الفلسفي تجعلنا نلمس إلى أي مدى كان الفكر الاعتزالي مبدعا ومجددا، بل ومؤسسا لتيار فلسفي طبع تاريخ الفلسفة عبر العصور.

ملاح من تطور الخط المغربي من خلال الكتابة على النقود^(١)

عمر أفا

كلية الآداب — الرباط

تعتبر القراءة في تاريخ الخط المغربي قراءة في الحضارة المغربية، وإن المتأمل بوعي في حنايا الحروف وانعطافاتها، إنما يقوم برحلة في أعماق تلك الحضارة.

ولعل أكثر الوثائق أصالة وأقواها عدّة أمام الباحث المتطلع لقراءة تاريخ هذا الخط، إنما تتمثل في خطوط المصاحف^(٢) والآثار المعمارية^(٣) والقطع النقدية^(٤) قبل غيرها. ذلك أن الخطاط، وهو بصدد انجاز مثل هذه الوثائق، يكون مسلحاً بقوتين : إحداهما قوة الحماس والتقوى اللذين تقتضيهما الرغبة في مضاعفة الثواب

(٥) قدّم هذا العرض مساهمة في مهرجان المغرب العربي الأول للخط العربي والزخرفة الإسلامية الذي أقيم بالتعاون بين الجمعية المغربية للخط العربي والزخرفة الإسلامية وجمعية أنجاد للمغرب الشرقي في كلية الآداب بالرباط بتاريخ 1990/3/9.

(1) أنجز الخطاط الجزائري محمد شرفي دراسة جامعية قيمة عن خطوط المصاحف، انظر : شرفي محمد بن سعيد... خطوط المصاحف عند المشاركة والمغاربة، من القرن الرابع إلى العاشر الهجري، من منشورات : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982.

(2) من أشهر الدراسات والنماذج المنشورة حول الخطوط في العمارة المغربية، انظر مثلاً :

Bel (A).- Les inscriptions arabes de Fes.- Imprimerie Nationale, 1919.

(3) لا توجد غير إشارات قليلة جداً تتعلق بالخط المغربي انطلاقاً من الكتابات على النقود نسوق أمثلة منها :

Eustache, (D).- Corpus des Dirhams Idrisites et contemporains : Etudes sur la numismatique et l'histoire monétaire du Maroc, Rabat, Imprimerie de l'Agdal, 1970-1971.

توري عبد العزيز. — «حول كثر صغير حديث الاكتشاف»، مجلة المناهل، عدد 30، سنة 1984، ص 282.

عثمان عثمان إسماعيل. — العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى (1992)، ج 1 : 342.

والأجر ؛ والثانية قوة العناد الذي تقتضيه صناعة النقش، فيكون الفعل مصحوباً بسبق إصرار، تُحفّزه الرغبة في التفوق، مما يجعل مثل هذه الأعمال تحتزن مقداراً هائلاً من الابداع.

وإن مساهمتي هذه، إنما تعتبر بداية أولية في مشروع — لم ينجز بعد — يستهدف قراءة في تاريخ الخط المغربي عبر الكتابة على القطع النقدية، لاستجلاء ما عرفه هذا الخط من تطور تاريخي، وما يكتنزه من أصالة تمثلت في هندسته وقواعده المتميزة. ونعالج الموضوع هنا في جانبيه المنهجي والتطبيقي.

أولاً : الجانب المنهجي :

أما بخصوص الجانب المنهجي لهذا الموضوع، فإنه يقتضي اتباع ثلاث مراحل أساسية :

المرحلة الأولى : تتضمن فحص أدوات العمل ووسائل التحليل، بما فيها :

- 1 — تصور الطريقة التي تتم بها الكتابة على النقود.
- 2 — الإلمام بالجانب المعرفي لتطور الخط المغربي من خلال المراجع السائدة.
- 3 — دراية تامة بأنواع الخطوط المغربية⁽⁴⁾ والمشرقية.
- 4 — استقصاء وجمع مختلف النماذج النقدية المعروفة عن طريق المراجع وبالاعتماد على القطع النقدية الموجودة في بعض المتاحف وضمن المجموعات الخاصة. ويعتبر هذا الاستقصاء حاسماً من بين هذه الأدوات، لأننا نعلم أن أي

(4) ظهرت محاولات لتاريخ أولي لأنواع الخطوط المغربية وهي دراسات في مستوى نهاية الإجازة في العلوم الإنسانية انظر :

المصلوحي محمد... إبداع الخط العربي، بحث بشعبة الدراسات الإسلامية بإشراف الأستاذ محمد اللوزي السنة الجامعية 84 — 1985.

الشقيري فيحة... جوانب من التطور التاريخي للخط المغربي، بحث بشعبة التاريخ بإشراف عمر أفا السنة الجامعية 87 — 1988، وقد طبع بمطبعة المعارف الجديدة بالرباط 1990.

غير أنه ظهر مؤخراً كتاب مهم في هذا الموضوع للأستاذ محمد المنوني. انظر : المنوني محمد... تاريخ الوراقة المغربية، صناعة الخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991.

مجموعة نقدية مهما بلغ عدد قطعها لا يمكن أن توفر للباحث جميع ما صدر من المسكوكات.

المرحلة الثانية : تتضمن رصد مراحل تطور الخطوط وإخضاعها من حيث الزمن لعهود الدول المتعاقبة على الحكم بالمغرب ؛ وفي كل عهد يتم ضبط ما يلي :

- 1 — استخراج جداول للحروف المفردة حسب أشكالها من القطع النقدية.
- 2 — استخراج مقاطع كاملة للعبارات المكتوبة على النقود لإبراز تركيب حروفها. ويتم هذا الاستخراج بالنقل المقلد أو بالتصوير.
- 3 — تصنيف مقاطع الحروف حسب معامل ضرب السكة في عهد كل دولة.
- 4 — تحليل المعطيات المتجمعة للوصول إلى نتائج تحدد أنواع الخطوط السائدة ومميزات تلك الخطوط ومستواها في عهد إحدى الدول، قبل الانتقال إلى عهد دولة أخرى.

المرحلة الثالثة : التصدي لمجموع النتائج لاستخراج الملامح العامة لتطور الخط المغربي وتصنيف أنواعه بناء على قواعد مدققة، وبالتالي الإجابة عن التساؤلات الكبرى التي تعرفها المراجع المتداولة، والخروج من مرحلة التناقضات التي في حجم التناقض بين الرأي القائل بأن الخط الكوفي والنسخي وصلا إلى المغرب، وقد بقي الخط النسخي لسهولة رسمه أصلاً للخط المغربي⁽⁵⁾ وبين الرأي القائل بأن الخط الكوفي هو أصل للخط المغربي بعد ما طرأ عليه من التغيرات⁽⁶⁾، وكذا الإجابة على كثير من التساؤلات الأخرى.

وهكذا فإن الشروط التي يضعها هذا المنهج تجعل لإنجاز هذا العمل في حاجة إلى وقت ومجهود كبيرين لا تستوعبهما ظروف هذه المساهمة.

ولذلك نكتفي بإعطاء أمثلة عن ملامح الخط من خلال الكتابة على النقود في عهد الدولة الإدريسية، مع تقديم ملاحظات أولية بخصوص العهود الأخرى، وقد

(5) ما يزال هذا الرأي مجالاً للنقاش رغم ما يفيد مضمون المقال المنشور للخطاط يوسف دنون حول تعايش النسخي والكوفي (انظر مرجع هامش 10).

(6) أغلبية الآراء تأخذ بالخط الكوفي أصلاً للخط المغربي ومن بينها رأي : هوداس. — محاولة في الخط المغربي، (م.س)، ص 192.

أعدنا بصدد ذلك نماذج توضيحية لخطوط كل فترة⁽⁷⁾.

نتطلق إذاً من محاولة إدراك الطريقة التي تتم بها الكتابة على القطع النقدية، مقتصرين هنا على ذكر أشهرها⁽⁸⁾ : فسواء كانت النقود من الذهب أو الفضة أو النحاس، فإن الكتابة عليها تخضع لمجموعتين من العمليات :
المجموعة الأولى : والمهدف منها لإنجاز الخاتم من الحديد الصلب، ويستلزم ذلك :

- 1 — تخطيط الكلمات المطلوبة على مساحة من الورق بحجم الدينار أو الدرهم.
 - 2 — إعادة التخطيط معكوساً، بحيث يقرأ من اليسار إلى اليمين.
 - 3 — تخطيط العبارات المعكوسة على الطرف الأول لخاتم مهيأ من الحديد.
 - 4 — نقش الخاتم بإفراغ أماكن الحروف ؛ فتبدو الكلمات عبارة عن تجاويف لحروف معكوسة.
 - 5 — بنفس الطريقة، يتم إعداد الطرف الثاني للخاتم مماثلاً للأول حجماً، مخالفاً له من حيث العبارة المكتوبة، فيكون الخاتم جاهزاً، وهو من قطعتين متقابلتين بهما صيغة النص المراد طبعه على وجهي الدينار أو الدرهم.
- ملاحظة : إن نقش أشكال الحروف والعناية بمحافظتها ونهايتها هما اللذان يحددان قيمة الخط، ومنها تنطلق معياريتنا لضبط مستويات الخطوط من حيث الجودة.
- المجموعة الثانية : والمهدف منها هو ضرب النقود وختمها، ويتم ذلك كما يلي :
- 1 — تهية القطعة النقدية المعدنية المراد ضربها، وذلك بتحديد شكلها ووزنها.
 - 2 — وضع هذه القطعة بين طرفي الخاتم فوق السندان.

(7) استعنا بالخطاط المغربي محمد المعلمين في عملية تقليد خطوط القطع النقدية المدرجة ضمن لوحات هذا البحث، فبذل في ذلك غاية الجهد.

(8) لحصنا يتركز الجانب الوصفي لطريقة الكتابة على النقود ومراحلها، مع تجنب التفاصيل التقنية المتعلقة بالجانب الصناعي، كما تجنبنا وصف الطرق المعقدة مثل طريقة الختم على الكريات المعدنية الساخنة.

3 — قيام «صاحب المطرقة»⁽⁹⁾ بضربة تجعل جزيئات القطعة النقدية تنضغط داخل تجاويف الخاتم فتتشكل كلمات بارزة الارتفاع على وجهي القطعة ميسورة القراءة.

ملاحظة : إن نسبة قوة الضغط التي يحدثها «صاحب المطرقة» أثناء عملية الضرب تعتبر ذات أهمية، بحيث ينبغي أن تكون مضبوطة : فإذا قلت كمية الضغط عُسرت قراءة الكتابة ؛ وإذا قوتى الضغط تشققت جوانب القطعة النقدية وتشوهت حافات الحروف ونهاياتها.

بعد هذا التصور السريع لطريقة الكتابة على النقود، نتقل إلى معاينة السّمات المميّزة لأنواع الخطوط في هذه الكتابة.

ثانياً : الجانب التطبيقي :

1 — الكتابة على النقود في عهد الإدارة :

ونعتني في هذا العهد بالقطع النقدية المتداولة في الفترة الممتدة بين عام 172هـ و 295هـ / 788 — 908م.

فبعد الفحص الأولي لما توفر لنا من نماذج النقود الإدريسية، اعتماداً على جرد لقطع نقدية من خلال بعض المجموعات ومن خلال الصور المرافقة لدراسات في الموضوع⁽¹⁰⁾، نبادر إلى إبراز حقيقتين لهذه النقود : الحقيقة الأولى أنها لا تتوفر

(9) يطلق على كل فرد في دار السكة اسم خاص به تبعاً لمهمته في عمليات الضرب : فمنهم «صاحب المزبرة» وهو المكلف بقطع الصفائح المعدنية وتحويلها إلى قطع نقدية فضية أو ذهبية مهيأة للنختم ؛ ومنهم «صاحب المطرقة» وهو المكلف بضرب الخاتم ليم طبع القطع النقدية. فهمة الأول «القطع»، وهمة الثاني «النختم» أو «الضرب»، وآخر «التطريق» وما إلى ذلك من العمليات (انظر تفاصيل مثل هذه العمليات في المراجع التالية) : — الحكيم، علي بن يوسف. — الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة، ط 2، دار الشروق، القاهرة، 1986.

— ابن بكرة، منصور الذهبي الكامل. — كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية. تحقيق عبد الرحمن فهمي، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1966. — الجزنائي، أبو العباس أحمد حمدون. — الأصداف المنقضة عن أحكام علم صناعة الدينار والفضة. (مخطوط الخزانة الكُتُوبية).

(10) رجعنا إلى مثل هذه النماذج من خلال عدة مجموعات نقدية، منها :

على قطع ذهبية، وإنما هي قطع فضية وأخرى من النحاس، وسنرى مدى انعكاس آثار هذه الحقيقة على مقدار جودة الخطوط ؛ والحقيقة الثانية أن جميع القطع في هذا العهد كُتبت بالخط الكوفي دون غيره، ويتميز الخط الكوفي بأن حروفه مستقيمة ذات زوايا حادة، وهو ما يسمى بالخط اليابس بينما يعتبر غيره خطوطاً لينّة⁽¹¹⁾.

وبتحليل نماذج الخطوط في النقود الإدريسية، استطعنا تحديد خطوط خمسة وعشرين معملاً لضرب السكة موزعة جغرافياً بين مناطق حضارية وأخرى بدوية مع الإشارة إلى وجود عُسر في ضبط الفرق بين هذين المجالين بدقة، زيادة على أن بعض دور السكة لم يتمكن الدارسون من توطينه جغرافياً بكيفية محدّدة حتى الآن.

أما تحديد مستويات الخطوط في النقود الصادرة عن هذه المعامل، فقد اعتمدنا في تصنيفها على مدى جمالية الحروف وتناغم أشكالها ؛ وذلك بملاحظة الجانب الهندسي لحافاتهما الجانبية ونهاياتها، وهو ما أشرنا إليه حينما تحدثنا عن نقش الأختام. وفي إطار هذه الشروط صنفنا تلك الخطوط حسب مستوى جودة خطوطها إلى ثلاثة مستويات، فكان ذلك يتكامل جغرافياً مع توزيع المعامل على الشكل التالي :

— المستوى الأعلى من الخطوط ينتمي إلى معامل طنجة وأصيلا والبصرة وأحوازها، ويصنف معها معمل تلمسان.

— المستوى المتوسط ينتمي إلى معامل ويلي وفاس متجها صوب الأطلس المتوسط، في معامل العالية وطيط وزقورة ومهنا وتأثراثرا... وغيرها.

— المستوى الأدنى ينتمي إلى معامل إيكّم في تامسنا وتدغة في درعة ومريرة وزيز.

= مجموعة الأستاذ أحمد شرف الدين، بمدينة العيون، ومجموعة المتحف الأثري التابع لوزارة الثقافة بالرباط وغيرها، وكذلك من خلال الصور ضمن كتاب أسطاش — الوارد في هامش 3 —

وكتاب بريت : Brethes, Joseph Dominique.- Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques.- imp. Les Annales Marocaines, Casablanca, 1939.

(11) دثون يوسف — سخط الطلث ومراجع الفن الإسلامي، ضمن أعمال ندوة الفنون الإسلامية : المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة، 1983، إعداد أحمد عيسى وآخرون، دار الفكر، دمشق، 1989.

وفي هذا التصنيف يتجلى وجود مركز الجاذبية في منطقة طنجة. وتقل جودة الخط في هذه الفترة كلما ابتعدنا عن هذا المركز نحو الهوامش. ويبدو أن الخطوط وإن كانت وافدة أصلاً مع الفتح الإسلامي من المشرق، فإن مركز الجاذبية كان يتجه يومئذ نحو الأندلس حيث كانت تستقر الطاقات البشرية بعد فتح بلاد ايبيريا ؛ وتأتي نصوص ابن خلدون في المقدمة لتؤكد هيمنة التيار الأندلسي في مجال الخط وهو يتحدث في المراحل اللاحقة عن تطور الخطوط المغربية⁽¹²⁾. وقد بدا لنا أيضاً حينما لاحظنا هندسة توزيع الكتابة في فضاء القطعة النقدية، وكذلك توحيد العبارات أحياناً في أغلب القطع، أن هناك نموذجاً موحداً تؤخذ عليه الأختام في أكثر من معمل واحد. غير أن ذلك لا يؤثر في التصنيف الذي قمنا



في الطرق :

محمد رسول الله أرسله بالحق وهدى صراطه المستقيم
لنظفرك على الدبر كله ولو كره المشركون

في الوسط :

محمد رسول الله
الماسم بآكرس

اللوحة 1 : نموذج من الخط الكوفي بدون تنقيط (الآية 33 من سورة التوبة) : درهم إدريسي ضرب سنة 241 هـ في عهد القاسم بن إدريس (Eustache, 1971. PL 1. N°5).

(12) ابن خلدون عبد الرحمن... مقدمة ابن خلدون، دار الجليل، بيروت (د.ت)، ص 466.

به لأنه حتى وإن كان النموذج موحداً، فإن إمكانيات تجويد الخط متفاوتة من معمل إلى آخر ؛ بل — أكثر من ذلك — نجد بعض المعامل تتعرض فيها جودة الخط للانخفاض أحياناً ثم تعود للارتفاع أحياناً أخرى، وذلك حسب مستوى الخطاطين ممّا يلاحظ حتى في المعامل الواقعة في المنطقة الأولى المتميزة بجودة الخط.

إلى هذا الحد يمكن أن نصدر حكماً عاماً على الخط الكوفي الشائع على القطع النقدية طوال العهد الإدريسي. فالخط المستعمل يعتبر متواضعاً، تغلب عليه البساطة، ولا يظهر عليه أي أثر للتحضّر : فنهايات الحروف لا أثر فيها للزخرفة والجمالية ؛ فهو خط كوفي يتميز بالجفاف وعدم الاغناء مما يعتبر انعكاساً لحالة الدولة نفسها، التي كانت تعيش وضعية اقتصادية محدودة ؛ ويعتبر عدم ظهور الدنانير الذهبية — كما لاحظنا في مجال التداول — مؤشراً يؤكد هذه الوضعية كما يؤكد ما يتسم به الخط من جفاف، وإلى جانب هذه الرؤية فإننا لم نغفل أن سك النقود الذهبية كانت تقف دونه صعوبات تتمثل، من جهة، في عدم توسّع الدولة الأدرسية تجارياً نحو مناجم الذهب الإفريقية، ومن جهة فإن سك النقود الذهبية ظل من الحقوق التقليدية للخلافة العباسية في الشرق ولم يقع تجاوز هذا التقليد في الغرب الإسلامي إلا في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث بالأندلس حيث سك الدينار الذهبي في بداية القرن الرابع الهجري العاشر للميلاد.

2 — الكتابة على النقود في العهود اللاحقة (ملاحظات أولية) :

1) في العهد المرابطي : ظهرت النقود الذهبية بوفرة بفضل نمو تجارة القوافل مع إفريقيا، كما اتسعت الامبراطورية المرابطية نحو الأندلس ؛ فعرف الخط الكوفي جودة تفوق الخط الكوفي في العهد الإدريسي حيث تعلو حافات حروفها بعض الزخارف، بالإضافة إلى ما يبدو من ليونة في أشكاله الهندسية، وبالمخصوص في القطع المضروبة بالأندلس (اللوحة 2).



في الوسط :

لسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الكسار باشيعة
عام الحدي وارضى وحمس ما

في الطرق :

الامام عك الله امر المؤمنين العباسي

اللوحه 2 : الخط الكوفي المزخرف : على دينار مرايطي ضرب باشيلية سنة 541 هـ
(مطبوع بنك المغرب، الرباط، 1987، ص 19).

وفي هذا العهد ظهرت في بعض القطع بوادر الخط المغربي اللّين الذي يدعى «خط الثلث المتماثل»⁽¹³⁾ وبخاصة تلك القطع التي ضربت في سجلماسة في عهد يوسف بن تاشفين، والتي ضربت في قرطبة في عهد إسحاق بن علي. وكان بعض الباحثين قد درج على تصنيف الخطوط إلى نوعين : خط جاف، وهو «الخط الكوفي» ؛ وخط لّين وهو «الخط النسخي». ومن هنا وقع خلط في المصطلح بين الخط النسخي وخط الثلث فكانوا يسمون الخطوط اللينة التي ظهرت بالمغرب

(13) تطور اسم هذا الخط من «الخط المشرقي» إلى «الخط المشرقي المتماثل» إلى «خط الثلث المتماثل» وقد استحسن الأستاذ محمد المتوني الاسم الأخير، لمطابقته للاسم الحقيقي.

على النقود وعلى الآثار المعمارية باسم الخط النسخي⁽¹⁴⁾. والواقع أن الخط النسخي يكاد يكون معدوماً على الآثار وعلى النقود عند القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد، بحيث اقتصر على المصاحف والخطوط بصورة عامة، بينما كان خط الثلث — وهو خط التزيين والزخرفة — قد استعمل على الآثار والنقود بالشرق منذ القرن الرابع الهجري / العاشر للميلاد⁽¹⁵⁾ وهو الذي شاع استعماله في الآثار المعمارية والنقود بالأندلس والمغرب منذ أواخر العهد المرابطي وبداية العهد الموحيدي إلى الآن، وقد تعرض لتحويلات جمالية على يد الخطاط المغربي بأسلوب مخالف للأسلوب الشرقي، وقد سمي من أجل ذلك «خط الثلث الممتغرب» وهو من أصل خط الثلث وليس من الخط النسخي.

2) في العهد الموحيدي : اختفى الخط الكوفي تدريجياً وظهر خط الثلث الممتغرب على جميع القطع النقدية الذهبية منها والفضية، ولعل ذلك راجع إلى التعارض السياسي والمذهبي الذي حصل بين الموحيدين والمرابطين، زيادة على أن اختفاء الخط الكوفي كان ظاهرة عامة في المشرق العربي أيضاً في القرن الخامس الهجري⁽¹⁶⁾. وبدلاً من الشكل الدائري ضرب الموحيدون الدرهم المربع، كما رسموا الشكل الرباعي على الدنانير المستديرة، وكانت الخطوط فيها تميل إلى الثلث، واتخذت أوضاعاً زخرفية مما يسمى بـ«خط الثلث الممتغرب».

(14) أشار الأستاذ توري عبد العزيز إلى احتمال النقاش حول ظهور الخط النسخي في الغرب الإسلامي ؛ ولكنه أبقي على تسمية الخط غير الكوفي الذي ظهر على النقود وعلى الآثار المعمارية في العهد الموحيدي باسم الخط النسخي، كما درج على ذلك هوداس وغيره ؛ انظر : هوداس، محاولة في الخط المغربي (م.س)، ص 172.

(15) دثون يوسف. — خط الثلث ومراجع الفن الإسلامي (م.س)، ص 108.

(16) دثون يوسف. — الجديد في نشأة الخط العربي وتطوره إلى القرن السابع الهجري (عرض قلم ضمن أعمال الندوة الثقافية لمهرجان المغرب العربي الأول للخط والزخرفة الإسلامية بكلية الآداب بالرباط في مارس 1990).



في الوسط :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله عليه وسلم لا نحمد
وعز الله وحجبه الاكبر من لا اله الا الله محمد رسول الله

في الطوق :

الخليقة الامام المومن بالله تعالى / المرتضى ابن امير المسلمين ابو جعفر
ابن سيدنا الامير الطاهر ابن ابيهم بن سلتنا الخليقتين

اللوحة 3 : نموذج من خط الثلث المتغرب : على دينار موحدي ضرب في عهد
أبي حفص عمر المرتضى، توفي 665 هـ (Brethes. P. 142).

(3) في العهد المريني : نما الخط المغربي وتطور وغلب على القطع خط الثلث
المتغرب مع تطور في أصنافه، كما ظهر في بعضها الخط المعروف بالمجوهر.
لم يقع بعد استيعاب كل التطورات الحاصلة في هذا العهد من خلال النقود.
والمعروف أنه في هذه الفترة تميزت أشكال من الخطوط المنسوبة إلى أغلب بلدان



الوجه :

لا اله الا الله الا هو كل لله لا قوة الا بالله

الظهر :

الله ربنا محمد رسولنا المهدى امامنا

اللوحة 3 مكرر : الدرهم الرباعي الموحي وعليه تموج من خط الثلث المتعرج، ضرب بسبته بدون تاريخ (مطبوع بنك المغرب، ص 19).

الغرب الإسلامي : منها الخط القيرواني — في تونس — والخط الجزائري والخط الفاسي والخط الأندلسي والخط السوداني.

وعُرفت من خطوط المغرب الأقصى خمسة أنواع استمر استعمالها حتى الآن، وهي خطوط : الكوفي والثلث المتعرج والمبسوط والمجهر والمسد أو الزمامي⁽¹⁷⁾.

وكان كل نوع من هذه الخطوط يستعمل في أغراض خاصة. فالكوفي كان يستعمل في كتابة المصاحف الأولى، وفي الكتابة على النقود ؛ ثم اقتصر على عناوين

(17) النوني محمد. تاريخ الوراقة المغربية (م.س)، ص. 13، 47.

في الوسط :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عبدالله أمير المؤمنين



في الطوق :

ضرب بمضرة مركشة حاطها الله
عام ستة عشر و الف

اللوحة 5 : عطل الثلث المتغرب، عل مقال فضي سعدي ضرب بمراكش سنة 1016هـ (مطوع بنك المغرب، ص 24).

ثم آل الأمر فيما بعد إلى عدة إمارات تقاسمت الحكم، فظهرت نقود الإمارة الدلائية في وسط المغرب⁽¹⁸⁾ ونقود الإمارة السملالية في القسم الجنوبي منه⁽¹⁹⁾. ولم نستطع تتبع ما حدث من تطور في الخطوط خلال هذه المرحلة، لأن تلك السكك لم يبق لها وجود فيما نعلم.

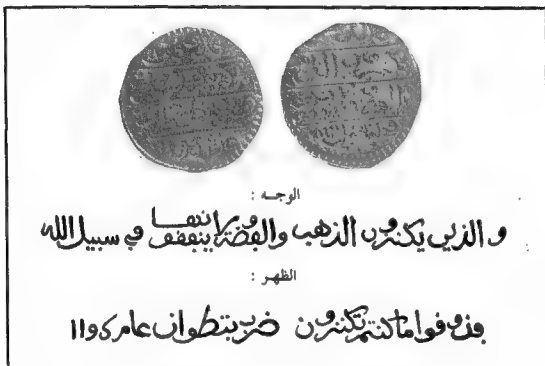
5) في العهد العلوي : نظراً لأن هذا العهد دام أزيد من ثلاثة قرون، فقد طرأت على البلاد أحداث كان لها أكبر الوقع في مسيرة الخط المغربي. وأهم هذه الأحداث هيمنة الضغوط الأجنبية، التي ظهرت بوادرها منذ القرن الثامن عشر

(18) حجي محمد... الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص. 232.

(19) أفا عمر... مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822 — 1906)، منشورات كلية الآداب بأكادير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص. 277 — 284.

واستفحلت طوال القرن التاسع عشر، ثم أفضى ذلك إلى فرض نظام الحماية الفرنسية على المغرب، وكان قد استمر إلى منتصف القرن العشرين.

خلال هذه المدة الطويلة فإن النقود العلوية⁽²⁰⁾ إذا استطاعت أن تحتفظ — في بداية الدولة — برونق خط الثلث المتمغرب كاستمرار للتأثير السعدي فإن هذا الخط عرف نوعا من التردّي بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل. لكن الإصلاح النقدي الذي قام به السلطان محمد بن عبد الله سنة 1766⁽²¹⁾ أعاد رونق هذا الخط إلى القطع النقدية وبالأخص إلى قطع المئقال الفضي الذي وقعت تحليته بآيات قرآنية، (اللوحة 6).



اللوحة 6 : خط الثلث المتمغرب كُتبت به (الآيتان 34، 35 من سورة التوبة) على مئقال فضي علوي ضرب في عهد السلطان محمد بن عبد الله

(Brethes. PL. 32, N° 1799).

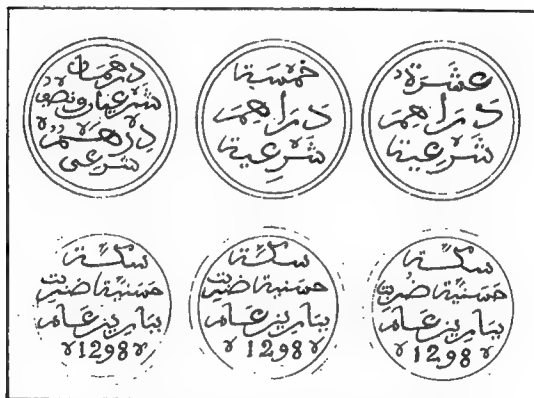
(20) وضع المستعرب الفرنسي، واحد المختصين في علم المسكوكات الإسلامية، موسوعة قيمة عن مسكوكات الدولة العلوية في ثلاثة مجلدات بعنوان :

Deustache, Daniel.- *Corpus des monnaies Alawites*, collections de la banque du Maroc, et autres collections mondiales, Publiques et Privées, Rabat, 1984.

(21) جرمان عياش. — دراسات في تاريخ المغرب. — مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986، ص. 108.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر، ونتيجة الزحف الاستعماري الذي أحدث اضطراباً في جميع مرافق المجتمع المغربي، تدهورت قيمة النقود وقلت جودة خطوطها، فاستمر هذا التردّي في الخطوط على الرغم من نشأة الطباعة الحجرية بالمغرب في هذه الفترة سنة 1864⁽²²⁾، أي بعد أربع سنوات من حرب تطوان بل استفحلت رداءة الخطوط، وخاصة بعد الانقطاع النهائي للنقود الذهبية حيث أصبح مجال التداول بالمغرب مقتصرأ على انتشار قطع فضية صغيرة تتألف من الدراهم وأنصافها وأرباعها وقطع الفلوس النحاسية. إلى جانب هذه القطع، برزت هيمنة العملة الأجنبية الفرنسية منها والاسبانية على الخصوص.

وفي إطار إصلاحات القرن التاسع عشر، قام السلطان مولاي الحسن بإصلاح



اللوحة 7 : نماذج أولية للنقود المضروبة بباريس في عهد السلطان مولاي الحسن وهي بخط الثلث المغرب (الأصل محفوظ بملف مديرية الوثائق الملكية بالرباط).

(22) جرمان عياش — نفس المرجع السابق، ص. 121 — 143 ؛ وانظر عن نشأة الطباعة أيضاً : المنوني محمد — مظاهر يقظة المغرب الحديث — ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، وشركة النشر والتوزيع : المنار، الدار البيضاء، 1985، ج 1، ص. 257 — 294.

نقدي سنة 1881 حينما ضرب النقود المغربية بأوروبا وشمل ذلك إصلاحاً في مجال الخط أيضاً كما تؤكد ذلك النماذج التخطيطية المحفوظة في مديرية الوثائق الملكية بالرباط، وهي من «خط الثلث المتمغرب»، (اللوحة 7).

يظهر رونق هذا الخط من خلال القطع الفضية الخمس المضروبة في باريس برسم السكة الحسنية، (اللوحة 8).



اللوحة 8 : خط مرونق من صنف «خط الثلث المتمغرب» على قطعة المئقال الفضي الحسني المضروبة بباريس 1299 هـ، (Eustache, 1984, T. 3, PL. 34, N° 1300).

وهذا الخط هو الذي استمر به إصدار جميع القطع المضروبة بأوروبا خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر برسم السكة العزيرية والحفيظية، وطوال فترة الحماية الفرنسية على المغرب (1912 — 1956) ولم تغيّر الحماية هذا الخط على الرغم من استبدالها نظام الدرهم بنظام الفرنك سنة 1920، غير أنها أصدرت ثلاث قطع بالخط الكوفي الجميل إبان الحرب العالمية الثانية مع استمرار الإصدار بخط الثلث المتمغرب (اللوحة 9).



اللوحة 9 : نموذج الخط الكوفي الذي استعملته الحماية الفرنسية بالمغرب في قطعتين نحاسيتين سنة 1361 هـ / 1942.



المملكة المغربية الشريفة
محمّد الخامس



المملكة المغربية الشريفة
الحسن الثاني

اللوحة 10 : نموذج غلط الثلث السائد على القطع النقدية المغربية بالإضافة إلى غلط النسخ منذ 1376هـ / 1956م إلى الآن.

ومنذ حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956 حتى اليوم، فإن الخط الذي تصدر به النقود المغربية هو الخط النسخي وخط الثلث سواء منها القطع النقدية المعدنية أو الأوراق المالية البنكية⁽²³⁾، (اللوحة 10).

(23) للاطلاع على نماذج النقود الخاصة بالدولة العلوية يمكن الرجوع إلى كتاب دنيال أوسطاش (مرجع هامش 18) وكتاب جوزيف بريت (مرجع هامش 9).

وفي الختام، إذا كان يهمننا من هذا العرض أن ننبه إلى إحدى الوثائق الأساسية، وهي القطع النقدية، بهدف تتبع الأطوار التي مرت بها الخطوط المغربية وكتابة جانب من تاريخنا الحضاري، فإننا نهدف أيضاً إلى إثارة الانتباه إلى ضرورة إعادة النظر في أمر الخط المغربي اليوم ؛ وذلك ببعثه حضارياً على مختلف المستويات :

- 1 — كتابة مختلف أطواره التاريخية.
- 2 — فرز أنواعه المختلفة، وتحديد موقعها من الخطوط الأندلسية والأفريقية.
- 3 — تحسين أصنافه وتجميلها على غرار ما حدث بالنسبة للخطوط المشرقية المشهورة على يد كبار الخطاطين، وهي عملية أساسية⁽²⁴⁾.
- 4 — التأكيد على توظيف الخطوط المغربية في مجالات الحياة العامة كأحد الوجوه الناصعة المعبرة عن هويتنا.

ومع أن أربعة عشر قرناً من حضارتنا مسجلة بهذه الخطوط، فإنه على المستوى التعليمي نجد كثيراً من طلبتنا ولو أنهم في مستوى متقدم من البحث الجامعي، فإنهم يصادفون عسراً كبيراً أثناء قراءة أغلب الوثائق والكتب المخطوطة وهم بصدد إنجاز بحوثهم، وهذا أمر لا تخفى أبعاده الخطيرة في مجال البحث.

(24) أن أغلب نماذج الخطوط المغربية التي تقدم للقارئ العربي تقدم له انطلاقاً من مخطوطات في حالة رديئة وتصوير غير واضح مما يعطي عن هذه الخطوط انطباعات بصرية رديئة. فالخطوط المغربية في حاجة إلى مزيد من التحسين وإلى تقديم جيد، وقد ظهر مؤخرًا كتاب قدم بعض نماذج الخطوط المغربية بشكل لائق، انظر : السجلмасامي محمد... ذخائر مخطوطات الخزنة الملكية بالمغرب. — مطبوعات AER édition، باريس، 1987.

حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط

محمد الأمين البزاز

كلية الآداب — الرباط

تشكل الأوبئة والمجاعات أحد الثوابت في تاريخ المغرب بحيث يصعب الحديث عن ماضي البلاد في غياب إلمام بها أو رصد لآثارها المتعددة الجوانب. ولقد سبق أن قمنا بدراسة وافية للموضوع بالنسبة للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر⁽¹⁾؛ كما سبق لروزنبرجي والتركلي أن قاما بالعمل نفسه فيما يخص القرنين السادس عشر والسابع عشر⁽²⁾. فكان يتعين، لتكتمل الرؤية، مد الإطار الزمني ليشمل الحقبة الوسيطة. من هنا كان الدافع لهذا البحث؛ فهو يطمح إلى التوغل في مقارنة المجاعات والأوبئة بالمغرب من القرن التاسع الميلادي إلى نهاية القرن الخامس عشر.

على أننا نبادر إلى القول بأننا لن نقوم هنا بعرض كرونولوجي. فما ورد من معلومات في بطون المصادر والمراجع عن الوقائع التي تهمنا خلال هذه الحقبة لا يزيد، في أكثره، عن إشارات وتنف متفرقة لا تسمح بالقيام بعملية تتبع دياكروني متواصلة في الزمان ومن شأنها أن تساعدنا على أن نؤلف منها وحدة أو سلسلة متصلة الحلقات. لذلك فإن مسعانا سيقتصر على ابداء جملة من التأملات

(1) البزاز (محمد الأمين): تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 18، 1992.

(2) Rosenberger (B.) et Triki (H.): «Famines et épidémies au Maroc au XVI^e et XVII^e siècles»; in *Hespéria-Tamuda*, 1^{ère} partie V, 1974; pp. 169-175, 2^e partie V, VI, 1975, pp. 5-103.

انظر أيضا: أستيتو (محمد): الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن السادس عشر، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب بفاس، 1988.

والاستنتاجات العامة، سواء فيما يتعلق بنسق تعاقب المجاعات والأوبئة وآلياتها وردود فعل المعاصرين، أو فيما يخص نتائجها على الصعيد الديموغرافي والاقتصادي والسياسي.

وأملنا أن تكون هذه المساهمة إضافة مفيدة إلى حقل معرفي نرجو أن يستمر في النمو حتى يوازن ما تراكم في أوروبا من دراسات في الموضوع.

1 — المجاعات :

كان المغرب خلال العصر الوسيط، كما هو الشأن في باقي العصر الأخرى، يعيش في رهان دائم مع الطبيعة التي كانت تتقلب بين العطاء والشح تبعاً لوفرة الأمطار أو قلتها. فإذا جادت السماء، تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان، وجاءت «الصابة» طيبة في مقدارها وأسعارها. أما إذا حدث الجفاف، فمعنى هذا ضعف المحصول أو بطلانه، وارتفاع أسعار الغلال مما كان يتسبب في حدوث مجاعات رهيبة. فإذا بحثنا في الوقائع، اعتماداً على الجدول رقم 1، نرى أن المجاعات تفشت على الأقل 20 مرة من منتصف القرن التاسع إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديين — وهذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار المجاعات المحلية أو تلك التي لم يشر إليها الاختاريون — مما يعني مجاعة في كل 28 سنة وثلاث إلى أربع مجاعات في كل قرن. على أن القرن الثالث عشر استأثر بحصة الأسد، إذ سجلت فيه سبع مجاعات، تميزت بامتدادها وتقاربها، وقد حدث أغلبها عندما كانت الدولة الموحدية تمر بطورها النهائي مما جعل الأمور تسير دون أن يكون للدولة أي دور في إيقافها.

أما المدة الفاصلة بين كل مجاعة وأخرى فقد اختلفت بين حدود دنيا من 3 إلى 18 سنوات، وحدود متوسطة من 25 إلى 37 سنة، وحدود قصوى من 52 إلى 82 سنة. ولكن كان من الطبيعي أن كل مجاعة تدوم بمعدل سنتين، فإن هناك مجاعات تميزت بطولها الزمني، فامتد بعضها أربع سنوات، وبعضها الآخر ست سنوات، وهذا دون أن نأخذ في الاعتبار رواية ابن أبي زرع التي تتحدث عن مجاعة دامت 12 سنة (من 253هـ / 867م إلى 265هـ / 878م)⁽³⁾ أو

(3) ابن أبي زرع : الأئیس المطرب بروض القرطاس....، الرباط، 1973، ص 96.

روايته عن مجاعة أخرى دامت 17 سنة (من 619هـ / 1222م إلى 637هـ / 1239م)⁽⁴⁾. لكن من الملاحظ أن هذه المجاعات الممتدة كانت نادرة ومتباعدة زمنيا فيما بينها.

ومما هو جدير بالذكر أن بلدان المغرب الأخرى والأندلس لم تكن أحسن حالا من المغرب، فقد عانت بلورها من طغيان الأزمات الغذائية. فهل هذا يدل على وجود تزامن في تعرض بلدان المنطقة للقحوط ؟ لقد سبق للكاتب اللاتيني أرنوب Arnobe (ت 327م) أن لاحظ أن موريطانيا الطنجية عانت في إحدى السنوات من القحط بينما كانت موريطانيا القيصرية ونوميديا تتمتعان بمحاصيل طيبة⁽⁵⁾. والملاحظة نفسها نسجلها بالنسبة للحقبة التي تمناها. فهناك سنوات عجاف طالت كل بلدان المغرب والأندلس، كما حدث في سنوات 260هـ / 873 — 874م، 303هـ / 915 — 916م، 407هـ / 1017م ؛ وهناك بالمقابل سنوات عجاف أخرى ضربت طرفا دون آخر. فمثلا عندما كانت الأندلس تعاني من القحط سنة 232هـ / 846م، كان المغرب ينعم بالرخاء. كما أن القحوط التي ألمت بأفريقية في سنوات 395هـ / 1005م، 425هـ / 1034م، 469هـ / 1077م، 483هـ / 1090م — 1091م، 543هـ / 1148 — 1149م، لم نجد ما يدل على أنها امتدت إلى المغرب. وهكذا فقد عانت بلدان المنطقة من نقص الهواطل في فترات مختلفة وأخرى مشتركة مما يدل على عدم وجود حتمية في العلاقة بين الذبذبات المناخية في كل منها. وتلك هي إحدى خصائص المناخ المتوسطي.

إذا وسعنا إطار المقارنة ليشمل القارة الأوروبية، نلاحظ أن المغرب كان أحسن حالا نسبيا. ففيما بين القرنين العاشر والرابع عشر الميلاديين انتشرت في فرنسا على سبيل المثال، 42 مجاعة عامة منها 10 في القرن العاشر، و26 مجاعة في القرن الحادي عشر الميلادي⁽⁶⁾. فكم إذن نحن بعيدون عن مجاعات المغرب كما أثبتناها

(4) نفسه، ص 41.

(5) أورده : Boix (Ch.): «Années de disette, années d'abondance; sécheresses et pluies au Maroc»; in *Revue des calamités*, Genève, n° 26-27, 1949, p. 2.

(6) Braudel (F.): *Civilisation matérielle, économie et capitalisme...*, t. 1, Paris, 1979, p. 55

الجدول رقم 1 : سنوات المجاعات والأوبئة

السنة	المصدر	الوباء	المصدر
260م/873-874م	ابن عسلى «اليان»، 1848، ج 1، ص 116	× ×	= =
285م/898-899م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 97	× ×	= =
303م/915-916م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 98		= =
307م/919-920م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 98	× ×	
344م/955-956م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 193	× ×	
379م/989-990م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 102	× ×	= =
407م/1016-1017م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 118	× ×	= =
411م/1020-1021م	ابن أبي زرع «فروض»، 1973، ص 118		= =
444م/1052-1053م	«اليان»، 1848، ج 1، ص 255		= =
452م/1060-1064م	«فروض»، 1973، ص 111		= =
535م/1140-1145م	«التشوف»، 1984، ص 183، «اليان» 1985، ص 12، «الكامل»، 1966، ج 11		= =
571م/1175-1176م	«اليان»، 1985، ص 266	× ×	
607م/1211-1212م	«اليان»، 1985، ص		= =
610م/1213-1214م	«فروض»، 1973، ص 272	× ×	
616م/1219-1220م	«اليان»، 1985، ص 266	× ×	= =
619م/1222-1227م	«فروض»، 1973، ص 274، Reynaud, Etude, 1902		= =
630م/1233-134م	«فروض»، 1973، ص 276	× ×	= =
634م/1237-138م	«فروض»، 1973، ص 277	× ×	= =
679م/1280-1281م	«فروض»، 1973، ص 405		= =
693م/1294-1295م	«فروض»، 1973، ص 384	× ×	= =
724م/1324-127م	«فروض»، 1973، ص 401 و 413		= =
750م/1349-1350م	البراز «الطاعون الأسود»، مجلة كلية الآداب، الرباط، ع 16، 1991	× ×	
764م/1363-1364م	ابن هينود «الأعراض الوبائية»، الخزنة الحسنية	× ×	
776م/1375-1376م	ابن قنفذ «أنس الفقير»، 1965، ص 105		= =
1412م	Fagant, Extraits, 1924, p. 298		= =
819م/1416-1417م	الوزان، «وصف الرقيق»، 1980، ج 1، ص 166	× ×	
846م/1442-1443م	«الانقضاء»، ج 4، ص 101	× ×	
1494م	Boix, Années de disettes, 1949, p. 5	× ×	= =

في جدولنا. وحتى على افتراض أن ثمة مجاعات لم يشر إليها الاخباريون، فلا مجال للشك في أن المغرب كان أحسن تغذية من أوروبا في الحقبة الوسيطة.

كانت الأزمات الغذائية تنجم أساسا عن السنوات العجاف التي غالبا ما كانت مصحوبة بزحف الجراد القادم من الصحراء، فيندر حينئذ وجود الطعام، وترتفع الأسعار ارتفاعا كبيرا. ففي مجاعة 624هـ/ 1227م ارتفع ثمن القمح إلى 15 دينارا للقفيز، وفي العام 630هـ/ 1233م إلى 30 دينارا، بينما كان يصل في أوقات الرخاء إلى 20 درهما للصحفة، وحتى إلى 6 دراهم (انظر الجدولين 2 و3). وعلمنا بأن الحبز كان يشكل العمود الفقري في تغذية السكان، كما لاحظ ذلك المؤرخ الاغريقي بركوب Procope منذ القرن السادس الميلادي، فإن غلاء أثمان القمح وغيره من الحبوب يمثل هذه النسبة الكبيرة، كان يحدث أزمة في الحبز تلجئ الناس إلى أكل الأعشاب.

على أنه ينبغي أن نضيف، إلى جانب العوامل الطبيعية من جفاف وجراد، عاملين آخرين من صنع البشر، كانا يساهمان بدورهما في ارتفاع أسعار المواد الغذائية :

أولهما الاحتكار. فقد كانت خبرة الجوع والتنبؤات المستقبلية بوقوعه تقنع من يملك الغذاء بضرورة احتزانه، مما كان يساهم في تصعيد موجة الغلاء. فعندما قرر الخليفة الموحي الرشيد الخروج في حملة ضد الخلط، وكان ذلك خلال مجاعة 632هـ بمراكش، ظهرت بالمدينة «الخطئة» مما باعه المحتكرون، وكانت بكمية كبيرة جدا، إذ يخبر ابن عذاري أنه «كان عندهم منها ما تمشي به أحوال الناس مدة طويلة ولكن حب النفس منعهم من اخراجه والتمسك به»⁽⁷⁾.

وثانها تأثير الحروب والفتن التي كانت تشتد بالخصوص في ظل ضعف السلطة المركزية وفي فترات الصراع بين الدول المنهارة والقوى المناهضة لها، ولا يتعلق الأمر هنا بالחסائر البشرية في صفوف المتحاربين أو غيرهم، وإنما بانعكاسات الحروب على معيشة السكان. ففي هذه الفترات الحرجة تتوقف الزراعة، وتهجر القرى، ويتعرض للتدمير جزء له شأن من موارد الغذاء. وعلى الخصوص، فقد

(7) ابن عذاري : البيان المغرب... قسم للموحدين، دار الثقافة، 1985، ص 321.

الجدول رقم 2 : أسعار بعض المواد الغذائية في أوقات الشدة

المصدر	السنة	السعر	المادة
ابن أبي زرع، ص 98	916-915/303	3 دنانير للمد	القمح
ابن علقري، 1985، ص 255	1053-1052/444	أوقية بدرهم	الدقيق
ابن علقري، 1985، ص 16	الثورة الموحدة	ربع بمقتال	الدقيق
ابن أبي زرع، ص 274	1227-1226/624	15 ديناراً للقفيز	القمح
ابن أبي زرع، ص 276	1234-1233/630	30 ديناراً للوسق	القمح
ابن علقري، 1985، ص 319	1236-1235/632	ربع بثلاثة دنانير	الدقيق
ابن علقري، 1985، ص 339	1238-1237/634	ربع بـ 37 درهما	الدقيق
ابن أبي زرع، ص 255	1239-1238/635	30 ديناراً للقفيز	القمح
ابن أبي زرع، ص 405	1281-1280/679	10 دراهم للصاع	القمح
ابن أبي زرع، ص 409	1295-1294/693	10 دراهم للمد	القمح
ابن أبي زرع، ص 409	1295-1294/693	6 أواق بدرهم	الدقيق
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	90 ديناراً للصحفة	القمح
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	15 درهما للمد	القمح
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	4 أواق بدرهم	الدقيق
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	5 أواق بدرهم	الحص
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	أوقيتان بدرهم	الزيت
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	أوقيتان بدرهم	العسل
ابن أبي زرع، ص 401	1325-1324/724	أوقية ونصف بدرهم	السمن

الجدول رقم 3 : الأسعار في أوقات الرخاء

المصدر	السنة	السعر	المادة
ابن أبي زرع، ص 96	862-824/247-208	3 دراهم للوسق	القمح
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	ربع درهم	الدقيق
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	6 دراهم للصحفة	القمح
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	3 أوطال بدرهم	العسل
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	40 أوقية بدرهم	الزيت
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	أوقية بدرهم	لحم البقر
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	70 أوقية بدرهم	لحم الضأن
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	8 أوطال بدرهم	التمر
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	صاع بدرهم	اللبوز
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	فرد بفرواط	الشابل
ابن أبي زرع، ص 302	1257/656	حمل بدرهم	الملح
ابن أبي زرع، ص 384	1275-1274/673	20 درهما للصحفة	القمح
ابن أبي زرع، ص 384	1275-1274/673	8 دراهم للصحفة	الشعير

كانت البهائم، التي يصعب على الفلاحين وضعها في مخاض آمنة، تقع فريسة سهلة في أيدي المحاربين النهائيين. وبهذه الطريقة كانت الحروب توجه ضربات قوية إلى الاقتصاد القروي، سيما وأن إبادة جزء هام من الأبقار والخيول كان ينعكس رأساً على العمل في الحقل وعلى المردود، ويؤدي إلى تفشي مجاعات محلية. ولم تكن المدن في مثل هذه الأوقات العصبية أقل معاناة من البوادي، خاصة عندما تتعرض لحصار ممتد. هذا ما حدث، مثلاً، خلال حصار قبيلة الخطل لمراكش عام 632هـ والذي تحدث عنه ابن عذاري بقوله :

«وشرعوا (الخطل) في تدمير البحائر وقطع مياهاها وشجراتها، وقد خلت أمامهم المداشر والقرى... فضاقت الأرض على الناس بما رحبت لا لقطع المرافق والموارد وارتفعت الأسعار وعمدت الأقوات وقل كل مرفق وأعوز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتبن والفواكه والخضر وما يجلب من البوادي واقتشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شتى أنواع الحنطة وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف الفاسد إلى ثلاثة دنائير والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه»⁽⁸⁾.

للتخفيف من بؤس السكان، والحيلولة دون قيام اضطرابات الجوع، كانت تتخذ على المستوى الرسمي عدة تدابير لتنظيم عملية الغوث، من شأنها أن تساعد الدولة على تعزيز سلطتها وتزكية مشروعيتها في الحكم. من ذلك الإجراءات التي اتخذها الخليفة الموحد المستنصر إبان مجاعة 616هـ / 1217م، والتي تحدث عنها ابن عذاري بقوله :

«أمر (المستنصر) بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم فذكر أنها كانت بضمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء، وبالجملية فإنه أصدق منها شيئاً كثيراً وأعطى من الأموال عطاء جزيلاً فحسنت أحوال الناس بذلك»⁽⁹⁾.

(8) نفسه، ص 318.

(9) نفسه، ص 267.

من ذلك أيضا ما ذكره ابن أبي زرع عن التدابير التي اتخذها السلطان المريني أبو سعيد عثمان عند مجاعة عام 724هـ / 1323م :

«وصنع أمير المسلمين في هذه الشدة والمجاعة مع رعيته من الخير ما لا يقدر واحد على وصفه، فتح لهم أهراء الزرع وأخرجه للبيع، فبيع 4 دراهم للدم، والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما، وأمر بالصدقات، فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة، يمر بها الثقات على حارات المدينة فيعطونها أهل التستر والبيوتات وذوي الفاقات والحاجات كل على قدر حاله وضعفه فكانوا يأخذونها من دينار ذهباً إلى ربع دينار»⁽¹⁰⁾.

إلى جانب مثل هذه المساعدات الرسمية، كانت تتخذ مبادرات احسانية فردية من طرف اليسورين. وكان اللجوء إلى مثل هذا السلوك أمراً شائعاً في مجتمع ينعكس عليه الدين كعامل من أبرز العوامل المؤثرة فيه. من ذلك ما رواه ابن أبي زرع عن الفقيه محمد بن إبراهيم المهدوي (ت 595هـ) الذي دخل فاسا «بأربعين ألف دينار فأنفقها كلها في سبيل الخير» ؛ ويضيف المؤلف أن مجاعة أصابت المدينة، فباع الفقيه المذكور ألف وسق من القمح للمعوزين «بوثائق وأخرهم بالثمن إلى أجل، فلما حصل الأجل استدعاهم فحضرُوا في منزله فحل الوثائق في الماء وقال لهم أنتم من ذلك في حل فإنني ما بعت إلا من الله تعالى»⁽¹¹⁾.

من جهته، يذكر ابن الزيات أن الفقيه أبا حفص عمر ابن الصنهاجي (ت 561هـ) جمع خلقاً كثيراً من المعوزين لما ألت مجاعة 535هـ / 1140م، فكان يقوم «بثقتهم وينفق عليهم»⁽¹²⁾.

بيد أن مثل هذه المساعدات لم تكن تفي دائماً، في شدة طاحنة، بالحاجيات مهما كانت أهميتها. من ثم كان ضعفاء الناس يضطرون إلى بيع أملاكهم بسعر

(10) ابن أبي زرع، 1973، م.س، ص 401.

(11) نفسه، ص 128.

(12) ابن الزيات : العشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984، ص 183.

زهيد مقابل لقمة عيش⁽¹³⁾. أما المعدمون فكانوا يُتركون لمواجهة المصير المحتوم. وقد أمدنا ابن عباد بنص يجسد هذه الحالة، إذ يقول في رسالة بعث بها إلى فاس :

«المراد منكم أن تخبروني بما استقر عليه أمركم من حال الناس الذين هم يموتون جوعا وعريا من غير مبالاة (كذا) أحد بهم، فلا أدري أوجدوا في ذلك رخصة، أم أخذوا في قلوبهم وأبدانهم من سوء حال ما ذكرناه حصّة، أم سكتوا عن ذلك كما هو المألوف والمعهود، وخلوا الكفة تنطح العمود، وهذا هو الظاهر (...). كيف وهذه نازلة قد شددت، وبلية قد غلبت سائر البلايا وبدت، إذ فسدت فيها أديان الناس ومروعاتهم وأخلاقهم، أما فساد أديانهم فلا إلهام لهم المساكين وتخليتهم إياهم حتى يموتوا جوعا وعريا، وقد وجبت عليهم مواساتهم...»⁽¹⁴⁾.

وفي إطار الصراع من أجل البقاء، كان الجائعون يضطرون إلى تناول مواد تكميلية، حيث يتردد الاقتصاد إلى شكله البدائي، فيسود القطف والالتقاط. فمن جملة ما كانوا يقتاتون به نواة الزيتون بعد طحنها، ونبات تبودا، وهو شبيه بالقصب ينبت عادة في الصحاري والأنهار والسواقي، فيجفف ويصنع منه خبز⁽¹⁵⁾. وفي كتاب «التيسير في المداواة والتدبير»، لأبي مروان عبد الملك بن زهر، نجد إشارات أخرى إلى ما كان يقتات به الجائعون ؛ يقول المؤلف :

«وقد شاهدت وأنا في أسر علي بن يوسف وفي سجنه — قوما كانوا في أطباق سجنه المعروف بقرقدين، يتطارحون على أعشاب كانت تزال عن السقوف ويأكلونها، وأن ما كانوا يأكلون نوعا مذموما من أنواع الينوع وغير ذلك لألم الجوع... وشاهدت بمراكش قوما قد بلغ بهم جهد الجوع، فكانوا يكسرون عظام الجيف البالية من حفير مراكش ويصطبون أعناقها، وكان قد ظهر فيهم الموت

(13) يذكر ابن الزيات في هذا الصدد أن امرأة اضطرت إلى بيع دارها بـ 500 دينار في «عام جمعة شديدة» (نفسه، ص 153). وبذلك كانت الجماعة فرصة بالنسبة للبعض لاحتياج اللوات عن طريق استغلال الضعفاء وهو ما سماه ابن خلدون بحالة الأسواق (المقدمة، ص 870 — 871).

(14) تفضل الأستاذ محمد المتوفي مشكورا بإطلاعي على هذا النص وهو ضمن رسائل ابن عباد الكبرى.

(15) ابن عداري، 1985، م.س، ص 326.

الذريع»⁽¹⁶⁾.

بالموازاة مع ذلك، كان يتم اللجوء إلى وسائل أخرى : العنف واللصوصية، بل وكان الجائعون يضطرون حتى إلى أكل اللحوم البشرية.

بقي علينا أن نشير إلى أن الإنسان القروسطي في المغرب اكتسب خبرة كبيرة في مقاومة الجوع بالادخار والتخشف، وكان تخزين الطعام من ضرورات الحياة ؛ فالخزير أو المطمورة جزء أساسي في المزرعة أو بيت المزارع⁽¹⁷⁾.

2 - الأوبئة :

نلاحظ من الجدول رقم 1 أنها لم تكن تقل تفشيا عن المجاعات، فقد بلغت حصيلتها في الحقبة نفسها 17 وباء، أي بمعدل وباء في كل 32 سنة. بيد أن هذا التعادل النسبي بين عدد الأوبئة والمجاعات — وقد تكون مصادرنا هي المسؤولة عنه — لا يعني وجود تزامن حتمي بين الظاهرتين. فهناك أوبئة صرفة حدثت بمنأى عن كل قحط أو مجاعة، كما هو الشأن في سنوات 307هـ/919م، 344هـ/955م، 571هـ/1175م، 610هـ/1213م، 750هـ/1349م، 819هـ/1415م. مع ذلك، فإن ما يميز الأزمات الديموغرافية في المغرب من النوع القديم، هو تلاقي القحوط والمجاعات والأوبئة، وقد تنضاف إليها، أحيانا، النتائج المترتبة على الحروب.

أما إذا أردنا أن نتساءل عن طبيعة هذه الأوبئة فلا بد، للحصول على إجابة كافية ومقنعة، من التزود بمزيد من المعلومات المتعلقة بها. فالنصوص لا تتحدث عن أمراض معينة، وإنما تتضمن إشارات عامة إلى «الوباء»، و«المرض» و«الطاعون»، وهي تسميات فضفاضة تستعمل لدى الاخباريين للدلالة على كل وباء معد يتسبب في وقوع وفيات مرتفعة، وهذا دون أي وصف للأعراض من شأنه أن يساعدنا على تحديد طبيعته. على أن سكوت الاخباريين عن ذكر الدمايل، والقيء، وبصق الدم، والاسهال، يدفعنا إلى ابداء كثير من التحفظ إزاء لفظة «الطاعون» التي كثيرا

(16) طبعة دمشق، ص 430 (تفضل الأستاذ محمد النوني مشكورا باطلاعي على هذا النص).

(17) موسى (عز الدين) : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشرق، 1983، ص 192.

ما استعملوها. والحال أننا نعرف، حسب الدراسات الحديثة المتعلقة بهذا الوباء الخطير، أنه ارتفع عن العالمين الشرقي والغربي بعد قرنين من طفياته الدوري. فأخر طاعون عرفه الشرق هو طاعون عام 770م. وآخر طاعون عرفه الغرب هو طاعون نابولي عام 761م⁽¹⁸⁾. وبعد احتجابه في ظروف غامضة، فإنه لم يعد إلى الظهور إلا بعد حوالي خمسة قرون، ابتداء من الطاعون الأسود عام 1348. ومن الطريف أن نذكر هنا تلك الرواية العربية، التي تناقلها الكثيرون، والتي تشير بالفعل إلى ارتفاع الطاعون عن الشرق. تقول الرواية إن أحد رجالات الدولة العباسية صرح علانية بأنه لمن يمين الطالع أن يرتفع الطاعون بعد استيلاء العباسيين على الحكم؛ وتضيف الرواية أن أحد الحاضرين، من أنصار الأمويين، أجاب بسخرية بأن الله لا يعاقب العباد بطامتين، فاستعاض عن الطاعون بالعباسيين⁽¹⁹⁾.

ابتداء من الطاعون الأسود، أحس المعاصرون بأنهم أمام مرض جديد «لم يسمع بمثله». فلم يعرفوا وباء تفشى على هذا النطاق، ولا كارثة فتكت بالأرواح هذا الفتك الذريع كما حدث بسبب هذا الطاعون «وقد تهادى الوباء وكثر حتى نيف الأموات في اليوم على ستة آلاف وقط الناس»⁽²⁰⁾. لذلك اعتبروه «الطاعون الأول العام في الأرض»⁽²¹⁾. نعرف، من جهة أخرى، أنه كان بالنسبة لابن خلدون بمثابة التحول الطارئ الذي غير، مع «الغزو» الهلالي، وجه المغرب والمغرب لانجاز مشروعه المتعلق بكتابة التاريخ.

بعد تكرر موجات الطاعون، واتساع المسافة الزمنية، ازداد الاحساس لدى

(18) يجب ألا ننساق مع الاشارات التي نجدها لدى الاخباريين وأصحاب التراجم، كإبن الأثير، وابن خلكان، إلى ظهور الطاعون في المشرق الإسلامي فيما بين 770م و1347م؛ فكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن هؤلاء الكتاب كانوا يستعملون كلمة «الطاعون» للدلالة على أي وباء يحدث وفيات مرتفعة، وبالتالي فإن «الطواعين» التي أشاروا إليها خلال الحقبة المذكورة أعلاه، ليست طواعين حقيقية وإنما أوبئة أخرى غير محددة. ينظر حول هذه المسألة:

Blraben (J.N.) : *Les hommes et la peste en France et dans les pays méditerranéens*; Mouton, Paris, 1976, 2 vol.

(19) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(20) تفضل الأستاذ محمد المنوني مشكوراً بإطلاعي على هذا النص.

(21) ابن قفط : كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1973، ص 345.

الناس بأن عاملا جديدا أصبح يشكل جزءا من بنيتهم الحياتية. ذلك ما يمكن استخلاصه من رواية ابن هيدور (توفي بفاس سنة 816م) التي تقول :
«أخبرني شيخى... قال ليلة من الليالي عام أربعة وستين وسبعمائة قد أخذت مضجعي فنظرت في حالة الوباء الثاني الواقع إذ ذاك وهالتي أمره فتمت مغفور القلب» (22).

نلاحظ أن الكتاب أصبحوا يؤرخون بالطاعون الأسود ؛ وليس من المستبعد أن تفاجئنا النصوص، ذات يوم، بمن يتحدث عن طاعون ثالث، ورابع... وإذا كان الكتاب اللاحقون، الذين لم يعيشوا الطاعون الأسود، قد خلطوا بين الأوبئة القروسطية، ونعتوها بدون تمييز بالطاعون، فلأن هذا الوباء أصبح متواترا متغلا في حياتهم بشكل جعلهم لا يتصورون أن تكون الأجيال السابقة قد نجت من وبلائه. ومن اللافت للنظر أن هذا الخلط وقع حتى بالنسبة للأوبئة الحديثة والمعاصرة. فالناصرى، مثلا، يدرج ضمن الطواعين أوبئة الكوليرا التي ضربت المغرب في القرن التاسع عشر. وقد أصبحنا نجد هذا الخلط في بعض الدراسات الحديثة !

قبل الطاعون الأسود، يمكن القول إذن إن كثيرا من الأوبئة التي صنفها الاخباريون خلال هذه الحقبة ضمن الطاعون، إنما هي مجرد أمراض مختلفة، خاصة منها الجديري وحمى التيفوس الوبائية. ويذكر رونو بالفعل أن الجديري يأتي ضمن جميع الأوبئة التي اجتاحت المغرب في العصرين الروماني والعربي، والتي ورد ذكرها عند الاخباريين باسم الطاعون (23) ؛ كما يذكر في موضع آخر أن حمى التيفوس الوبائية كانت موجودة في سائر العصور (24).

لاشك أن تلك هذين المرضين كان مرتبطا بسوء التجهيزات الصحية والوسائل المتعلقة بالوقاية والنظافة ؛ يضاف إلى ذلك العوامل المحلية التي تزيد من حدتهما، كترامتهما مع القحوط والمجاعات، ولجوء الناس إلى تناول الأعشاب المضرة.

(22) ابن هيدور (التادلي). ماهية الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 9605.

(23) Raynaud (L.) et Soullie (H.): Hygiène et pathologie nord-africaine; Alger, 1932, p. 406

(24) نفسه، ص 414.

هناك مرض آخر كان يهدد الإنسان المغربي في صحته خلال العصر الوسيط، وهو الجذام، الذي وإن لم يكن يقتل صاحبه فإنه كان يحكم عليه بالعيش في عزلة قاتلة عن عالم الأحياء. فقد كان الجذمي يقيمون عادة في «حارات» بعيدة عن المناطق السكنية والمياه الجارية، ويقون فيها طيلة حياتهم. في فاس، كانت حارتهم تقع خارج باب الخوخة «ليكون سكنهم تحت مجرا الريح الغربية فتحمّل الرياح أبخرتهم ولا يصل أهل البلد منها شيء، وليكون تصرفهم من المياه وغسلهم بعد خروجه من البلد»⁽²⁵⁾. وعلى عكس ما حدث في أوروبا، حيث أثار الجذمي ردود فعل جماعية وصلت حتى إلى الفتك بهم جماعيا، كما حدث في فرنسا سنة 1321م، فإن جذمي المغرب وجدوا قدرا لا يستهان به من الرعاية.

أما بخصوص داء الزهري، فإننا نتوفر على رواية محمد الوزان الفاسي التي تؤكد أن هذا الداء لم يبدأ في الانتشار في الغرب إلا في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر :

«داء الأفرنج (الزهري) الفظيخ بأوجاعه وقروحه منتشر كثيراً في بلاد البربر لا يكاد يسلم منه إلا القليل... وهذا الداء لم يشاهد قط ويذكر حتى اسمه، لكن عندما طرد الدون فرناند ملك اسبانيا اليهود من بلاده جاء كثير منهم إلى بلاد البربر فظهر فيها هذا الداء الذي حمله عدد كثير من يهود اسبانيا، وكان لعدد من الأشقياء المغاربة اتصال (جنسي) مع نساء هؤلاء اليهود، وهكذا انتشر قليلا قليلا حتى لم يعد تسلم منه أية أسرة... ويؤكدون في بلاد البربر أن أصل هذا المرض من اسبانيا»⁽²⁶⁾.

على الرغم من أهمية هذه الرواية وقيمة صاحبها، فإنه لا يمكننا الانسياق معها لننجزم بأن المغرب لم يعرف داء الزهري خلال العصر الوسيط : أولاً، لأن الأمراض الجنسية من الأمور التي كان يقع التستر عليها ؛ وثانياً، لتقدم الأبحاث الطبية حول مصدر الوباء ؛ فإذا كان الرأي الشائع هو أن كريستوف كولم وبجارتهم هم الذين نقلوه من العالم الجديد إلى أوروبا، فإن الاتجاه العلمي الجديد يؤكد أنه كان متفشياً في العالم القديم منذ العصور السحيقة.

(25) ابن أبي زرع، 1973، م.ص، ص 40 — 41.

(26) وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 1، الرباط 1980، ص 67.

3 — الانعكاسات الديموغرافية :

قد يكون من المناسب أن نبدأ أولاً بالإشارة إلى أننا نصطدم هنا بمشكل عويص يتعلق بمعرفة عدد سكان المغرب الذين تفتشت فيهم هذه الأوبئة والمجاعات، وهو مشكل نعتقد أنه لن يوجد له حل في يوم من الأيام، نظرا لانعدام المعطيات الاحصائية انعداماً كلياً خلال هذه الحقبة بالنسبة لمجموع السكان. عبر نوان (Noin) عن هذه الصعوبة بقوله :

«بخصوص تاريخ سكان المغرب، فإن الحقبة العتيقة — تلك التي تتميز بمعالم ديموغرافية من النوع القديم — هي التي تتسم أيضاً بانعدام كلي تقريباً للتوثيق الاحصائي. من المحتمل أن تحفظ لنا الوثائق المكتوبة باللغة العربية بمفاجآت، نظراً لأنه لم يتم بعد تجميعها كلها وفهرستها. إلا أنه لا توجد، إلى اليوم على الأقل، أية وثيقة تكشف لنا عن وجود احصاء عام كما حدث في الامبراطوريات الكبرى خلال العصور القديمة، وفي الدول الأوروبية خلال الحقبة الوسيطة»⁽²⁷⁾.

لا يقتصر الأمر على انعدام احصائيات، فنحن لا نتوفر حتى على تلك التقديرات التي قدمها عدد من الكتاب والرحالة عن سكان المغرب في العصور اللاحقة. في مثل هذه الظروف، تبقى الإشارات التي تركها الاخباريون عن المجاعات والأوبئة المعالم الوحيدة التي يمكن من خلالها تسليط بصيص من الضوء على تطور السكان في الحقبة التي عهنا. فمع أن هؤلاء الاخباريين لم يزودونا، إلا نادراً، بأية تقديرات عن عدد الضحايا، فإنهم قدموا أوصافاً معبرة عن قوتها التدميرية للأرواح البشرية. يتضح ذلك من رصد بعض العبارات المستعملة. فكثيراً ما تطالعنا عبارة «فهلك خلق كثير»، أو «هلك من الناس من لا يحصى». وقد تستعمل عبارات أخرى عندما يتعلق الأمر بانحيار ديموغرافي كبير. من ذلك رواية ابن أبي زرع عن مجاعة 1020/411 : «وكرر الفناء في الناس». يضاف إلى ذلك إشارات كثيرة أخرى إلى ارتفاع عدد الموتى، كعجز الناس عن دفن موتاهم، أو استعمالهم للحفر الجماعية لدفن موتاهم... فكل هذه الأمثلة، وغيرها، يوضح أن سكان المغرب كانوا يعيشون في دائرة مغلقة من الناحية الديموغرافية. إذ كلما

ترايد عددهم في أوقات الهناء والرخاء، إلا وانقضت عليهم الأوبة وفنكت بهم
المجاعات، فنقضني على عدد كبير منهم.

وباعتبار أن هذه الظواهر الطبيعية سجلت رقما قياسيا في القرن الثالث عشر
الميلادي، فمن المحتمل أن تكون مرحلة ممتدة من الهبوط في المنحنى الديموغرافي
قد حلت في هذا القرن، وذلك قبل أن يتحول الهبوط إلى انهيار كبير مع الطاعون
الأسود في منتصف القرن التالي. أشار العروي إلى هذا الضمور الديموغرافي، لكنه
لم يأخذ بعين الاعتبار لتعليه، سوى آثار حملات المرينيين على الأندلس :

«على الرغم من أنه يصعب علينا تكوين فكرة دقيقة عن الحالة الديموغرافية،
باعتبار أن النصوص في أغلب الأحيان تلوذ بالصمت حول هذا الموضوع، فمن
المحتمل أن يكون عدد سكان المغرب قد استمر في الهبوط خلال القرنين الثالث
عشر والرابع عشر. وفي هذا الصدد، يحدّثنا الناصري عن الآثار الوخيمة لهزيمة
عام 1212م وكان يجمل به أن يضيف جميع الحملات الأندلسية التي تواصلت
في عهد المرينيين، حيث أن مملكة غرناطة ستستمر تتلقى الدعم العسكري حتى
بعد تخلي الملوك المغاربة عن كل طموح تراي فيما وراء المضيق»⁽²⁸⁾.

يمكن أن نستخلص، على ضوء ما سبق، أن المغرب في العصر الوسيط لم يكن
بلدا مكتظا بالسكان، كما يوهنا البعض عندما يقول : «غص المغرب بسكانه من
أم لا يحصهم إلا خالقهم»⁽²⁹⁾. على أنه يمكن أن نفترض مع مؤلفي كتاب
«تاريخ المغرب»⁽³⁰⁾، وفقا للحلود المعقولة، أن عددهم كان يقل عن خمسة
ملايين نسمة، وهو الرقم الذي قدم بالنسبة للقرن السادس عشر.

4 — التفاوت الاجتماعي أمام الموت :

من البديهي أن الخسائر البشرية الناجمة عن المجاعات والأوبئة كانت أشد وقعا
في صفوف الفئات المستضعفة. فالفئات الغنية كانت تملك عادة من مخزونات
القوت ما تستطيع به مقاومة الشدة، وبامكانها أن تشتريه في حالة استفادته لديها

(28) Laroui (A.): *Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*; Paris, 1975, t. 1, p. 199

(29) أورده : Brignon (Ch.) et autres : *Histoire du Maroc*; Paris, 1967, p. 153

(30) نفسه، ص 76.

لثأمين استهلاكها العائلي. أما الفقراء فكانوا يعانون عادة من سوء التغذية، ولا يملكون احتياطات لجعلهم يجتازون حتى الفترات القصيرة من نقص طارىء في الغذاء، فكانوا، خلال المجاعات الحادة، يتساقطون كالذباب. يكفي أن نورد هنا قول ابن عذارى عن مجاعة 925/303 في الأندلس :

«وكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة حتى كاد أن يعجز عن دفنهم»⁽³¹⁾.

وبدون أن نغامر بحكم عام، يبدو من المرجح أن سكان المدن كانوا يؤدون أفدح الضرائب للوباء، والجوع بالقياس إلى أهل الريف. فظروف العيش في المجتمعات الريفية تكون أنسب عادة لتأخير هجوم الأوبئة. وإن المزيد من الأرض الفضاء، والهواء النقي، وإمكانية وجود موارد أفضل للغذاء في البوادي، لذات دلالة ومعنى في هذا الصدد.

لا ننكر ونحن نقرر هذا أن المدينة المغربية في الحقبة الوسيطة توفرت على ما لم تتوفر عليه البادية من مرافق صحية، في مقدمتها المارستانات، ثم الحمامات التي أصبحت منذ عهد الإدارة من المؤسسات الهامة وتقوم بدور رئيسي في المحافظة على نظافة السكان وصحتهم. إلا أن شدة الازدحام في الأحياء، وتكدس الأزبال، كان يخلق شروطا مناسبة أمام تفشي الأوبئة، مما يبرر قسوتها وشدة فتكها بالمقارنة مع ما كان يحدث في البادية. هذا ما تؤكد بعض الإشارات الواردة في المصادر والتي تكاد تجمع على أن الوباء إنما كان ينبجم عن فساد الهواء في المدن وكثرة عفونتها.

من ذلك ما رواه ابن عذارى عن الوباء الذي تفشى بمراكش في العام 635هـ/ 1237م بصدد حديثه عن وصول بيعة أهل سبتة والأندلس في عهد الخليفة الموحدي الرشيد، حيث قال : «واجتمعت الوفود من أهل اشبيلية وسبتة وغمارة البحر من البلدين ووافقوا الصيف بمراكش ومزاجها الانحراف وهوؤها رديء بكثرة الأمطار من الجذب الذي كان تقدم أعواما. فكثرت الرطوبة وحدث الوباء فتغيرت أحوال أهلها فضلا عن سواهم لاسيما أهل البحر فنزل الوباء بهم وقتل

(31) البيان، نشر وتحقيق كروان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، ج 2، ص 167.

منهم عددا كثيرا⁽³²⁾.

بعد ابن عذاري بحوالي قرن، وصف ابن الخطيب بعض المدن المغربية بأسوأ الأوصاف من وجهة النظر الصحية، فقال عن مراكش : «إن حمايتها كلفة بالجسوم طالبة ديونها بالرسوم»⁽³³⁾. وقال عن سلا : «إن يعوضها مستأسد وماءها وهواءها عديما الصحة... والأمراض بها تعبت والخزير بها لا يلبث»⁽³⁴⁾. على أن ابن خلدون هو الذي ترك لنا أكثر المعلومات المتعلقة بالحالة الصحية في المدن والأرياف، وفيها ربط بين تفشي الأمراض وبين ترف العمران على النحو التالي :

«وسببه الغالب (أي الوباء) فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائما فيسرى الفساد إلى مزاجه فإذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة. وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفره»⁽³⁵⁾. «ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزي في المضم إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثرا فكان وقوع الأمراض كثيرا في المدن والأمصار»⁽³⁶⁾، «وأما البدو فمأكولهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم عادة... وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا طواعن ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة»⁽³⁷⁾.

(32) البيان، 1985، م.س، ص 345.

(33) ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب...، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الاسكندرية، 1958، ص 108.

(34) نفسه، ص 106.

(35) المقدمة، مطبعة دار احياء التراث العربي، بيروت، ص 302.

(36) نفسه، ص 150.

(37) نفسه.

5 — الانعكاسات السياسية :

إذا نظرنا نظرة أفقية إلى تعاقب هذه المجاعات والأوبئة، نلاحظ — دون أن تكون هذه الملاحظة قاعدة عامة — أنها كانت تكثر بصفة خاصة في عهد تدهور الدولة الحاكمة وانحطاطها، أي في فترة الصراع بين السلطة المنهارة والقوى المناهضة لها، تلك الفترة التي أطلق عليها ابن خلدون، فيما يخص السلطة المنهارة، مصطلح «المطالوة»، والتي تطول أو تقصر تبعاً لصمودها. فظهور هذه الكوارث في الوقت الذي تكون فيه الدولة قد دخلت في خريف عمرها، كان يساهم في ارتباك أوضاعها، ويعجل بسقوطها. فبالإضافة إلى مهلك أطرها وقياداتها، كانت مجابها تنهار لامتناع القبائل عن دفع ما عليها من واجبات بسبب ضعفها.

لقد شهد أواخر الأدارسة مجاعتين، عام 285هـ وعام 303هـ، بالإضافة إلى وباء 344هـ، فساهمت هذه الكوارث في اضمحلالهم وعجزهم عن مقاومة المد الفاطمي والأموي. كذلك صاحبت الشدائد عهد أواخر مغراوة وبني يفرن، خاصة منها مجاعة عام 444هـ، مما سهل مأمورية المرابطين في الاجهاز عليهم. ثم تكررت موجات من الأزمات الغذائية في أواخر عهد هؤلاء، فيذكر ابن عذارى أن المجاعة امتدت من 535هـ إلى 541هـ، أي أنها تواصلت بدون انقطاع إلى سقوط الدولة. كذلك الشأن بالنسبة للعقود الأخيرة من عهد الدولة الموحدية؛ فمباشرة بعد هزيمة العقاب حل وباء 610هـ «الذي تحيف الناس إلا قليلاً»⁽³⁸⁾. ثم توالى سلسلة من المجاعات في أعوام 616هـ، 617هـ، 630هـ، 634هـ، 635هـ، فمهدت هذه المحن السبيل أمام صعود المرينيين.

كان إذن للكوارث الطبيعية دور سياسي واضح من حيث أنها كانت تزيد من استفحال تدهور السلطة المركزية لتسقط ثمرة ناضجة في يد خصومها. إلا أن آثارها لم تكن تقف عند هذا الحد. فقد كانت لها انعكاسات على صعيد الجهاد في الأندلس التي كانت مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالمغرب وتتأثر بكل ما يجري فيه من أحداث.

يحدثنا ابن عذارى في هذا الصدد بأن «الطاعون» الذي ضرب مراكش سنة

(38) الناصري، الاستقصاء، ج 3، ص 4.

571هـ/ 1175-1176م، والذي انتهى به عدد الضحايا في كل يوم إلى 100 و190 شخصا، أقعد الخليفة الموحي المنصور عن العبور إلى الأندلس لما استنجد به أهلها ضد تحرشات الاسبان، لأن الناس كانوا «من ضعف المرض والطاعون لا يقدرّون على الحركة»⁽³⁹⁾. وإذا كانت الدولة الموحدية قد تمكنت بسرعة من تجاوز آثار هذا الوباء وحققت بعد مدة وجيزة انتصارات باهرة على الجبهتين الأندلسية والأفريقية، فإن مجاعة 607هـ/ 1211م تركت بصمات عميقة، بل ويظهر أن لها علاقة بهزيمة الموحدين في معركة العقاب، تلك الهزيمة التي تعتبر ذات عواقب وخيمة، ليس على الدولة الموحدية فحسب، بل وعلى مستقبل الإسلام في الأندلس.

وبالفعل، يفسر ابن عذاري، الذي يروي تفاصيل مفيدة عن هذه الواقعة، هزيمة الموحدين بافلاس صندوق الخليفة الناصر نتيجة للمجاعة وللإجهاز المالي الذي مارسه الشيوخ الموحدون في الأقاليم، فيقول بصدد حديثه عن حملة الناصر إلى الأندلس عام 607هـ :

«ومادت الحركة إلى قصر كتامة والأسعار قائمة النفاق، والبلاد قد تضيق في كل ما يؤول إلى الارتفاق، وسبب سطوته بعماله في هذه السنة أن لقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه في أسفارهم القاصيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن المبيرات والناصر يتربص بانتقال المراحل لثقل الحالات ويغضي عما سمع من الهنات إلى أن استقبل المنازل التي كانت تستمد منها الرفاق وتحتب منها الحقائق ويدخر منها الأزودة المقيم والزاهب فألفها وقد جف معينا وخف بتوالي العدوان قطيئها ولم يبق منها لخازن السلطان الوافرة أثر ولا يتضح لخازنها دليل ولا نظر واستولى على عموم المحلة الاقتار، وبلغ منهم مبلغ الهزائم المبيرة الأضرار، وجاوز الحد بالناس وسع الاحتمال ووقف لهم العجز عن ادراك الحيلة في معاشهم على غاية الاضمحلال»⁽⁴⁰⁾.

(39) ابن عذاري، 1985، م.ص، ص 138.

(40) نفسه، ص 259.

هذا وقد عمد الناصر إلى اعتقال هؤلاء العمال، وكلف بذلك الشيخ ابن أبي علي، صاحب الأعمال المخزنية، بل وعمد إلى إعدام بعضهم. وكرد فعل على هذا الزجر، فإن الشيوخ الموحدين خذلوه في وقعة العقاب، وتركوه يواجه مصيره. ويختتم ابن عذاري حديثه بقوله: «على أن الموحدين لم يجدوا في تلك الغزوة ولا نصحوا فيها لأجل نكبة أميرهم الناصر لأشياخهم وقته واستيعاله لهم على يد المفوض ذلك إليه ابن مثنى»⁽⁴¹⁾.

6 - تآكل قوى الانتاج :

يعتبر الانسان القوة الاقتصادية لكل بلاد وأساس تقدمها الاجتماعي والاقتصادي لأنه محور لكل المهام الاقتصادية. وإذا كانت هذه بديهية مسلما بها، فإنها تكتسي كافة مضامينها الحقيقية بالنسبة للتشكيلات ما قبل الرأسمالية التي يرتبط فيها نمو قوى الانتاج ارتباطا وثيقا بالمخزون السكاني، وهذا بسبب الدور الرئيسي الذي تلعبه قوة العمل في عملية الانتاج. ذلك ما عبر عنه ابن خلدون بقوله : «وكثر العمران تفيد كثرة الكسب لكثرة الأعمال التي هي سببه... والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية»⁽⁴²⁾.

على ضوء هذا تتضح لنا في أجلى مظاهرها خطورة عوامل التدمير، من مجاعات وأوبئة، التي كانت تتدخل دوريا لتعرض قوى الانتاج للتآكل والتلاشي وإلى ما يتبع ذلك من خراب المعامل والمنشآت الصناعية، وكثرة القرى المهجورة، وتقلص المساحات المزروعة، لاسيما في السهول، وتدمير حياة الاستقرار، والتفشي الواسع للنشاطات الرعوية⁽⁴³⁾.

لا يغرب عن بالنا، ونحن نقرر هذا، ذلك المستوى الاقتصادي المرموق الذي حققه المغرب في العصر الوسيط. إن جميع الجغرافيين العرب، الذين ساحوا فيه

(41) نفسه، انظر أيضا علي أمليل : الخطاب التاريخي. دراسة لمنهجية ابن خلدون، معهد الانماء العربي، ص 157.

(42) المقدمة، م.س، ص 689.

(43) إن كتاب الحقبة الاستعمارية لم يأخذوا بعين الاعتبار هذه الوقائع عند حديثهم عن الحالة الاقتصادية بالمغرب خلال الحقبة الوسيطة، فغالبا ما قدموها بصورة مشرقة جدا حتى إذا ما جاء الغزو الهلالي، كان الخراب والدمار !

أو كتبوا عنه من بعيد خلال هذه الحقبة وصفوه بأنه بلد يزهر بوفرة منتجاته ورخاء أسعاره، وخضرة أشجاره، وكثرة بساتينه التي تلاقى بعضها بعضا من كثرة ازدهامها. فمهما يكن في هذه الأوصاف من مبالغة، فهي تقيم الدليل على أن المغرب عرف في ظل استقرار السلطة المركزية وسلامة الظروف الطبيعية ازدهارا كبيرا تجسد في شق السواقي ومد الخطارات وادخال مزروعات جديدة، كما تجسد في ازدهار الحياة الصناعية والتجارية والثقافية.

بالرغم من ذلك، علينا أن نضيف أن المجاعات والأوبئة كانت تنقض دوريا لتعرقل هذه الجهود، وتخرب الشروط اللازمة لانتشار الزراعة وتقدم الصناعة. يكفي هنا أن نذكر رواية ابن أبي زرع التي تقول: «وكان بفاس 400 حجر لعمل الكاغد وخرب ذلك كله أو جله أيام المجاعة والفتنة التي كانت في أيام العادل وأخيه المامون»⁽⁴⁴⁾. وقس على ذلك ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من حرف أخرى. ولئن كان المغرب قد تمكن من المحافظة على ازدهاره، على الأقل حتى نهاية القرن الثالث عشر، فلأن الفائض الاقتصادي لم تكن تنتجه في معظمه قوى الإنتاج المحلية، ولما كان يأتي من دور الوسيط الذي كان يلعبه في التجارة العالمية. ولكم هو معبر عن هذه الحقيقة قول ابن عذاري:

«وفيهما (634هـ) كان الغلاء المفرط الذي انتهى فيه الربع الواحد من الدقيق إلى سبعة وثلاثين درهما ولكن الناس كانت تقاوم هذا الغلاء فإن السلع كلها نفقت أسواقها ودرت أرزاقها وكان الدرهم الواحد أفضله عشرين درهما أو نحو ذلك والمرد هكذا في كل سوق فما كان أحد من التجار ولا من السوق يبالي بتضاعف نفقته مع جزيل الفائدة العائدة عليه في تجاراته وأرباب الدولة قد امتلأت أيديهم بالخير الكثير»⁽⁴⁵⁾.

يبد أن العلاقة الجدلية بين النوازل الطبيعية وتآكل قوى الإنتاج شكلت، ابتداء من القرن الرابع عشر، عنصرا أساسيا في كبح الدينامية الاجتماعية، كما بلور ذلك ابن خلدون:

(44) ابن أبي زرع، 1973.

(45) البيان، 1985، م.س، ص 339.

«واعتبر حال الرفح من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف سكانها وتناقص
عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها
فقلت أموال دولها...»⁽⁴⁶⁾.

لقد ربط اذن ابن خلدون بوضوح بين التناقص العمراني واضمحلال أحوال
المغرب. إلا أنه لم ينتبه إلى الملابس الجديدة التي كرس هذا الاضمحلال.
ذلك أن عوامل أخرى كانت وقتذاك قد تداخلت في عملية الانهيار بجانب
المصاعب الناجمة عن الكوارث الطبيعية أو التصعيدات السياسية، ونعني بها تفوق
أوروبا في فن الملاحة، الأمر الذي انتزع من المغرب المركز التجاري الذي كان
يحتله خلال عهدي الموحدين والمرابطين، وبدأت طرق التجارة والمرور الدولي
تبتعد عنه، مما أدى إلى غلق سبل الاكتساب الخارجي أمامه، وحدث بذلك التغيير
الذي قاد هذه البلاد إلى التخلف.

(46) المقدمة، ص 662.

الأنثروبولوجيا والتاريخ

تقديم

نظمت شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بـصـاـوـن مع اللجنة المغربية الأمريكية للتبادل الثقافي والتربوي» حلقة دراسية في موضوع «إعادة تصور للتقاليد والجمتمع بالمغرب»، وذلك بمشاركة عدد من الباحثين المغاربة والأجانب ينتمون لتخصصات مختلفة من ميادين المعرفة الإنسانية. وقد أشرف عل تسيير هذه الحلقة الباحث الأمريكي ديل إيكلمان من جامعة دارتموث بالولايات المتحدة.

وفيما يلي نقدم ثلاثة عروض في موضوع : الأنثروبولوجيا والتاريخ.

I - الأنثروبولوجيا والتاريخ ووضعهما في المجال الأكاديمي

دليل ايكلمان

جامعة دارتموث، الولايات المتحدة

التفسير الأنثروبولوجي والتفسير التاريخي

يؤكد وجود كل من التاريخ والأنثروبولوجيا في شعب منفصلة وضمن اختصاصات متباينة في المجال الأكاديمي، على أن هناك اختلافات بين هذين الحقلين المعرفيين تعطي لكل منهما مشروعية إستقلال بذاته. وما سأحاول إثباته في هذه الورقة، هو أنه على الرغم من هذه الاختلافات، هناك عدد من أوجه الشبه بين السرد والتفسير السائدتين اليوم في التاريخ والأنثروبولوجيا ؛ والاختلاف الوحيد هو التأكيد الذي يحظى به هذا المنحى أو ذاك في كل منهما.

يقوم المختصون في الأنثروبولوجيا الثقافية أو الاجتماعية — مع الإشارة إلى أن معنى إحداهما أصبح يفيد معنى الأخرى — بدراسة المجتمعات الراهنة أو ذات التاريخ المعروف. أما المنحى الأنثروبولوجي الكلاسيكي الذي يركز على دراسة المجتمعات الصغيرة التي تنعدم فيها تقاليد الكتابة والقراءة أو المجتمعات التي في حكمها، فقد أصبح اليوم في خير كان. إلا أن هذه الإيديولوجيا التي سادت زمناً في الأنثروبولوجيا أخرت قيام الأنثروبولوجيين بدراسات جادة ومقنعة عن المجتمعات المركبة والحضارات المتطورة. ولعل أولى الاهتمامات التي تشغل اليوم بالأنثروبولوجيين تتمثل في رصد الرموز المشتركة لدى مجتمع ما وكذا رصد أنماط المعاني المتداخلة، التي يقوم أفراد المجتمع — بكيفية واعية وإرادية وأيضاً بصورة غير واعية — بتوليدها والحفاظ عليها أو تغييرها وإعادة إنتاجها، من أجل إعطاء معنى لعالمهم الاجتماعي ومن أجل تسهيل عملهم وتحركهم فيه. وهناك اهتمام آخر

مكمل لهذا الاهتمام الرئيسي، وهو البحث في الكيفية التي تؤثر بها ضوابط التنظيم الاجتماعي والاقتصادي في قضايا مثل اللامساواة الاجتماعية والعلاقة بين الجنسين والسلطة السياسية.

يتبع كل من الأنثروبولوجي والمؤرخ أسلوباً معيناً في التفسير. إلا أن أسلوبيهما متكاملان، ويمكن لأحدهما أن يستعمل أسلوب الآخر. وغني عن القول أن المؤرخ يختلف عن الأنثروبولوجي في النمط الذي يتبعه في تفسير الواقع التاريخي أو التجريد الذي يستخلصه من ذلك الواقع. إلا أن هذا الاختلاف هو اختلاف في التدرج أكثر مما هو اختلاف في النوع. وقد كان إدراك التاريخ في وقت ما ينحصر في كونه تسجيلاً لما حدث في الماضي، وأن مهمة هذا التخصص المعرفي هي إبراز هذا التسجيل وإيضاحه. لكن وقفة تأمل قصيرة من شأنها أن تدلنا على أن التاريخ يشمل أكثر من ذلك بكثير. فجان بول سارتر يعرف التاريخ بأنه ذلك «الفعل المتعمد في إعادة خلق الماضي عن طريق الحاضر»⁽¹⁾، في حين يرى ريمون أرون أن أجود تفسير تاريخي هو ذاك الذي يكون «أكثر انسجاماً وأكثر قرباً للتصديق، وأكثر موافقة لكل الأدلة»⁽²⁾. وإن نحن قمنا بمقارنة مؤلف مارك بلوك — المجتمع الفيوذالي —⁽³⁾ الذي يشرح فيه الكيفية التي ظهر بها مفهوم اللامساواة الذي نسميه بالفيوذية، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في أوروبا، وكذا انعكاسات هذا المفهوم على العلاقات بين الدين والسلطة السياسية وبين السادة والأقنان وكذا انعكاساته في مفاهيم الأسرة والمكان والولاء — أقول إن نحن قارنا هذا المؤلف بدراسة مثل دراسة إرنست جيلنر عن *صلحاء الأطلس*⁽⁴⁾، فإنه سيصعب علينا أن نجزم القول في أي العاملين ننسبه للمؤرخ وفي أي منهما ننسبه للأنثروبولوجي. والواقع أن كثيراً من القراء سيخلص إلى أن مارك بلوك هو أكثر الاثنين جدارة بلقب الأنثروبولوجي، بسبب أن التفسيرات التي يعطيها لمفاهيمه أكثر إقناعاً في ربطها بما هو متوافر لديه من أدلة.

(1) Jean-Paul Sartre, *Literary and Philosophical Essays* (New York: Collier Books, 1962), p. 206.

(2) Raymond Aron, *Introduction to the Philosophy of History* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1961), p. 124.

(3) Marc Bloch, *Feudal Society*, trans. L. A. Manyon (Chicago: University of Chicago Press, 1964).

(4) Ernest Gellner, *Saints of the Atlas* (Chicago: University of Chicago Press, 1969).

يسعى بعض المؤرخين إلى العناية في المقام الأول بإعطاء تفسيرات لأحداث معينة (وهذا لا يمنع وجود مؤرخين آخرين أمثال لورانس سبطون الذي سعى إلى تفسير ظهور بعض المؤسسات والأفكار في إنجلترا في القرن السادس عشر، كفكرة الجامعة أو الأسرة). وما نلاحظه هو أنه مازال محتملاً على هؤلاء المؤرخين الاعتماد، ولو بصورة ضمنية، على بعض المفاهيم المجردة التي يستعملها علماء الاجتماع (أو الأنثروبولوجيون). منها مثلاً المفاهيم المجردة عن طبيعة المعتقدات الدينية والعلاقات السياسية وعن المؤسسات الأخرى التي تستخلص من دراسة مجتمع ما. وفي اعتقادنا أن ابن خلدون نموذج متميز في هذا الباب حيث استطاع في مقدمته أن يجمع بين هذين العنصرين. أما ما يهتم به الأنثروبولوجي في المقام الأول، فهو محاولته إبراز وتأكيد الظواهر والضوابط التي يتكرر حدوثها في مجتمع ما، منها على سبيل المثال، العلاقة بين أنساق المعتقدات والنشاط الاجتماعي والتحكم في أنساق (أو منظومات) الرموز أو منظومات المعاني من أجل تبرير وجود شكل من أشكال اللامساواة الاجتماعية أو السلطة السياسية، أو من أجل تحقيقها وتنفيذها (وقد سبق أن رأينا نموذجاً في هذا الباب في العرض الذي قدمته فاطمة الحراق)⁽⁵⁾. وقد ذهب ريمون أرون بعيداً إلى حد القول إن مهمة عالم الاجتماع — ولربما يقصد ضمناً مهمة المؤرخ أيضاً — «في جعل المحتوى الاجتماعي أو التاريخي أكثر يسراً للفهم والإدراك من التجربة ذاتها والكيفية التي أدركها بها الذين عاشوا التجربة»⁽⁶⁾.

ما وراء الثقافة : أو المغرب والشرق الأوسط في الفكر الأنثروبولوجي

في سنة 1984 كتبت مقالاً بعنوان «الاتجاهات الجديدة في تأويل مجتمعات شمال أفريقيا»⁽⁷⁾. وفيه تناولت بالوصف والتحليل المقاربات التي ظهرت بعد

(5) فاطمة الحراق (1992)، «السلطة والأنثروبولوجيا في مغرب القرن الثامن عشر»، بحث غير منشور قدم في الحلقة الدراسية التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط تحت عنوان «إعادة تصور للتقاليد والمجتمع في المغرب، أبريل 1992».

(6) Raymond Aron, *Main Currents in Social Thought*, vol 2, trans. Richard Howard and Helen Weaver (New York: Doubleday Anchor, 1970), p. 245.

(7) Dale F. Eickelman, «New Directions in Interpreting North African Society», in *Connaissances du Maghreb: Sciences sociales et colonisation*, ed. Jean-Claude Vatin (Paris: Editions du C.N.R.S., 1984), pp. 279-89.

انتهاء الحقبة الاستعمارية، وكان موضوعها تفسير مجتمعات شمال أفريقيا عموماً والمجتمع المغربي خصوصاً. وإذا كانت تلك الاتجاهات التي وصفتها بالجددة في سنة 1984 قد أصبحت اليوم قديمة، فقد تمت الإشارة في ذلك المقال إلى مقارنة أسميتها آنذاك بـ «الاقتصاد السياسي للمضمون الثقافي» (Political economy of meaning)⁽⁸⁾. وفي وصف تلك المقاربة ركزت على أهمية فهم أولئك الذين يعيدون إنتاج منظومات خاصة من المعاني ويحافظون عليها ويعترضون عليها. والملاحظ أن التأكيد على هذه الوساطة (أو الفاعل) Agency⁽⁹⁾، كان غائباً في أنماط فهم الثقافة التي سادت في السابق. وهذه المقاربة هي التي استعارها عبد الرحمن المودن في ما أسماه بـ «توجهات إجرائية» من أجل فهم المعاهدات الدبلوماسية⁽¹⁰⁾، وهي أيضاً التي نجلدها حاضرة عند عمر بنميرة من أجل فهم الاستراتيجية التي اتخذتها أسر النخبة في الحفاظ على ثرواتها والعلاقات بين أفرادها⁽¹¹⁾. وفي مقال نشرته مجلة المستقبل العربي في سنة 1990، بعنوان: «الكتابة الأنثروبولوجية عن الشرق الأوسط»⁽¹²⁾، بينت الكيفية التي يعمل بها الأنثروبولوجيون اليوم على إبراز «الأصوات المتعددة» داخل المجتمع الواحد، والتي نجلدها في كل المجتمعات. وما يسعى إليه الأنثروبولوجيون من وراء ذلك هو البحث عن وسائل جديدة القصد منها هو التعريف بالتعددية السياسية والاقتصادية الداخلية التي تكون حاضرة في مجتمعات مثل مجتمعات الشرق الأوسط، وأيضاً التخلص من النمط القديم الذي كان سائداً في الكتابة الأنثروبولوجية، التي غالباً ما يظهر فيها صوت الإثنوغرافي

(8) Dale F. Eickelman, «The Political Economy of Meanings», *American Ethnologist*, 6, no. 2 (May), pp. 386-393.

(9) See Anthony Giddens, *The Constitution of Society* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1984), pp. 1-40.

(10) Abderrahmane El Moudden, *Sharifs and Padishahs: Moroccan Ottoman Relations from the 16th Through the 18th Centuries: Contribution to the Study of a Diplomatic Culture*, Ph. D. dissertation in Near Eastern Studies, Princeton University (U.S.A), 1992.

(11) عمر بنميرة (1992)، «نوازل الأحباس بالمغرب المربني»، بحث غير منشور قدم في الحلقة الدراسية التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط تحت عنوان إعادة تصور للثقافة والمجتمع بالمغرب، أبريل 1992.

(12) ديل إيكلمان (1990)، «الكتابة الأنثروبولوجية عن الشرق الأوسط»، مجلة المستقبل العربي، عدد رقم 134، (أبريل 1990)، بيروت.

مدعياً بأنه صوت «الموضوعية الخبيثة» (Experienced objectivity) المستقلة عن «التأويل السياسي».

سياسة الثقافة : أو فعل كتابة التاريخ والأنتروبولوجيا

بين محمد العيادي في هذه الحلقة الدراسية المجال الواسع الذي استعمل فيه مفهوم الثقافة في الماضي، ثم خلص إلى الاستعمال المرجعي الراهن القريب من المعنى الذي استعمل فيه مفهوم الثقافة، والذي يشمل من بين ما يشمل الثقافة المهيمنة، كذلك التي تمثلها ممارسات الخزن، وضمنياً ممارسات من يتبعون له.

وتؤكد هذه المقاربة التي أتيناها أن الثقافة هي شكل من أشكال الفعل التواصل، الذي تشارك فيه مجموعة ما من الأشخاص أو طبقة من الطبقات أو نخبة من النخب أو مجموعة من المجموعات الأخرى التي تكون لها مصالح مشتركة أو تمثل صوتاً من الأصوات المتعددة داخل المجتمع. وبعبارة أخرى إن الثقافة هي «طرق المعرفة» التي بها يفهم الناس نشاطهم الاجتماعي أو التي بها يقبلون نشاطهم ذاك عندما يكونون مجبرين على ذلك. ومن ثمة إن محاولتي الراهنة الساعية إلى فهم انتشار التعليم العالي الجماهيري الحديث العهد في العالمين العربي والإسلامي، هي من أجل إدراك الكيفية التي يفهم بها الناس الذات والجماعة والسلطة السياسية والمجتمع ويفكرون فيها. ومقاربتى لهذا الموضوع لا تختلف بتاتاً عن المقاربات التي يتبناها كل من التوزي والحراق والمودن في سعيهم لتفسير التطورات التي تعنيهم في أبحاثهم.

وفي محاولتي الكشف عن الكيفية التي ترتبط بها منظومات المعاني بالسياقات السياسية والاقتصادية التي تعيد إنتاجها، تأثرت في البداية بأعمال بورديو، حيث استلهمت على الخصوص مقاربتة للتعليم العالي التي تحرى فيها الكشف عن التطابقات والصلات بين المكانة الاجتماعية (Status) والسلطة وطرق المعرفة التي يرسخها التعليم العالي. ومع مرور الزمن اكتشفت أن جدوى آراء بورديو وفعاليتها تكمن في اقتراحه للكيفية التي تعمل بها الممارسات والمعقدة السائدة في المؤسسات التعليمية على إعادة إنتاج علاقات غير متكافئة تظهر في توزيع الثروة والسلطة في المجتمع. إلا أن آراء بورديو هاته تقل فعاليتها في إبراز الكيفية التي تفسح بها السلطات السياسية — بما فيها السلطات القمعية — المجال للمعارضة والاحتجاج.

والواقع أن بعض أشكال المقاومة، التي تقاوم المؤسسات المركزية في المجتمع، تبدو كأنها ذات أهمية كبرى في بناء خطاب ذي سلطة، لكن شريطة احتواء كل مصادر المعارضة والانشقاق. ومن هذا المنحى تبدو آراء أنطونيو جرامشي أكثر فعالية من آراء بورديو حتى وإن كان أقل ترتيباً وتنظيماً لمفاهيمه من هذا الأخير. فـجرامشي يقترح أنه حتى وإن كان المثقفون مقيدين بالنظام الاجتماعي القائم، فإنهم لا يقومون قط بإعادة إنتاج ذلك النظام ولكن يزرعون بذور المقاومة والاحتجاج ولو بصورة غير معلنة. وكثير من هذه الحجج والبراهين هي ترديد وصدى لآراء ماكس فيبر الذي رأى التاريخ بنظرة جديدة. والواقع أن الأنثروبولوجيين لم يشرعوا في أخذ تسلسل الزمن وتعاقب الأحداث مأخذ الجد وجعلها عنصراً لا يتجزأ من تفسيرهم السوسولوجي إلا في السنوات الأخيرة.

والسؤال هنا : لماذا أخذت أنثروبولوجية الشرق الأوسط والعالم الإسلامي كل هذا الوقت لكي تؤثر في الاتجاهات الرئيسية السائدة في الأنثروبولوجيا عموماً ؟ وفي اعتقادي، هناك سبب واحد يفسر ذلك، وهو ذلك التأكيد المتباطيء الخاطئ على دراسة المجتمعات الصغيرة، التي يفترض فيها أنها مجتمعات مغلقة أو أنها في حكم المغلقة، وحيث يفترض أنه بامكان الأنثروبولوجي أن يدرك بسرعة الارتباط الداخلي بين المؤسسات الاجتماعية ومنظومات المعاني. وماتزال الأنثروبولوجيا إلى اليوم ضعيفة في تناول مواضيع مثل موضوعات الهجرة الدولية والحج وغيرها من الموضوعات التي تتخطى الحدود الكبرى التي ترسمها المناطق والديانات. أما أسطورة المجتمعات الصغيرة النائية التي تبدو كأنها ذات مجتمعات قارة، فإنه حتى وإن كانت هذه المجتمعات تغري الباحث الأنثروبولوجي بسهولة القيام بمونوغرافيات «أنيقة»، إلا أنها ترى في الوقت الراهن أنها كانت مجرد فاصل في الفكر الأنثروبولوجي. ولربما يكون هناك عامل آخر يتمثل في العامل السياسي. فهذا مثلاً أحد الأساتذة المرموقين يتربع على كرسي من كراسي تدريس

(13) الإشارة هنا إلى ملاحظة شفيقة لحمد عياد حول الاستعمال الواسع لمفهوم الثقافة، وذلك خلال ندوة عقدت بكلية الآداب بعين الشق - الدار البيضاء، ماي 1992.

(14) For further discussion of this issue, see Dale F. Eickelman, «Mass Higher Education and the Religious Imagination in Contemporary Arab Societies», *American Ethnologist* (forthcoming).

الأثروبولوجيا في إحدى الجامعات الأمريكية، وقد سبق له أن حارب مع الطرف الثاني في جبهة القدس سنة 1948، يقول هذا الأستاذ المحترم إنه من المستحيل القيام بعمل أثروبولوجي جيد في منطقة الشرق الأوسط، بسبب عدم الاستقرار السياسي في المنطقة (وعلى هذا الأساس تكون لوس أنجلوس الذي عرفت الاضطرابات الأخيرة كغيرها من مناطق العالم، خارج متناول البحث الأثروبولوجي). وما أريد إثباته، على النقيض من هذا، هو أنه حتى التوتر السياسي الشديد أو التوتر الديني أو العقدي، الذي ينقله الباحثون من بلدان المنطقة أو الأجانب إلى موضوعات العلاقة بين الجنسين، وفرص إقرار الديمقراطية والحركات الدينية: وغيرها من الموضوعات التي تهم منطقة الشرق الأوسط، تجعلنا نتلمس الأهمية التي يكتسبها فهم هذه القضايا في إطار عام وشامل. ويعمل هذا التركيب المعقد وهذه التقلبات التي تميز بلدان الشرق الأوسط، التي بدأ سكان المنطقة يفهمونها بحدّة ويعون ظروفهم السياسية والبدائل الممكنة لها، أقول يعمل كل هذا على جعل فهمنا للقاعدة السياسية والاجتماعية والسيرورة الاقتصادية الراهنة أمراً حيوياً بالنسبة للمنطقة.

II - من الملاحظة الميدانية إلى الكتابة الأنثروبولوجية

إفلين ألين أورلي

الملحق الصحفي

بسفارة الولايات المتحدة بالرباط

يدور موضوع هذه الورقة حول الكيفية التي ينتقل بها الباحث من الملاحظة الميدانية إلى النظرية - الأنثروبولوجية، ومنهما إلى الكتابة أو إنتاج خطاب أنثروبولوجي. وقد استندت في رصد هذه العلاقة على الأبحاث التي قمت بها في كل من مصر ولبنان وسوريا. وسأقتصر هنا على الإحالة فقط على ما قمت به من دراسات حول الأحياء الشعبية بمصر، مع التذكير بأنه قد سبق لي قبل ذلك أن أنجزت دراسة حول هجرة الشيعة من جنوب لبنان إلى بيروت، وكذا دراسة حول الفنون الشعبية والثقافة الفولكلورية في سوريا⁽¹⁾.

وفي مصر قمت بدراسات حول الأنثروبولوجية الطبية والحياة اليومية في الأحياء الشعبية، حيث انصب اهتمامي بكيفية خاصة على دراسة مراكز رعاية الطفولة والأمومة والقيام بزيارة بعض الأسر في أماكن إقامتها قصد استجلاء مظاهر الحياة اليومية في هذه الأحياء (انظر بحث المؤلفة في المراجع (Early, 1992)).

أما عن الغاية التي توخيتها من هذه الأبحاث، فكانت محاولة مني لتوضيح وشرح ازدواجية التي يعيشها قطاع من المجتمع المصري يزواج فيها بين «الثقافة البلدية» و«الثقافة الإفرنجية». وأود هنا أن أنبه القارئ المغربي إلى أن استخدامي لهذين المصطلحين («بلدي» و«إفرنجي») ربما يختلف عما هو مأكوف في المغرب.

(1) أود أن أعبر عن تشكراتي وامتناني للدكتور ليكلمان على تعاليقه القيمة، كما أشكر الأخ محمد السبتي على مساهمته في الترجمة التي بينت فهمه العميق للمقالة.

فالمقابل للبلدي هو الشعبي، في حين أن مقابل الإفرنجي هو المعاصر وليس الأجنبي أو الأوربي كما قد يتبادر للذهن.

وما سأعمل عليه في هذه الورقة هو محاولة الإجابة عن سؤال رئيس يتعلق بالكيفية التي ينتقل بها الباحث من البحث الميداني إلى الكتابة وكذا الكيفية التي يستغل بها، في طريقة عمله، الوثائق والمصادر المكتوبة. وعلى الرغم من أننا نتحدث هنا عن مصادر يمكن نعتها بـ «المصادر التاريخية»، فإنه من الواضح أنني أنطلق من وجهة نظر أنثروبولوجية وليس من وجهة نظر تاريخية.

وأود أن أشير هنا إلى أن هناك ثلاث قضايا رئيسية أثارت اهتمامي في كيفية استعمال النصوص المكتوبة والرواية الشفوية، إلا أنني سأكتفي هنا بتلخيصها وتفصيل القضية الأولى منها، نظرا لضيق المجال المحدد لهذه الورقة.

1 - الانتقال من البحث الميداني إلى الكتابة

تتلخص القضية الأولى في «الانتقال من المعلومات الميدانية إلى ما يصطلح عليه في الكتابة الأنثروبولوجية بالسرد الشخصي (Personal Narrative)». وسأعود فيما بعد إلى الحديث عن تجربتي الشخصية في هذا الباب، حيث سأشير بكيفية خاصة إلى رحلتي الفكرية وكيفية انتقالي من الملاحظات الميدانية إلى تكوين أفكار «السرد الشخصي».

2 - أهمية المناهج في الأنثروبولوجية التطبيقية

وتتعلق القضية الثانية بأهمية المناهج الأنثروبولوجية في العلوم الاجتماعية التطبيقية وبصورة خاصة في الأنثروبولوجيا الطبية التطبيقية. وأود الإشارة هنا إلى أنه بعد إنهاء أبحاثي الميدانية الأولى في مصر التي انتهت بإعداد أطروحة قدمتها في جامعة شيكاغو لنيل درجة الدكتوراه، عدت إلى مصر مرات عديدة قصد المشاركة في أعمال فرق أبحاث متعددة الاختصاص. وكنت أقدم نفسي على أساس أنني مختصة في «الأنثروبولوجية الطبية التطبيقية» على الرغم من أن اختصاصي وانتائي النظري هو «الأنثروبولوجية الرمزية». وأثناء مشاركتي هاته، كنت أستعمل «الملاحظة بالمشاركة» (Participant Observation) قصد الوصول إلى نتائج تطبيقية، كما استعملت أحيانا «الطريقة الكيفية» في وضع الاستشارات التي كان يساهم فيها

اختصاصيون من ميادين أخرى كخطيطات الصحة والاقتصاد وغيرها. وهذه الأبحاث التي كنت أقوم بها شبيهة بالأبحاث التي كانت تجري في مشاريع تطبيقية أخرى مثل الزراعة التطبيقية وتخطيط المدن. ولإعطاء نموذج عما كنت أقوم به يمكن القول أنني عندما كنت أساهم في المشاريع الطبية، مثل مكافحة الإسهال عند الأطفال، كان من بين اهتماماتي البحث عن أحسن اسم يمكن أن يُعطى للدواء المستعمل في علاج الاجتفاف عند الأطفال. وفي هذا الصدد قمت بدراسة ثقافية للبحث عن أكثر الأسماء ملاءمةً ثقافياً للمعنيين بهذا الدواء. وقد طبقت في هذا البحث الخاص بالأنثروبولوجية التطبيقية نفس المنهج الذي سبق أن اتبعته في الأنثروبولوجية النظرية. وفي اعتقادي أن هذا يشكل جزءاً من عملية الانتقال من الملاحظة بالمشاركة إلى المفاهيم النظرية (انظر أبحاث المؤلفة المثبتة في المراجع (Early 1982, 1987)).

3 - انعكاسات المفاهيم الصحية في المجتمع

وأثناء إقامتي في مصر، كنت شديدة الاهتمام بالطب الجالينوسي والكيفية التي كان العطارون يستغلون بها هذا الصنف من الطب. وضمن اهتمامي هذا، اقتصت العديد من الكتيبات الصغيرة الخاصة بالموضوع والمتداولة على نطاق واسع (والتي تباع في الأكشاك)، مثل «شوف بختك واعرف ضميرك» و«تقاليد يجب أن تزول» و«الطب المنزلي»، ثم انكبت على قراءتها في محاولة لاستنباط مضمونها وتفسيره. كما انصب اهتمامي أيضاً على الممارسات الطبية للعطارين واستعمالهم للمصادر الطبية الجالينوسية.

وعلى الرغم من أن هذه الكتيبات متداولة أيضاً بين المثقفين، فإنها تعكس في جانب منها الظروف الاجتماعية والاقتصادية في فترة تاريخية معينة. فعلى سبيل المثال، لاحظت أن الكتيبات التي وضعت قبل ثورة 1952، ركزت بصورة أكبر على الإسلام والعلاجات المنزلية وبعض المواضيع التقليدية الأخرى، في حين أن الكتيبات (Kiosk Pamphlets) التي ألفت مباشرة بعد الثورة اهتمت بمواضيع ثقافية مرتبطة بالوطنية والاشتراكية كموضوعات الأخلاق والتصرفات المثالية: الأخ المصري والأخت المصرية وكيفية التصرف السليم للمواطن المصري المثالي، إلخ.

وحسب فوكو (Foucault 1980). فإن جسم الإنسان يمكن أن يصلح صورة مجازية للجسم السياسي. وإذا أخذنا بهذه الفكرة، فإن العناية بالجسم الإنساني تعكس أيضاً الانشغالات الاجتماعية والدينية. ومن ثمة، فإن تطورات المعرفة الكليتيكية لا تعكس التقدم العلمي فحسب، بل تعكس أيضاً المعايير الاجتماعية. وأنا أطلع بشوق للتعرف على ما تخفيه هذه الكتيبات بين طياتها من كنوز معرفة تخص هذا المجال.

4 - الاكتشافات الثقافية : «لن النص ولن الصوت»

ونعود الآن إلى القضية الأولى، أي كيفية الانتقال من المصادر الميدانية إلى النظريات ثم إلى عملية الإدراك. إذ في هذا الصدد كان اهتمامي منصباً على اكتشاف ما هو أساسي في المجتمع المدروس مثل النظم الاجتماعية والثقافية وما يدخل في حكمها من موضوعات وأيضاً البحث عن الرموز الاجتماعية (Social Symbols). أمّا ركيزة العمل هنا، فتلخص في ضرورة الانتقال من الموضوعات اليومية، أي المعلومات المستقاة عن طريق الملاحظة بالمشاركة والملاحظة الكيفية، إلى النظريات الكبرى الموضوعية عن البنيات الاجتماعية والرموز الثقافية. وأحيل في هذا الصدد إلى ما كتبه الباحث إيكلمان عن كيفية تطور فهم الثقافة ؛ وأذكر بكيفية خاصة بالتعريف الذي استعمله، وهو «الاقتصاد السياسي للمضمون الثقافي» (Political Economy of Meaning)⁽²⁾. وسأركز فيما يلي على الكيفية التي اتبعتها في استخلاص الموضوعات الثقافية من المعلومات الميدانية وكذا كيفية البحث عن هو صاحب «الصوت» ولن «النص» وماهية السياق الذي يدوران فيه. بدأ علماء اللسانيات ودارسو الفولكلور يولون مؤخراً أهمية زائدة للسياق

(2) المفكرون مثل Geertz وDurkheim معروفون في هذا المجال. ففي الفترة الأخيرة، لاحظنا اهتماماً بالرموز في «مجال الطقوس» (Ritual Context)، ومؤخراً ارتباط الرموز بال تجربة (Experience) (V. Turner, 1985 ; E. Turner, 1987). ويعتبر هذا الاهتمام تكميلاً لاهتمام دور الرموز في المجتمع — تاريخياً، واقتصادياً، وسياسياً. ويفسر الدكتور إيكلمان في كتبه (1985) ومقالاته هذه النظرية. وناقش بعض الزملاء من بينهم الدكتورة إيكلمان وبورقية والحراق وأعفيف في هذه الندوة مسألة استخدام الرموز وارتباطها بالطبقة المسيطرة وكذا قضية الهيمنة.

الاجتماعي للنص⁽³⁾. كما بدأ الأنثروبولوجيون يوسعون دائرة اهتمامهم لتشمل ما هو دينوي وأيضاً الطقوس المرتبطة بالديانات العليا. وفي توسع الاهتمامات هذا شرع الباحثون في مناقشة «الحكايات الشخصية» أو «السرد اليومي»، إذ من هذه المناقشات تم التوصل إلى أن هذه «الحكايات اليومية» تعكس الحقائق الذاتية والشخصية في الحياة اليومية. ومنها تم التوصل أيضاً إلى كيفية الانتقال من التفاصيل البسيطة المتجمعة عن طريق الملاحظة بالمشاركة وكذا من الأمور المسموعة والمكتوبة والملاحظة إلى النظريات. ويشمل هذا النقاش «من يتكلم» و«لن الصوت» و«من يستمع». كما أثير في النقاش قضية الكتابة الأنثروبولوجية وهل هي نقل لكلام الباحث الأنثروبولوجي أم نقل لكلام المبحوث فهم.

أما فيما يتعلق بأبحاثي عن المرأة المصرية، فإنه بعد إقامتي لمدة سنة في مصر شرعت في تسجيل بعض الملاحظات أطلقت عليها مصطلح «الحكايات اليومية». وهو ليس بالمصطلح الجديد ولا تعبير عن فكرة جديدة : فهو مستعمل منذ مدة في الدراسات الفولكلورية والدراسات اللغوية. كما أن علماء الأنثروبولوجيا بدأوا يهتمون أكثر فأكثر بموضوعات السياق وحدود الطقوس الدينية واليومية، ومن بين هؤلاء فيكتور تورنر (Victor turner)⁽⁴⁾.

وفي المدة الأخيرة ركزت الدراسات المتعلقة بالنساء المصريات بصورة خاصة على ما تقوله النساء أنفسهن وكيف يستمع لكامهن أو نستمع نحن له. وفي هذا السياق أذكر على سبيل المثال ملاحظة أندريا رو (Andrea Rugh) حول كتاب «الحلخلة» لنيرة عطية. ذلك أن هذا الكتاب حتى وإن لم يكن كتاباً موضوعاً

(3) من بين المنظرين الذين اهتموا بـ «السرد الشخصي» (Personal Narrative)، نذكر Briggs (1988)، Glasse (1982)، Labov & Waletzky (1966) و Robinson (1981).

(4) من بين المصادر التي تتناول أولاً الحياة اليومية، وبالتالي السياق في حدود الطقوس الرسمية وغير الرسمية «Formal & Informal Rituals»، نجد Bourdieu (1977) Clifford and Marcus (1986) Fischer and Abedi (1990)، و Turner (1985).

نجد هناك دراسات أنثروبولوجية تتناول العلاقة بين النصوص المتعددة في الحكايات الشعبية (Folklore tales)، والسرد الشخصي (Personal Narrative) والطقوس (Rituals) والتعبيرات الثقافية، على سبيل المثال دراسة Mills (1992) حول الحكايات الشعبية في أفغانستان Folktales of Afghanistan.

في الأنثروبولوجيا — الكتاب مجموعة حكايات ترويها نساء مصريات — فهو في نظر رو (Rugh) أحسن من الأنماط التحليلية المتداولة في الكتابة الأنثروبولوجية بما تحمله حكايات النسوة الواردة فيه من معلومات ثقافية وما تقدمه من قيم الأجناس وغيرها مما يمكن اعتباره ذخائر ثقافية (Atiya, 1982). وهذا ما تؤكد عليه وجهة نظر الباحثين في النظريات المتعلقة بالثقافة اليومية والممارسة الثقافية أمثال بيير بورديو (P. Bourdieu, 1977).

وخلاصة القول، فإنني اكتشفت من خلال البحث الميداني عن الثقافة الشعبية في مصر أنه يمكن فهم بعض القضايا مثل «الحسد» و«الخصوبة» من دراسة الحكايات اليومية. وأشار هنا إلى أي كتبت مقالات عن «الحكايات اليومية» بينت فيها وجود ازدواجية ثقافية واقتصادية واجتماعية تجمع بين «البلدي» و«الإفرنجي»، وأعطيت فيها تعريفاً للثقافتين البلدية والإفرنجية، ودفعني ذلك إلى التعرض إلى قضايا اعتبرها على قدر من الخطورة، من بينها مفهوم «الغلاية» (الغلاية في المفهوم الشعبي المصري هم الأشخاص الذين لا يملكون شيئاً وليس لهم عمل).

وختاماً، حاولت في هذه الورقة أن أوضح الطريقة التي اتبعتها في تقديم صوت النساء المصريات في إطاره الطبيعي. كما حاولت أن أبين أهمية المصادر الثقافية الأخرى (على سبيل المثال : الرموز الثقافية) في فهم عملية الانتقال من البحث الميداني إلى الكتابة والإدراك، وبالتالي فهم ماهية الحياة اليومية.

المراجع

- Attiya, Nayra, 1982, *Khul-Khaal: Five Egyptian Women Tell Their Stories*, Syracuse: Syracuse University Press. Introduction by Andrea Rugh, pp ii - xx.
- Bourdieu, Pierre, 1977, *Outline of a Theory of Practice*,. Cambridge Univ. Press.
- Briggs, Chuck, 1988, *Competence in Performance : The Creativity of Tradition in Mexican Verbal Art*, Univ of Pennsylvania.
- Clifford, James and George E. Marcus, 1986, *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography*, Berkeley: Univ. of California Press.
- Early, Evelyn A, 1982, «The Logic of Well Being: Therapeutic Narratives in Cairo, Egypt», *Social Science and Medicine*, 16: 1491-1497.
- 1987, «Catharsis and Creation: The Everyday Narratives of Baladi Women of Cairo», *Anthropological Quarterly*, 172-180.
- 1992, *Playing with an Egg and a stone: Baladi women of Cairo, Egypt*, Boulder: Lynne Reinner Press.
- Eickelman, Dale F, 1985, *Knowledge and Power in Morocco*, Princeton: Princeton univ. Press.
- Fischer, Michael M.J. and Mahdi Abedi, 1990, *Debating Muslims: Cultural Dialogues in Postmodernity and Tradition*, Madison: Univ. of Wisconsin Press.
- Foucault, Michel, 1980, *Power/ Knowledge*, Ed. Colin Gordon. New York: Pantheon Books.
- Glassie, Henry, 1982, *Passing the Time in Ballymenone: Culture and History of an Ulster Community*, Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press.
- Labov, William and Joshua Waletzky, 1966, «Narrative Analysis: Oral Versions of Personal Experience», *Essays on the Verbal and Visual Acts* (AES 1966 proceedings), Univ. of Washington Press, pp. 12-44.
- Mills, Margaret, 1991, *Rhetorics and Politics in Afghan Traditional Storytelling*, Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press.
- Robinson, John A, 1981, «Personal Narratives Reconsidered», *Journal of American Folklore*, 94: 371, 58-85.
- Turner, Edith, 1987, *The Spirit and the Drum: A Memory of Africa*, Tuscon: Univ. of Arizona Press.
- Turner, Victor, 1985, *On the Edge of the Bush: Anthropology as Experience*, Tucson: Univ. of Arizona Press.

III - المغرب في الكتابة الأنثروبولوجية

محمد أعيف

كلية الآداب — الرباط

موضوع هذه المداخلة يتلخص في سؤال رئيسي نجيح عنه ضمن أسئلة وأجوبة فرعية. والسؤال هو : لماذا احتل المغرب هذه المكانة الخاصة في الكتابة الأنثروبولوجية ؟ قد يبدو السؤال متجاوزاً معرفياً، حيث أن المعرفة الأنثروبولوجية ذاتها تجاوزت، منذ زمن، الاختصاص في المجتمعات الصغيرة (Small-scale societies)، حتى لا نستعمل، كما استعمل رواد الأنثروبولوجيا، مصطلح المجتمعات البدائية أو البسيطة، ووسعت مجالها المعرفي ليشمل المجتمعات المركبة والحضارات المتطورة. لكن ما نرمي إليه من وراء هذا السؤال هو إيجاد هيكل نظري فيه عدداً من الأسئلة الفرعية نجعلها محوراً للإجابة.

هذه الأسئلة الفرعية ألخصها في ثلاث قضايا : مشروعية الخطاب الأنثروبولوجي؛ الذات والآخر («الذات والآخر» أستعملها هنا في اتجاهين متقابلين، أي ما تعنيانه للأنثروبولوجي عندما نكون نحن هم الآخر، وما تعنيه لنا عندما يكون الآخر هو الغرب أو الأنثروبولوجي الذي يمثله)؛ والقضية الأخيرة : المعرفة الأنثروبولوجية ونحن.

مشروعية الخطاب الأنثروبولوجي

يدل مصطلح الأنثروبولوجيا على أن هذه المعرفة تختص في دراسة الإنسان، وهي بهذا التحديد العام تعني الإنسان في مختلف أشكال ارتقائه وتطوره وانتظامه في مختلف المستويات (من المستوى السلالي الفيزيولوجي إلى القرابي والاقتصادي والسياسي والرمزي والأسطوري والعقائدي والديني). يتضح من هذا أن الأنثروبولوجيا مشروع طموح للتعرف على الإنسان. وفعلاً أبانت الأنثروبولوجيا

في تطورها المعرفي عن ديناميكية وقدرة على التفاعل مع محيطها الأكاديمي والسياسي. ففي تفاعلها في المجال الأكاديمي، انتقلت من البحث عن الغرابة وتسجيل أحوال الأقوام البدائية والإيمان برسالة التنوير، على غرار رسالة التبشير، إلى معرفة مؤسسة أكاديمية لها نظرياتها ومنظورها وأدواتها المعرفية الخاصة، حيث قطعت أشواطاً في هذا الباب من مجرد تابع يعيش في أحضان علم الاجتماع إلى تخصص معرفي يتمتع بمشروعية الاستقلال الأكاديمي. وفي تفاعلها مع المحيط السياسي، تخلصت الأنثروبولوجيا من وصمة الارتباط بالمد الاستعماري، واحتضان المستعمر لها، إلى معرفة تحقق استقلالها، على غرار الدول المستعمرة التي كانت موضوعاً لها، بل وأحياناً ناهضت الاستعمار حتى قبل نهايته.

وإذا نحن أخذنا الأنثروبولوجيا من منحى هذا المشروع الإنساني النبيل، الذي يهدف إلى الكشف عن حقيقة الإنسان وتفاعله مع بيئته، بابتداع أدوات معرفة تسهل التعرف عليه، فإنه لا يسعنا إلا الاعتراف بمشروعية الخطاب الأنثروبولوجي. وأنداك لا يبقى لنا اعتراض في إدخال المغرب أو العالمين العربي والإسلامي، ضمن المناطق التي تهتم بها الأنثروبولوجيا، حتى وإن كان هناك من يعترض بأن في هذا الإدخال أو الإقحام ممارسة استشراقية مغلفة بثوب جديد، وفيه تكريس واعتراف بالتخلف الحضاري لهذه المنطقة التي كانت يوماً ما مركزاً حضارياً عالمياً. وفي اعتقادنا أن هذا الاعتراض مشروع وله ما يبرره إن نحن عاملنا النتائج المعرفية الأنثروبولوجية برمتها معاملة واحدة ولم نميز بين مستوياته ومنتجه. وهذا ما نريد التنبيه إليه، ذلك أن الخطاب الأنثروبولوجي ليس خطاباً واحداً بل هو خطابات لا يسع المجال هنا للتعرف عليها.

وخلاصة لهذه النقطة، نقول بأننا نعتز بمشروعية الخطاب الأنثروبولوجي، لكن شريطة أن يلتزم هذا الخطاب باحترام الآخر وأن يتخلى عن أحكام القيمة الصادرة من موقع الاستعلاء والانتفاء لحضارة تهيمن سياسياً اليوم على العالم. وهذا هو موضوع القضية الثانية، أي الذات والآخر. وأستحضر هنا كيف كان استغرابي عندما اكتشفت أن أوروبا الغربية من بين المناطق التي تدخل في البحث الأنثروبولوجي الياباني. ولعل ما يمارسه بعض الأنثروبولوجيين الغربيين اليوم على المغرب وغيره سيمارسه عليهم اليابانيون غداً بحكم تفوق موقعهم.

الذات والآخر

يثير موضوع الآخر في المجال الأكاديمي الأمريكي على الخصوص جدلاً حاداً بين الأنثروبولوجيين، تناقش فيه جملة من الأسئلة نكفي بتأذج منها : من هو الآخر ؟ كيف نفهم الآخر ؟ الصدام مع الآخر ؟ كيفية التعامل مع الآخر في البحث الميداني ؟ هل حقاً فهمنا الآخر ؟ إلى حد اشتقاق أفعال وصور من Other, othering. لا نريد أن ننقل مجريات هذا النقاش، حتى وإن كنا نشمن أهمية التعرف عليه، لكننا نقول بأن هذا الجدل يدل على وجود أعراض صحية في الفكر الأنثروبولوجي تتم عن ديناميكية هذا الحقل المعرفي. وفي المقابل سنبدى ملاحظتين تخصّصاً بصفتنا نحن ذلك الآخر الذي يناقشه من نعتبره نحن هو الآخر. الملاحظة الأولى، وأعتبرها ملاحظة سلبية، تتعلق بعلاقة الهيمنة التي لم يتخلص منها الخطاب الأنثروبولوجي قديمه وحديثه في تعامله مع الآخر. فالأنثروبولوجي في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ينتمي، أحب أم كره، إلى دولة مستعمرة، سواء أكان استعمارها مباشراً أم غير مباشر. ومن هنا تنتج علاقة الهيمنة، التي حتى وإن تخلص منها الباحث الأنثروبولوجي بحكم قناعاته الفكرية والسياسية، فإن المبحوث فيه كان يرى دائماً في الباحث ذلك الشخص الأوربي الذي لا يمكن تمييزه عن الحاكم أو المعمر. وبعد أن استقلت دول العالم الثالث — التي كانت وما تزال تشكل مناطق البحث الأنثروبولوجي — بقيت علاقة الهيمنة موجودة بحكم أن الأنثروبولوجي هو ذلك الشخص الأمريكي أو البريطاني أو الفرنسي الذي ينتمي لحضارة الغرب المهيمنة سياسياً واقتصادياً وثقافياً. نخلص إلى أن علاقة الهيمنة موجودة وأنه من الصعب التخلص منها في الوقت الراهن على الخصوص، حتى وإن رغب أحد الآخرين في التخلص منها (وأعني هنا على الخصوص الأنثروبولوجي).

الملاحظة الثانية، وأعتبرها إيجابية، وتتمثل في التطور المعرفي الهائل الذي حققته الأنثروبولوجيا في التعرف على الآخر. وأعني هنا التطور النظري وتطور أدوات المعرفة وابتداع المفاهيم المجردة وتنوع أساليب الكتابة والبحث عن طرق جديدة في نقل الملاحظة وغير ذلك كثير. وفي اعتقادنا أن تطوير المعرفة بالآخر لم تقتصر انعكاساته في تطوير معرفة الآخر، بل يمكن أن تساهم أيضاً في أن يعرف هذا

الآخر نفسه ذاته ومجتمعته وبنياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهذا ما نعتبره إيجابياً في الخطاب الأنثروبولوجي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهو ما سنحاول توضيحه في القضية الثالثة، الاستفادة من المعرفة الأنثروبولوجية.

المعرفة الأنثروبولوجية ونحن

كان المغرب منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم محط اهتمام زائد في الكتابة الإثنوغرافية والأنثروبولوجية وموضوعاً يحتل الصدارة فيها. فبعد الفرنسيين والإسبان والإنجليز والأمريكيين، نرى اليوم أفواجاً جديدة من اليابانيين والبرتغاليين وربما الصينيين والكوريين في وقت قريب. فما هو سبب هذا الاهتمام ؟ هناك أسباب عدة لا نريد الخوض فيها، ولكن نكتفي ببعض الأسباب الموضوعية والسياسية، مثل حفاظ المغرب على بنية قبلية متماسكة إلى وقت قريب، وعدم تحرز المغرب في استقبال الباحثين من الغرب، كما تفعل بعض الدول الأخرى. لكن ما يهمنا نحن كباحثين أننا أمام كم زاخر من الدراسات تمسنا بصورة مباشرة. فكيف نتعامل معها ؟ وكيف نوظفها لصالحنا ؟

أعريت سلفاً أن الموقف السلبي الرافض، مرفوض وخاطيء، بحكم أن هذه الدراسات هي التي من خلالها يعرفنا الآخر، ومنها يتحدد في كثير من الأحيان التعامل معنا من طرف المؤسسات الدولية الاقتصادية والسياسية وغيرها، بحكم أنها مكتوبة بلغة متداولة على صعيد عالمي (خاصة الإنجليزية).

وفي كيفية تعاملنا مع الكتابة الأنثروبولوجية والاستفادة منها سنبدئ بحملة من الاقتراحات دون التفصيل فيها :

أولاً : يجب قراءة هذا المكتوب ودراسته بكل عناية.

ثانياً : يجب الفصل في مستويات الخطاب الأنثروبولوجي وخلفياته.

ثالثاً : يجب توظيف النظريات الأنثروبولوجية وأدواتها المعرفية في مختلف ميادين المعرفة التي تهتم بدراسة المجتمع المغربي.

رابعاً : تعميم ما نعتبره جيداً في هذه الكتابة عن طريق الترجمة.

وأود أن أشير إلى أن هذه الكتابة تحوي الكثير من الجيد الذي يمكن أن يفيدنا

في التعرف على ذواتنا ؛ كما أشير إلى أن الباحثين المغاربة انفتحوا على هذه الكتابة ووظفوها فعلاً في نتائجهم المعرفي سواء في التاريخ أم في علم الاجتماع. وأخيرا كان بودي أن أتحدث عن تجربتي الخاصة في ترجمة كتاب ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب. لكن سأبدي ملاحظة واحدة أعتبرها تغني عن الكثير من غيرها، وهي أن هذا الكتاب في صيغته العربية يقبل على قراءته عدد ممن لا صلة لهم بالتاريخ أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا، ولكن يقرأونه لأنهم يودون التعرف على صورتهم عند الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أدوار ضابط الاستعلامات أثناء الحماية في المغرب

تقديم وترجمة : إبراهيم بو طالب

كلية الآداب — الرباط

يعرض هذا النص الذي تقدم ترجمته فيما يلي، لمتخلف جوانب سياسة الحماية، وهو في الأصل محاضرة ألقاها الكولونيل هانري بيريو (Henri Berriau) في شهر ماي سنة 1918 في فوج الضباط المرشحين للعمل في مصلحة الاستعلامات التي كان هو رئيسها آنذاك، وقامت مصالح النشر التابعة للإقامة العامة بطبعها وإصدارها من توها في كراس لا يتجاوز ثلاثا وعشرين صفحة، ولما بات الوقوف على هذا الكراس أمرا عزيزا، رأينا من المفيد إعادة نشره منقولاً إلى العربية لانتارة الانتباه إلى معاني الحماية إجمالاً، وإلى أدوار ضباط الاستعلامات الذين سيطلق عليهم فيما بعد عبارة «ضباط الشؤون الأهلية» بصفة عامة، وإلى دور الكولونيل بيريو بصفة أخص في السنوات الأولى من الحماية.

فمن هو الكولونيل بيريو باديء ذي بدء ؟ ولد هانري بيريو⁽¹⁾ سنة 1870 واختار وظيفة الجندي فتخرج من مدرسة سان سير العسكرية سنة 1894 وانخرط في هيئة ضباط الشؤون الأهلية في الجزائر سنة 1898 فكان حاكماً على القليعة وغرداية، ثم عين في عين الصفراء فالتقى بليوطي (Lyautey) عندما عين لبيوطي حاكماً على تلك المنطقة سنة 1903 وما لبث أن أضحي من أقرب مساعديه، وبعد قصف فجيج سنة 1904 كان بيريو هو المفوض الفرنسي فيها ثم لما وقع الهجوم على الدار البيضاء والشاوية قاد فرقة من «الكُوم» أثناء عمليات سنة 1907

(1) انظر : Peyronnet, Le livre d'or des Officiers des Affaires indigènes 1830-1930, Alger, 1930, 2 vol.

وعاد إلى عين الصفراء في السنة الموالية ومنها قاد حملة «تطهير» في وادي الساور، وفي سنة 1910 قاد حملة على بني چيل، وفي سنة 1911 كتب تقريراً يقترح فيه احتلال تافيلالت بصفة كونها بؤرة المقاومة المغربية، وهكذا كان بيريو قد اكتسب خبرة واسعة عن شؤون المغرب عندما عينه ليوطي رئيساً لديوانه السياسي سنة 1913، مما أهله ليصبح مديراً لمصلحة الاستعلامات سنة 1915 فاضحي «قطب الرحي الذي كانت تدور عليه سياسة الحماية» كما قال عنه بعض من ترجم حياته، وكان قد تسلق الرتب العسكرية وبلغ رتبة كولونيل سنة 1917، وتوفي فجأة في نهاية 1918 من جراء عدوى «النزلة الاسبانية»، وأبى ليوطي إلا أن يحضر مراسيم دفنه وراثه بكلمة قال عنه فيها بأنه «ربما كان أدهى المتصرفين بالسياسة الاسلامية»⁽²⁾.

أما هيئة ضباط الاستعلامات (أو ضباط الشؤون الأهلية فيما بعد)، فلقد درسها الأستاذ دانيال ريفي Daniel Rivet في أطروحته⁽³⁾ بما فيه الكفاية من حيث الدقة والشمول (انظر على الخصوص الصفحات 45 إلى 57 من الجزء الثاني) ولذلك نكتفي هاهنا بالذكر بأن تلك الهيئة كانت مقتبسة من مثيلتها المجربتين في الجزائر وتونس وأن أولئك الضباط كانوا هم أصحاب السلطة المطلقة في المناطق التي كانت خاضعة للأعراف العسكرية، (وهي حالة الطواريء) وكانت تلك المناطق تغطي أكبر قسم من التراب المغربي، ولذلك قال عنهم الأستاذ ريفي إنهم كانوا نموذج ضباط الاستعمار، فإنهم ظلوا يمارسون السلطتين المدنية والعسكرية طيلة الحماية مما لم يتوفر مثله إلا لمن كان عسكرياً من المقيمين العامين أو لرؤساء النواحي العسكرية، وكانت تلك الازدواجية في أدنى مستويات إدارة الحماية أوضح تشخيص لدى سلطان الاستعمار إذ كان أولئك الضباط تابعين للمخزن المغربي من جهة وظائفهم المدنية وكانوا غير مسؤولين لديه وخاضعين لقيادة الجيش الفرنسي العليا من جهة وظائفهم العسكرية.

(2) ليوطي Paroles d'action, Paris, Colin, 1927, p. 273

(3) دانيال ريفي Lyautey et l'Institution du Protectorat au Maroc, Paris, L'Harmattan, 1988, 3 vol.

النص المغرب :

كان على جميع القوى الاستعمارية الكبرى، وبالأخص إنجلترا وهولندا⁽⁴⁾ وفرنسا، أن تعنى باكرا بتقليد هيئات خاصة بادارة شؤون الأهالي ومراقبتهم. وذلك لأن شؤون المستعمرة لا تدار مثلما تدار شؤون المقاطعة الفرنسية كما لا يليق موظفو الميتروبول⁽⁵⁾ بالبلدان التي تختلف فيها اللغة والأعراف والعادات والحياة الاجتماعية والدين غاية الاختلاف عما هي عليه لدينا.

وفيما يتعلق بالجمال الاستعماري الفرنسي، فإن تلك الوظائف أسندت لحيأة خاصة من رجال الإدارة والمراقبين ممن يكون انتقاؤهم عن طريق المباراة ليكونوا حاصلين، إضافة إلى ثقافة عامة تتسع لأكثر ما يمكن من وجوه المعرفة، على معلومات تؤهلهم لتدبير شؤون الأهالي في مستعمراتنا.

لكن قبل إدارة المستعمرة، لابد من فتحها وتوطيد الأمن⁽⁶⁾ فيها وتوطين ساكنتها من الأهالي على الاستسلام. وأثناء تلك الفترة كلها من الفتح وتوطيد الأمن، حيث لا يدخل في الحسبان إلا العنصر العسكري، فإن العلاقات مع الأهالي لا يمكن أن تقام إلا بواسطة ضباط الجيش. ولذلك لا مناص من احداث هيئة متخصصة في تلك الوظائف.

ولقد أدرك المارشال بوجو⁽⁷⁾ (Bugeaud) تلك الضرورة منذ بداية فتح

(4) من المعلوم أن الاستعمار الفرنسي اقتبس فكرة الحماية إجمالاً من التجارب الاستعمارية الإنجليزية والهولندية.

(5) أفضل الاحتفاظ بهذا المصطلح اليوناني الاشتقاق على كل ترجمة عربية تمس بمعانيه التاريخية.

(6) تترجم الكتابات المعاصرة كلمة Pacification بكلمة التهدئة، وذلك في رأيي غير صائب لا من حيث اللغة ولا من حيث حرمة الكرونولوجيا، والأجدى أن نلتزم بالمعابر التي استعملت في تلك الفترة على لسان كتاب المخزن أو في نشرات العصر مثل كلمة التهيد أو توطيد الأمن.

(7) طوماس بوجو (Th. Bugeaud) 1784 — 1849، ضابط فرنسي من كبار بناء الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية وأبرز النظريين لقواعدها وأساليب اثباتها قولاً وفعلًا فهو الذي فتح الجزائر لدى ولايته عليها من 1839 إلى 1847، حيث تغلب على مقاومة الأمير عبد القادر وهزم الجيش المغربي الذي هرع إلى نصرة المقاومين الجزائريين في معركة ايسلي (غشت 1844).

الجزائر، فأنشأ «البيروات العربية»⁽⁸⁾ التي تحولت فيما بعد إلى «مصلحة الشؤون الأهلية».

وهذا الجهاز هو الذي أطلق عليه عبارة «مصلحة الاستعلامات»⁽⁹⁾ في تونس والمغرب.

ولقد أقيم نظام مصلحة الاستعلامات في المغرب على القواعد التالية : ففي الرباط إدارة للشؤون الأهلية ومصلحة الاستعلامات وظيفتهما الأعداد السياسي لبرنامج العمليات العسكرية، والمساهمة في دراسة المسائل الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالأهالي، وتوجيه السياسة الأهلية، وجمع القضايا الإدارية للمناطق الواقعة تحت قيادتهما في قبضة واحدة.

وبعاصمة كل ناحية يوجد مكتب للاستعلامات يدعى «الناحية» وهو في الحقيقة بمثابة أركان حرب يتصرف بها مباشرة قائد الناحية العسكري. وتنقسم الناحية نفسها إلى عدد من الأقسام تسمى دوائر أو ملحقات أو مراكز وتكون المراقبة السياسية والإدارية جارية بواسطة «مكتب» ولضابط الاستعلامات ثلاث مهام، مهمة عسكرية ومهمة سياسية ومهمة إدارية. ولكي نصف هذا الضابط بأكثر ما يمكن من الدقة، علينا أن نقف على مهامه في مختلف مراحل الفتح. فلننظر إليه وهو في بعض المراكز الأمامية وقد انسحب الفيلق المتنقل⁽¹⁰⁾ وترك ذلك

(8) البيروات العربية أُنشئت أول الأمر في الجزائر على يد الجنرال بوجو بقصد التصرف في شؤون الجماهير الجزائرية، ثم انتقلت إلى باقي أقطار الشمال الإفريقي المحتل إما تحت هذه العبارة وإما تحت عبارة الشؤون الأهلية.

(9) ظل التقسيم الإداري خاصضا لأعمال التمهيد وحالة الطوارئ إلى أن عزل ليوطي وحل محله مقيم عام مدني فبات من اللازم إسناد القيادة العسكرية لضابط سام، فصدر بذلك قرار من رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ 3 أكتوبر 1926 وهو أول نص قانوني قضى بتقسيم المغرب المحتل إلى نواحي مدنية وأخرى عسكرية تنقسم بدورها إلى أقاليم ثم إلى دوائر ثم إلى ملحقات، يراجع في هذا الصدد لكتاب :

Frédéric Brémard; L'organisation régionale au Maroc, Paris, L.G.D.J., 1949.

(10) التزمت هنا أيضا بالعبارة العربية التي ترجمت بها في عهد الحماية تلك الفرق العسكرية المكلفة بتمهيد جهة من الجهات وكانت بمثابة جيش مصغر يضم جميع أنواع السلاح إضافة إلى أدوات النقل والتجوين والعلاج وكان عدد الجنود فيه يتراوح بين 6000 إلى 7000 بين نظامي وغير نظامي.

المركز الجديد في حالة دفاعية. مع حاميته ومصالحه الإدارية، فيكون ضابط الاستعلامات منعزلاً مع الترجمان وبعض المساعدين من الأهالي وفرقة القوم⁽¹¹⁾ وأخرى من المخازنية⁽¹²⁾ أو من المشايعين⁽¹³⁾.

ولقد أمده قائد الناحية ببعض التعليمات ليسترشد بها في عمله واطلعه على كل المعلومات الجغرافية والسياسية المتوفرة حتى ذلك اليوم، ومنحه بعض المال تيسيراً لعلاقاته الأولى بالأهالي وتمكيناً له من القيام بمهمته على الوجه المرضي، ثم انسحب. فما هي إذن تلك المهمة وماذا على ضابط الاستعلامات هذا أن يفعل لانجازها ؟ فإنه يجتهد بادئ ذي بدء في ارساء ما حصل من النتائج وما تم من الاستسلام الذي مازال يشوبه كثير من التردد، وأنه يشرع لتوه في دراسة المنطقة غير المستسلمة من جهة خطوطها الأمامية لمجهد للقفرة الموالية في الحدود التي يرسمها قائد الناحية.

وفي هذا الخضم من المسائل المستعجلة الجديدة التي لا بد من حلها، يتصرف ضابط الاستعلامات بكثير من المنهجية، فلا مناص قبل كل شيء من طواف أولي ليقف على أهمية مملكته⁽¹⁴⁾ الجديدة وعلى أحوالها وليتعرف عليها ويتصل بشخصيا بالفرق المستسلمة ويحصبها ويضع جرداً لها ويضبطها مونوغرافياً وتكون بعض الشخصيات وسط تلك الفرق قد حاولت إثارة الانتباه إليها، فعلى ضابط الاستعلامات أن يترقبها ويقف على حقيقة ما لها من النفوذ وعلى ما تحتل من المكانة في القبيلة ليقدر مدى ما يتأتى من استعمالها بعد أيام قليلة في تنظيم القيادة الأهلية وفي ما سيشرع فيه من العمل السياسي في المناطق الأمامية.

(11) كلمة أصيلة التركيب العربي تبنها القاموس العسكري الفرنسي بعقد القاف وإهمال الواو فانتشرت بانتشار الجيوش الفرنسية ومعناها في الأصل جيّاشة القبائل ممن كان يحاون جيوش الاحتلال طوعاً أو كرهاً.

(12) جمع غزني وهم أصلاً صغار مسخري الخزن، تبنها القاموس العسكري الفرنسي في المغرب للدلالة على حراس الإدارة وأعوان الجيش في عملياته.

(13) أو «أتباع الخزن» فهكذا كان ينعت المجندون من أبناء القبائل المستسلمة ممن كان يقبل الوقوف إلى جانب الجيوش الغازية مكرهين أو عن طيب خاطر.

(14) استعمال مجازي يفيد وزن السيطرة الاستعمارية في أدنى مستوياتها.

وبعد اتمام هذا الجرد، عليه أن يحاول وضع كل امرئ في مكانه وأن يقيم القيادة على قاعدتها وأن يلتقيها واجباتها ويذهبها ويجبطها بهالتها ويؤازر سلطتها ليعوض ما كانت عليه القبيلة سابقا من الفوضى وسوء النظام نوعا ما⁽¹⁵⁾ بوضع قائم على النظام والسلطة. وهذا أمر جوهري لأنه لو لم يكن لديكم مساعدون مباشرين ووسطاء بينكم وبين ساكنة أهلية مازالت مرتجة مندفة مرتابة وجملة، من أولائك الرؤساء الطبيعيين، وقد سهرتم على نشر نفوذهم وتعزيز سلطتهم، فإنكم ستجدون أنفسكم عاجزين أمام ما ينبغي انجازه أو اصلاحه من ذلك العبء، وسط خلط من الفريقات المبعثرة مما لا قانون لها ولا مولى والعاملة بما يطيب لها ولحظ حسابها، لكن من البديهي في ذات الوقت أن ضابط الاستعلامات سوف يكثر من الاتصالات الشخصية مع السكان أنفسهم، وسوف يستقصيهم عن حاجياتهم وعن أحقادهم وتحولاتهم، وعليه أن يعيد الثقة إليهم وأن يسمع شكواهم، فإن هذا البحث الحثيث يكون أرضية لمراقبة رؤساء الأهالي ودلالة في ذات الوقت على الوجهة التي ينبغي العمل في اتجاهها لمنع تلك الساكنة مزيدا من الأمن وحسن العيش والسعادة، وذلك لأن غاية ما يرمي إليه من هذه الأعمال الأولى من التأسيس يهدف إلى انشاء القبائل أو هام فضائل استقلالها السابق وحملها على استحسان رفاهيتها الحاضرة لئلا تعود فكرة الفرار إلى جهة العصيان التي كثيرا ما تخامر رؤوس أولائك الصبيان المحمقين⁽¹⁶⁾، تحظر بياهم إلا وينبلونها في الحين.

ولهذه الغاية يكون عمل ضابط الاستعلامات في البداية على الخصوص قائما على التلطف والمرونة وعليه أن يحتسب للأوضاع الاجتماعية السابقة وللتقاليد والمعاملات والأعراف والعادات حسابها، وعليه أن يجتنب كل افراط في التبع والتدقيق، ولا ينبغي أن يبدو فاتحا بقدر ما ينبغي أن يبدو مستشارا ومحسنا يود أن يجتذب القلوب بعد أن فرض قوته، شأنه في ذلك شأن الأخ الأكبر المجيد

(15) من أبسط أدوات التشجيع المفروض الجهر بالتناقضات التي لا يخلو منها إنسان ولا مجتمع والسكوت على توازناتهما التي لولاها لما وُجِدنا في الحياة.

(16) نكرة الاستعلاء والأبوية الاستعمارية قلما تخلو منها كتبهم.

الحكيم والوصي العطوف الحازم الذي يشغله اخفاء مساوئ وصايته لابرار مزايها.

وشيثا فشيئا، تتضايق صغار الفرق المستعصية من مقامها لدى جيرانها، فيتصل بها عملاؤنا السياسيون، وتبلغها أصداء طيبة عن مراقبتنا، فتلتحق بنا، فتفرض عليها غرامة صغيرة عقابا لها على تباطؤها وضمنانا للمستقبل، بضعة ريالات لكل خيمة، أو أقل ما يمكن، مع بعض الأسلحة، ثم يعود أولئك الشاردون إلى مكانهم من القبيلة.

أما إذا كانت شروط الأمان أكثر من أن تطاق، فإنها تكون مدعاة للجوء إلى العصيان، وتحدث من الأحقاد والضغائن ما يستوجب إخماده عدة سنوات.

المبدأ إذن أن لا داعي للذعائر الحربية المجحفة ولا لمصادرة الأراضي، لأن ذاك العصبي الذي يعترف بانزاهه ويحيى لتسليم سلاحه ويكف عن القتال لم يأت بمنكر على كل حال، إنه دافع عن أرضه واستقلاله، ولا يلزمنا أن نواخذه بذلك. لكن من البديهي أن الأمر يختلف في معاملة الذين استسلموا من العصاة مرة أولى ثم نكثوا العهد، وهربوا وشهروا السلاح من جديد.

وهكذا يكون الراعي قد جمع قطيعه وبعث فيه الاطمئنان من جديد، لكن عمله لم ينته بعد، إذ يبقى عليه أن يُعَدَّ في الحين للقفز إلى الأمام وأن يمهّد لما سيكون من العمل العسكري في الأيام الموالية، ساعيا كلما تأتى ذلك، في أن يكون الأمر وكأنه تحرك سلمي يثبت ويتوج مجهودات الاجتذاب السياسي التي يكون قد قام بها. وكيف يتصرف في ذلك؟ فانه أمام ميدان يكاد لا يعرف عنه شيئا وساكنة مستقلة يكاد يجهل عنها كل شيء، والتي تتلقى النصائح السبقة ويغذي عداؤها أقطاب الشغب⁽¹⁷⁾ في القبيلة ومن اعتصم لديها من العصاة، فإنه يجمع المعلومات الجغرافية والطوبوغرافية، ويتأكد من صحتها ويتممها من خلال أكثر ما يمكن من الجولات الريادية التي يقودها بنفسه مع فرقه من القوم والمشايين بحمطة وحذر، ساهرا على توسيع دائرة الجولات شيئا فشيئا. ويشرع في ذات

(17) نموذج البهتان الاستعماري إذ كيف يكون المدافع عن أرضه مشاغا ؟

الوقت في الدراسة الاثنوغرافية⁽¹⁸⁾ والاثنولوجية والسياسية للقبائل المراد اجتذابها، ويث في الحسائف والمواقفات التي تفرق بينها وتجمع، وفي أشكال التكتل السياسي التي تنوزع إليها، وفي الأقسام واللفوف والصفوف، والتأثيرات الدينية التي تعمل فيها، والرباطات، والزوايا، والطرق الدينية، والشخصيات التي تطفو على الجمهور، وتعلو أصواتها في مناقشات الجماعات، وحالما يكون قد تقدم شيفا ما في جرده، فإنه يحاول استغلال ما حصل عليه من المعلومات فيربط وشائج الاتصال مع بعض جيرانه ويتجه أول الأمر إلى الرؤساء المعترف لهم بالرئاسة ويثير فهم الأطماع ويشدهم إلى شخصه بالمصلحة أو الطموح أو المال⁽¹⁹⁾ ويقدر مدى ما لهم من الأتباع ويزرع أسباب الانقسام بشأن الأغراض والمصالح بين صفوف الفرق التي يريد اخضاعها ويبدد المقاومات ويفصل بينها.

وانه لن يستطيع في غالب الأحيان اقرار القبيلة بكاملها على الاستسلام، لكن بوسعه أن يحدث الشقاق في الكتلة المعادية، وبوسعه أن يرهق لإرادة المقاومة فيها ويمهد بذلك للعمل العسكري الموالي بشكل ملموس.

ويبقى على ضابطنا في الاستعلامات تلميها لعله أن يقف على مختلف المسالك التي قد يسلكها الفيلق المتنقل حالما يقدم على تنفيذ أعماله التمهيدية وعلى تحديد البقعة المرتقبة للمركز في المستقبل، وبديهي أن اختيار تلك البقعة مشروط أول الأمر بالاعتبارات العسكرية، على أن المركز يكون في آن واحد مستندا للفيلق المتنقل ومركز اشعاع سياسي، ولا تتوفر في تلك البقعة المعطيات المناسبة لحسن الدفاع وحسب، بحيث يسمح فيها النظر وتكون منافذها سهلة، بل ينبغي أن يكون لها مساس بالمصالح الجوهرية للقبيلة وأن يرتبط بها مفتاح الناحية فتكون في قلب منطقة ضرورية للحياة الاقتصادية للقبيلة⁽²⁰⁾. وحالما ينتهي كل هذا العمل

(18) من كلمتين يونانيتين، الأولى «اثنوس» : شعب أو قبيلة، والثانية «كرافين» : الرسم أو الوصف، ومعلوم ما كان في توظيف العلوم الاجتماعية من الفوائد للتمهيد للاستعمار ولترسيخ نفوذه.

(19) سلاح المال لم يكن أقل فتكا بالسيادة المغربية من السلاح الناري.

(20) هنا مجال جدلير بأن يفرد ببحث خاص يبرز مدى تأثير الاختيارات الاستراتيجية الاستعمارية على شبكة المدن والقرى المغربية في عهد الحماية.

وعندما يشعر ضابط الاستعلامات أن مجهوداته السياسية لن تؤدي إلى المزيد من النتائج المفيدة، فإنه يخطر القيادة العسكرية بذلك ويزودها بكل عناصر القرار لتستطيع إصدار الأوامر الضرورية للزحف إلى الأمام في الوقت الذي تراه مناسباً. وهكذا نكون قد رأينا كيف يُعدُّ ضابط الاستعلامات عملاً عسكرياً وكيف يهدف له وأشارنا إلى طبيعة علاقاته الأولى مع الأهالي، المستسلم منهم والمستقل، وإلى معنى ذلك.

ونتقل الآن إلى فترة أخرى من الفتح لندرس مهمة ضابط الاستعلامات في المراكز التي مر على إحداثها حين من الدهر وبات استسلام قبائلها أمراً متنبهاً. فإن المهام الإدارية هي التي تحتل الصدارة هاهنا، ففي هذه الفترة يسعى ضابط الاستعلامات في إحكام مراقبته. نعم، قلت المراقبة وليس الإدارة المباشرة⁽²¹⁾. وذلك لأن المغرب يعيش تحت نظام الحماية، مما يعني أن الدوايب الطبيعية والأساسية للإدارة الأهلية يحتفظ بها وأن الدولة الحامية ليس عليها إلا أن تدخل بعض التحسينات عليها وتجهزها وتوجهها. وأول من يعتني به ضابط الاستعلامات الرئيس الأهلي، ليتمم — في هذا الصدد — العمل الذي وضعت لبناته الأولى على يد سلفه في فترة التأسيس.

ولقد ملنا، في مستهل الفترة الأولى، إلى الاكتثار من عدد الرؤساء الأهالي؛ وذلك لأنه وقت الاستسلام كانت وحدة القبيلة، إن كانت القبيلة موحدة، قد تمزقت من جراء انشطاراتها؛ وجاءت الأقسام المصغرة تطلب الأمان شريطة أن تعترف السلطات برئاسة هذا أو برئاسة ذاك من الشخصيات الباهتة التي تقدمها. وكانت تلك الرغبات تُلبى على العموم للمبادرة إلى ما كان — في النهاية — أكثر استعجالاً، وهو الحصول على دخول الجميع في الواجب. لكن ذلك الجراد المتشتر من الرؤساء يكون عرضة لأخطر المساوئ، ويُحوّل تمرين المراقبة إلى شيء وعمر عسير، لأن الرؤساء المنتخبين بهذه الطريقة لا تكون لهم سلطة ولا جاه فلا بد

(21) خطاب آخر من خطب الاستعمار المشوبة فإن المراقبة كانت بالنظر إلى الإدارة المباشرة ما كانت الحماية بالنظر إلى الاحتلال الاستعماري.

من النقصان من عددهم تدريجيا والسهر على انتقائهم من بين الشخصيات الموسرة المتمتعة بنفوذ واقعي بفضل نسبهم أو ثروتهم أو شهرتهم بالشجاعة أو العدل. ونسهر بعد هذا على أن لا نتدخل في دقائق قيادتهم، حتى لا نخنقها، وعلينا أن نساند سلطة أولئك القواد بكل الوسائل، وأن نشجعهم وننصح لهم ونوجههم، فلا بد من تهذيب الرئيس الأهلي، وتلك مهمة طويلة دقيقة تستلزم كثيرا من الصبر والمثابرة في المجهود، لكن من واجب ضابط الاستعلامات أن يقتنع بأن هذا الجانب من أهم جوانب مهمته.

آه ! سوف تسمعون الكثير عن مثالب القواد الكبار وعن مثالب تلك السياسة الرامية إلى إقامة القيادات الأهلية وتثبيتها ومنحها وسائل المبادرة وتقويتها. وسوف يقال لكم إنها سياسة ضعف وعجز وتنازل، وإن أولئك الرؤساء الكبار يتصرفون تصرفا فيوداليا في بعض النواحي وشهواتهم أثقل من أن تلبى وإنهم يرهقون رعيهم ويحملونها باضطهادهم لها على النفور من نظام الحماية ؛ وسيقال لكم أيضا إن أولئك الرؤساء الكبار يميلون إلى التخلص من مراقبتنا، وإلى الاستقلال بشؤونهم، وإنه من شأنهم في حالة اضطراب الأحوال أن يشككوا أشد الأخطار على وجودنا، من البديهي أن كل تنظيم سياسي ينطوي على مخاطر وعيوب. لكن كونوا على يقين بأن لا شيء يخشى من سياسة تجعل قاعدة عملها مبدأ التعامل مع أكثر العناصر الاجتماعية في البلاد إفادة، وأن هذه السياسة، على العكس مما يقال، لتوطد السلطة والقوة الفرنسيتين بما تضيف إليهما من تجربة من تستقطب من الرؤساء الكبار مع ما لهم من الجاه والسلطة⁽²²⁾.

ولنستفد من دروس الجزائر، ففي سنة 1862، صرح السيد دافيد⁽²³⁾

(22) نموذج التهامي الكلاوي ولاشك، الذي كتبت أرملته بيرو في مذكراتها قائلة بأنه كان من «صنائع» زوجها وأنه ظل يعترف له بالجميل للدرجة أنه أراد أن يتزوج من تلك الأرملة لكنها فضلت العودة إلى باريس حيث ذاع صيتها في عالم الغناء والمسرح، يرجع إلى كتابها :

Simone Berriau : *Simone est comme ça*, Paris, Laffont, 1973, p. 251.

(23) من الجيل الأول من ضباط الشؤون الأهلية في الجزائر، إزداد سنة 1823 وتخرج من مدرسة سان سير العسكرية ثم دخل مصلحة البيرواات العربية سنة 1845 فحكم في دوائر مغنية والجزائر العاصمة والمدينة وبني منصور، وفي سنة 1853 أعيد إلى فرقته العسكرية ثم انتخب في الهيئة التشريعية في عهد الامبراطورية الثانية، ولم نقف على تاريخ وفاته في ما بين أيدينا من المراجع.

(David) الضابط السابق في البيروات العربية، وهو نائب، أمام الهيئة التشريعية⁽²⁴⁾، قائلا : «مادم هناك رؤساء أهالي يتوسطون بيننا وبين كتلة الساكنة الأهلية، فإن الجزائر لن تكون مكتسبة لفرنسا بصفة نهائية». ثم ذهب ييسط القول في تعسفاتهم ليطالب بالاستغناء عنهم. ومضت ثلاثون سنة على ذلك وتغيرت النبرة، لأن الفيودالية⁽²⁵⁾ العربية أصيبت من جراء زوال القيادات الكبرى، ولكن الجشع ظل متفشيا.

وهكذا كان للسيد جول كامبون⁽²⁶⁾ (Jules Cambon) الوالي العام، أن يقول من أعلى منصة مجلس الشيوخ⁽²⁷⁾ إنه لم يبق أمانا إلا الهباء المنثور من البشر من لا تأثير لنا عليهم بسبب افتقارنا إلى وسطاء موثوقين بيننا وبين الساكنة الأهلية، ثم أضاف قائلا : «إن هذه الساكنة فقدت أطرها، فمنذ سنة 1881، تمزقت القيادات الكبرى وتفتتت، لكن الجماهير الأهلية المسكيننة لم تستفد من ذلك شيئا ؛ بل على العكس، لأنه حيثما كان في السابق رئيس كبير يعوض عن أطماعه وجشعه إلى حد ما بشكل من السخاء والبذل، تمجد اليوم خمسة أو ستة من الرؤساء الأهالي ما بين شيخ وقائد ومساعد أهلي، وهم في الحقيقة علق لاصق بهذا الشعب، ولا يزيدهم راتبهم جد الهزيل إلا شجعا، وذلك في الحقيقة تشجيع على النهب والسرقة والابتزاز».

وهذا ما ينبغي اجتنابه مهما كان من الثمن. فكل ما يقوم به ضابط الاستعلامات شخصا من الأعمال، وكل ما يصدره من الأوامر، وما يدعو إليه

(24) كان ذلك اسم مجلس النواب في الامبراطورية الثانية من 1852 إلى 1870.

(25) كثيرا ما كانت الكتابات الكولونيالية تستعمل هذه العبارة للإشارة إلى ما كان في الحقيقة اقطاعية وبالرغم مما يوجد بين المؤسستين من أوجه التشابه فإن التمييز بينهما لازم علميا لاختلاف الأصول القانونية والاجتماعية.

(26) من كبار موظفي الجمهورية الفرنسية الثالثة، تخرج هو وشقيقه وكبيره بول (Paul Cambon) من مدرسة جول فري (Jules Ferry) السياسية وكان من أهم مناصبه الولاية العامة في الجزائر من سنة 1891 إلى 1897 وأثناءها جرت أول محاولة لانتزاع نوات من المغرب سنة 1892، ثم كان سفيرا لبلاده في برلين من 1907 إلى 1914 وهو الذي سعى في إبرام الوفاق الفرنسي الألماني بتاريخ 4 نونبر 1911 الذي فتح أبواب الحماية على المغرب.

(27) أعلى المجالس السياسية في الجمهورية الثالثة، أسس بقانون 24 فبراير 1875.

من التدابير، كل ذلك باسم الخزن وباسم السلطان بصفة كونه السلطة الطبيعية في البلاد.

آه ! كثيرا ما سيقال لكم : « لكن ما الداعي إلى إدخال شخص السلطان حيث لم يُعترف أبدا بسلطته وحيث ينفر منه الجميع ولا يعرف الناس إلا إيانا ؟ ».

من البديهي أن لا مناص من شيء من الحكمة في التصرف بهذا الشعار بالنظر إلى الأوضاع الاجتماعية السابقة المشوبة إلى حد ما بالفوضى لمن نخطب بذلك من السكان. لكن علينا أن نعلم أن من يتكلم بهذا الكلام من الأهالي كثيرا ما يعتقد أنه يتقرب إلينا زلفى ؛ والواقع أنهم معتزون، في طي أنفسهم، بما تبديه من الاحترام لرؤسائهم الطبيعيين، ولسلطة الخزن المركزي، ولشخص العاهل الشريف⁽²⁸⁾، وجلهم سعداء بكوننا لا نتقدم إليهم إلا بصفة كوننا مفوضين من قبل الخزن لا أقل ولا أكثر ؛ ويجدون في ذلك وسيلة لانقاذ ماء الوجه، ولجعل حد لمحاسبة ضمائرهم ولتحمل وجودنا ومراقبتنا. وحالما تنتظم القيادة وتثبت أركانها، يعتنى بجمالية الضرائب لأن الضريبة على كل حال دليل الاستسلام وضمأن له. وقاعدة هذه الضريبة الترتيب⁽²⁹⁾ الذي يشمل المغرب برمته ؛ وهي ضريبة مباشرة على المحاصيل الزراعية، يعني على المقلد من ريع الأرض السنوي، وينظر إليها أهاليها بعين الرضى إن أمكن أن ينظر إلى الضريبة بعين الرضى ويجب أن تكون، في البداية، خفيفة للغاية حتى لا يستقلها الجمهور، وحتى يترك الوقت الكافي لاصلاح ما خلفته الصراعات الحديثة⁽³⁰⁾ في البلاد من الخراب.

ولا بد من تجديد نظام القضاء الإسلامي واخضاع القضاة والجماعات، بحسب

(28) مثال آخر عن بهتان المنطق الاستعماري، فلو لم يكن للسلطان نفوذ لما كان رمزا قويا في السياسة ولما التزمت به الحماية ألما التزام.

(29) ورثت الحماية هذه الضريبة على المنتج الفلاحي من الدولة المغربية وأدخلت عليها من الضوابط ما جعلها تسد جانبا غير هين من الميزانية العامة وذلك بمقتضى ظهري 10 و 11 مارس 1915 المعدلين بظهير 19 ماي 1939.

(30) لاشك أنه يعني الصراعات التي كان المغرب مسرحا لها فيما بين 1900 و 1912، ولكنه يسكت على ما كان للدوائر الاستعمارية الفرنسية من الأيدي الخفية في إثارتها وتأجيجها.

ما تكون القبائل تتعامل بالشرعية أو بالقانون العرفي⁽³¹⁾ لمراقبة تزداد دقة شيئا فشيئا.

وتحدث مدرسة أو عدة مدارس بما يتيسر من الوسائل المحلية أول الأمر : في نواله وعلى حصائر أو في الهواء الطلق. ويعلم فيها الأطفال التهجى بالفرنسية، وتلحق بها ورشة للعمل اليدوي تُعَدّ متعلمين يواصلون حرفة آبائهم مع تحسينها. والاسعافات الطبية، التي لم تقدم منذ تأسيس المركز إلا في إطار محدود، لا بد من رفع مستواها في هذه الفترة الثانية. ففقام دار للاستشفاء، ومراكز للفحص الطبي الدوري بالأسواق، وفرق صحية متنقلة تزور الدواوير، وتتوقف فيها توقفاً كافياً، لمعالجة الإصابات الخفيفة في عين المكان ونقل الإصابات الخطيرة إلى الوحدات الصحية المستقرة. وتسدى للأهالي نصائح عملية لتحسين أساليب زراعتهم ؛ وتقام مناهل للماء وتتكاثر، وتدخل التحسينات على أجناس الماشية بالانتقاء واللجوء إلى الفحول المختارة وبناء المآوي وإعداد مدخرات من الكلال. وتعمل الشركات الاحتياطية⁽³²⁾ على مساعدة السكان الأهالي، وتسمح لهم باقتناء البذور وأدوات الزراعة.

وتعد المسالك، وتزود إدارة الأشغال العمومية بدراسات تمهيدية تحتوي المعلومات الضرورية لانجاز الأشغال الكبرى. ويتم جرد الأملاك المخزنية والمحسية وتصان أوضاعها القانونية. ويتم الجرد الاقتصادي بأكثر ما يمكن من الدقة، بحيث تجند خبرات المنطقة في أقرب الآجال ويشرع في استثمارها. وبعبارة وجيزة، لن يستهين ضابط الاستعلامات بأي شيء ليحدث في مجاله الكفاف والمزيد من الثروات والنظام والأمن والسعادة. وحالما يكون قد نظم هذا الفردوس، سوف يرى الأوربي مقبلاً يبحث عن أرض زراعية يستعمرها، وعن عقود شراكة مع الأهالي، ومعادن يستخرجها وصناعات ينشئها. فعليه أن يبادر إلى الترحيب به، وعليه أن يمهّد له سبيل الاتصال بالأهالي، ومعاملاته واستعمارها بالناحية. وبودي أن أقف عند هذه النقطة شيئا ما.

(31) التصرف بالقضاء يقصد منه التحايل على الشرعية والإعداد للظهور البربري.

(32) تم تأسيس هذه الشركات بظهور 26 مايو 1917 للأخذ بيد الفلاح المغربي مبدئياً ولكنها كانت في الواقع وسيلة أخرى من وسائل التآطير والمراقبة.

ففي الجزائر، خلال السنوات الأولى من عمل «البيروات العربية» بقيادة المارشال بوجو، تولع ضباطنا بدراسة القضايا الأهلية، وتعلقوا بالسكان المغرقة وتمسكوا للدفاع عنها ؛ وكانوا على صواب في ذلك ؛ على أنهم مالبثوا أن انصرفوا عن الصواب عندما أعماهم ما كانوا يقومون به من المهام لدى الجماعات الأهلية، فحاجبوا كل ما كان سواها وغاب عن أنظارهم جلال المهمة التربوية والحضارية التي تضطلع بها بلادنا والتضحيات التي تتحملها والتعويضات التي تستحقها⁽³³⁾. ولما صاروا ينافعون بكل حمية، وأحيانا بغير تبصر، عن مصالح الأهالي أدى الحال ببعضهم إلى تجاهل مصالح الأوربيين وإلى عرقلة أسباب ازدهار الاستعمار..

فلنجنب الوقوع في نفس المآهات، لأن مساهمة الأوربي لازمة لإنجاز برنامجنا الأهلي، والأوربي لدى الأهالي هو القدوة، وهو الحافز، وهو المثال الحي ؛ ولقد لمسنا ذلك في أندم الأقاليم استسلاما ؛ والمغربي فطن حاذق نشيط مبادر إلى العمل، سريع التطور لدى اتصاله بالأوربي. ثم إن هذه الأرض الشاسعة الخصبة تسع للجميع وتوسع للفرنسيين على وجه التخصيص، الذين تكبدوا أخطر التضحيات ليعطوا الأهالي خبرات لا تقدر بثمن بما أيقظوا من ضمائرهم وجندوا من طاقاتهم، ومنحهم من الأمن والنظام والمنهجية. ولذلك من واجب ضابط الاستعلامات أن يأخذ بيد هذا الأوربي بكل ما في الكلمة من معنى وأن يرشده ويشجعه ويساعده ويحميه، ويضمن له صلات مع الأهالي قائمة على المودة والثقة، وأن يعلم هذين الجنسين، على ما بينهما من الاختلاف، أن يقدر أحدهما الآخر، وأن يحبه، ويتبادل إلياء الثقة والمساعدة، ليشتركا في المجهود ويتضامنا في المصالح، بعد أن قفقت الظروف بوقوفهما بخته وجها لوجه.

وهكذا نكون قد رسمنا بإيجاز كبير أدوار ضابط الاستعلامات المتعددة واطلعنا على مدى اتساع وظائفه ومدى تشعبها. وليقوم بمهمته على الوجه اللائق، ماذا ينبغي له أن يعلم ؟ كل شيء طبعاً، كما ترون ؛ فإن كفاءاته تمتد إلى جميع فروع النشاط البشري ؛ إذ عليه إضافة إلى مؤهلات عسكرية ثابتة، أن يكون ملماً بكل

(33) كان سيسل رودز (Cecil Rhodes) رائد التوسع البريطاني في جنوب إفريقيا يقول إن الاستعمار قضية بطن.

شيء، فيكون في آن واحد ديبلوماسيا ومهندسا ومعماريا ورجل أموال ومزارعا واقتصاديا ومستعبا ورجل قانون. لكن عليه قبل كل شيء : أن يكون راجح العقل، وقد يبدو هذا الأمر غير ذي بال، لكنني كلما تقدمت في الحياة، وجدت هذه البضاعة نادرة. فإن العقل الصائب والرأي الحصيف من هبات الطبيعة ولا سبيل، للأسف، لاكتسابهما مع أنهما متقدمان على كل الحصال الفكرية الأخرى. وعليه أن يكون نشيطا. وحتى تكون مراقبته نافذة، وحتى يكون عمله ناجعا، لا بد له من أن يكون قادرا على الكينونة في كل مكان، فيكون متنقلا باستمرار، مستقصيا عن حوائج الناس وعن الأوضاع السياسية والمادية ضامنا للأمن، يحل المشاكل في عين مكانها، ويتعرف الجميع عليه عن كثب. مما يقتضي منه أن لا ييغل براحته وأن يكون دائما على صهوة جواده ؛ فليخرج من المكاتب، لأن الساعات التي يقضيها في المكاتب ساعات تحمل الذهن على الخمول بينما انتعاشه في الهواء الطلق، ومما لاشك فيه إن الاشتغال في المكاتب أمر ضروري لكن ينبغي اعتباره تنويعاً للعمل الخارجي الذي هو العمل المثمر الوحيد ؛ ولذلك فإنه يشتغل في الخارج ويعود إلى المكتب ليثبت الأمور بالتقارير والمقترحات.

وعليه أن يكون شاطرا قادرا على الابتكار، أو قل «مدبرا لرسه»⁽³⁴⁾، إذا استعملنا هذه العبارة التي ندرك معناها نحن الكولونياليين تمام الإدراك، فعليه أن يكون واسع الخيال، متوقد الذهن على الدوام، مهووسا بالأفضل، لا يعوقه شيء، ولا يعرف كلمة مستحيل، ولا ينتظر معونة من أحد ؛ وأن يكون إلى جانب ذلك، مولعا بالمبادرة، محبا للمسؤولية.

وعليه أن يكون مهذبا، وكلنا مهذبون، ما في ذلك من شك، لكن لا نعطي الدليل لمن يختلف عنا من الناس عن حسن تربيتنا إلا باحترام دينهم وعوائدهم وأعرافهم وبالاستئناس بها حتى لا نغاجأ بها في أية لحظة من اللحظات ؛ وأيضا باجتنب كل ما يوحي بالعنف أو الغضب أو الاستخفاف أو الازدراء. وأوصيكم، في هذا الصدد، أن تحرصوا في دوائركم على الكف عن استعمال تلك العبارات الفظة الحقيرة النابية التي تتكاثر لغاية الأسف على الألسن، مثل «بيكوك»، وهي

(34) كلمة من الدارجة الفرنسية رمت ترجتها بالأقرب منها في الدارجة المغربية.

سبة اخترعها قدماء عساكرنا في افريقيا وتنافسها هاهنا لفظة مغربية جديدة هي «بوشعيب»⁽³⁵⁾. وعليه أن يستوعب الروح الأهلية، فهي تختلف تماما عن روحنا، ولا بد من كثير من الوقت لاستكناها. ولذلك لا ينبغي أن يصدر أي حكم مسبق على الأجناس، حتى لا يخطر بباله مسبقا أن الأجناس التي تسكن المغرب أجناس دون جنسنا فإنها مختلفة لا أقل ولا أكثر : ولقد هذبنا التعليم والتربية، لكننا، في زمن غير بعيد، كنا في نفس المستوى، وبمازال فلاحنا بالسيفين (Cévennes) أو في ابريطاني (Bretagne) غير بعيد كل البعد عن برايرة كيجو أو تيكريكري⁽³⁶⁾. فعليه أن يتشبع بروح العطف على الأهالي. ولا أعني بذلك «الانديجينوفيليا»⁽³⁷⁾ المتعصبة غير العفيفة، بل المبادرة إلى التعاطف بالقلب واللسان. ولا ينبغي أن نقف حيال هذه الأجناس الكريمة الأبية موقف الفاتح الذي يفرض قانونه، بل موقف الوصي المتعاطف المتبصر.

فهذه هي المعنويات التي لا مناص منها. ولننظر الآن فيما ينبغي اكتسابه من المعلومات.

لأبد، أولا، من إتقان اللغة العربية وحتى البربرية إذا أمكن. وبداية هذا الشرط تبدو لكم بحيث لا داعي إلى الالتحاح عليه، فلا سبيل إلى بلوغ أي شيء مفيد بدون اللغة، لاستحالة الاتصال المباشر مع الأهالي بدونها ؛ وبما أنه لا يمكن لترجمان محترف أن يلتزم بكم في الحل والترحال، فإنكم ستكونون ملزمين بتحمل استبداد الشواش⁽³⁸⁾ المتنوع المقيت. وعليكم أن تلموا بدقائق جغرافية المغرب الطبيعية والاقتصادية، وتاريخ العالم الإسلامي، وتاريخ المغرب على وجه التخصيص،

(35) لفظ للتفريق أرسله جنود الاحتلال والمعمرون في الجزائر ثم استعمل بعد في مجموع المغرب العربي، وهو مشتق من «بيك» (Bique) بمعنى العنز أو المعز. أما لفظ «بوشعيب» فمثله مثل «الفاطمية» للنساء، اسم بعض الأفراد أطلق على الجميع بلسان التعالي والاستخفاف.

(36) اقليمان من الأقاليم الفرنسية الفقيرة المنعزلة، تقع «سيفن» جنوب الحضبة الوسطى (Massif Central) وتقع «ابريطاني» في أقصى غرب فرنسا، أما كيجو وتيكريكري فإنهما واديان من وديان الأطلس المتوسط الشمالي، أولهما رافد من اليسار لنهر سبو والثاني رافد من اليمين لنهر بهت.

(37) من كلمتين أولاهما فرنسية معناها الأهالي والثانية يونانية معناها حب الشيء والميل إليه والإشارة هنا إلى من كان من الضباط يتظاهر بالمعطف على الشعب المغربي إلى درجة تقديم مصالحه على مصالح المعمرين لأسباب لا يتورع بزيرو عن وصفها بأنها غير عفيفة.

(38) لفظ تركمي بمعنى ضابط الصف برتبة وقب، ترى متى دخلت المغرب ؟

وبالفتوحات العربية، وردود الفعل البربرية من خلال ما تعاقب عليهم من سيطرة على يد الفينيقيين، والرومان والبيزنطيين والوندال والعرب والترك والفرنسيين، الذين خضع لهم جنس البربر، وأن تلموا بطموحاته، والحركات الكبرى التي تجلت من خلالها.

ولابد من معرفة شاملة بالإسلام، وبفحوى العقيدة الدينية، وبالطرق والزوايا والأجناس التي تسكن المغرب، وبطبائعها الأساسية، وعوائدها، وأعرافها، والتشريعات التي تحكمها.

لا بد من معرفة بالقانون الإسلامي، الذي هو قانون ديني في جوهره، قائم على وحى إلهي مثبت في الشريعة القرآنية، كما كان الشأن في القانون العبري المستمد من شريعة موسى والتشريع القانوني المسيحي في القرون الوسطى. ولابد من معرفة بالقانون العرفي البربري : فالبربر، كما تعلمون، لم يدخلوا الإسلام طوعاً، إنهم أصبحوا مسلمين كرها، دون أن تفتح أراضيهم⁽³⁹⁾، ولذلك لم يفقدوا شيئا من حريتهم، فلم يضحو في سبيل الإسلام بأعرافهم ولا بتقاليد أسلافهم، بحيث لم يتم الشرع الإسلامي لديهم مقام أعرافهم التقليدية ؛ وواجبنا ومصلحتنا يقتضيان منا أن لا نغير شيئا من هذه الأوضاع.

ولابد من معرفة بالقانون الإداري المغربي الذي يعالج تنظيم المصالح العمومية المختلفة للحماية وعلاقتها مع الخواص.

ولا مناص من دراسة مختلف الضرائب من حيث مبادئها وتفاصيل تطبيقها (الضريبة على المحاصيل الزراعية)، الضريبة الحضرية⁽⁴⁰⁾ (وهي الضريبة على المبنى) من العقار بالمدن) والرسوم⁽⁴¹⁾ على الدواوير والأسواق وما إلى ذلك من الرسوم. ومختلف صفات الملكية الأهلية، وشروطها، ونظام تقويتها، والهبات، والأرث،

(39) هذا خلط مقصود بين اعتناق القبائل الأمازيغية للعقيدة الإسلامية ودفاعها عن أراضيها والإنسان مجبول على الدفاع عن أرضه.

(40) فرضت الضريبة الحضرية بمقتضى الفصل 61 من مقررات الجزيرة الخضراء ووضع ضبط دولي لجبايتها يوم 24 يوليوز 1908، ثم كان تنظيمها في إطار الحماية بظهير 24 يوليوز 1918.

(41) المقصود بهذه الرسوم حسب السياق ميزانية البلديات والجماعات القروية.

والقسمة، والتسجيل وأمالك الدولة : الأملاك المخزنية وأمالك الأحباس وأراضي الجيش⁽⁴²⁾ وما قد يكون عليها من الحقوق. ولا مناص من الالمام بأكثر ما يمكن من قضايا الاقتصاد السياسي والفلاحة...

فهذه المعلومات كلها، وأخرى كثيرة أغفلت ذكرها، تشكل الرصيد الذي لا غنى عنه لضباط الاستعلامات، ويكتسبها بالمطالعة والملاحظة الشخصية وأيضا بالاستماع إلى نصائح من سبقه إلى الميدان.

وكان الضباط قبل إعلان الحرب ملزمين، بمجرد قبولهم في مصلحة الاستعلامات وقبل شروعهم في الوظيفة، بقضاء بضعة أسابيع من التدريب بإدارة الحماية بالرباط، حيث كنا نذهب ببعض التوضيحات بشأن كل القضايا التي قد تطرح عليهم فيما بعد، وكنا نحاول أن نوحى لهم بمذهب موحد. إلا أن الصعوبات الناجمة عن الحرب ألزمتنا بإيقاف هذا التدريب الذي سوف يستأنف العمل به بمجرد ما تسمح الظروف بذلك.

لكن المعلومات المذكورة آنفا لا تكفي مع ذلك، ولابد لضباطنا، زيادة عليها، من أن يكونوا على بينة من القضايا الكبرى التي تعني الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد وعلى موقف إدارة الحماية من كل واحدة منها. وحيث أن دراسة هذه القضايا قد يتطلب إفاضة في الشرح لا يتسع لها ما لدي من الوقت المحدود، فإنني سوف أقف عند الإشارة إلى بعضها مكتفيا بوضع رؤوس الأقسام:

1 - نظام الحماية :

قلت لكم فيما سبق إننا لا ندير شؤون الأهالي مباشرة وإننا نترك لهم أطرهم الطبيعية وإن دورنا ينحصر عند تكوين تلك الأطر وعند مراقبة تصرفها بالأمر. وهذه الصيغة منطوقة مشفرة : فهي الوحيدة، على كل حال، التي تلائم مذهب الحماية. وسبق لي أن حاولت تلخيص هذه النظرية في بضع كلمات فاسمحوا لي بتريدها :

(42) «الجيش» بمقد الجيم وجره وإمال الباء حسب النطق المغربي الأصلي في هذا المصطلح، عبارة عن الفرق التي كانت تشكل أساس الجيوش المخزنية وكانت الدولة تمنحها أراضي فلاحية مقابل تلك الخدمات العسكرية.

ولا جديد في هذه النظرية ؛ فإن المنظرين قد وضعوا مبادئها وكانت تونس أول أرض لاختبارها بشكل جدي. لكن لم يسبق لنظام الحماية أبداً، وحيثما كان من المستعمرات، أن جرى تطبيقه بنفس ما جرى بالمغرب من الصديق والاخلاص والشمولية على يد الجنرال ليوطي⁽⁴³⁾ الذي كان خلال حياته الاستعمارية الطويلة قد قدر مزاياه بمقارنتها مع مساوئ الإدارة المباشرة، وعرف كيف يقنع بها في المغرب أشد الناس نفورا منها وكيف يبت بذهن الجميع إيمانه الفعال بها. والواقع أن لا قاعدة للحكم أكثر مرونة ولا أكثر تفهما ولا أليق بالإنجازات السريعة من هذا النظام الذي يضمن باستمرار تعامل الحامي والمحمي ومشاركتهما الوطيدة في دراسة المشاكل المتعددة التي تطرح على الأوربي في أرض يبدو فيها الإنسان والمؤسسات والأعراف والمعتقدات وعناصر الطبيعة نفسها مختلفة تماما عما هي عليه لدينا : تعامل من فوق بين السلطان والمقيم العام من حيث تظافر مجهوداتهما باستمرار ومن حيث العمل المشترك، بين إدارات الحماية والأجهزة المخزنية الموازية⁽⁴⁴⁾، وتعامل من تحت من حيث العمل المزدوج المتسق على كل المستويات بين الرؤساء من الأهالي ووكلاء المراقبة، مع احترام التقاليد والشكليات وتوظيف الدوايب الإدارية إلى أقصى حدود توظيفها وتوظيف المؤسسات والتأثيرات الموروثة واستيعاب كل القوى المعنوية وكل الإرادات وكل الطلاقات وكل التأثيرات لفائدة ما تقوم به من الأعمال لانعاش البلاد وتجديد بنائها على أسس جديدة⁽⁴⁵⁾.

2 - السيادة الأهلية :

ما المعنى الحقيقي لهذه العبارة التي كثيرا ما ترددت على لساني ؟ ففي نظر البعض إنها الدواء المطلق القادر على شفاء كل أمراضنا، والكلمة السحرية التي من شأنها أن تقلل كل العقد وأن تفتح البلدان بلا قتال وتملك القلوب بلا مجهود،

(43) واضع قواعد الحماية الفرنسية في المغرب، تقلب على عدة قيادات استعمارية في الهند الصينية ومدغشقر والجزائر فيما بين 1892 و1912، ثم عين أول مقيم عام في المغرب واحتل المنصب إلى سنة 1925 حيث تمجلى فشله في التغلب على المقاومة الريفية فأقالته حكومته.

(44) يقصد ما تبقى منها بعد إصلاحات الحماية التي ألغيت بمقتضاها وزارات السيادة وهي الداخلية والخارجية والجزيرة والمالية وتركت أو أحدثت بعض الوزارات مثل الصلابة العظمى لما كان مفوضا لها من مهام التوقيع نيابة عن السلطان والعدل والأحباس لاتصالهما بشؤون الدين.

وفي نظر آخرين فليس ثمة الا نوع من التشديق بالكلام الحالي من كل دلالة، مما تختفي السلطة من ورائه إما للتليس على عجزها وإما لإضفاء الشرعية على واقع الاستبداد. وليس الأمر لا هذا ولا ذلك. ولا يسعني، استجلاء معنى هذا اللفظ الجديد، إلا أن أتلو عليكم صفحة كتبها رجل كرس حياته كلها لدراسة شؤون الاستعمار، وهو السيد شايي (Chaillé) (45)، قال :

«إن إلحاحنا على ترديد هذين اللفظين «السياسة الأهلية» قد يبعث على التعجب والانزعاج، فماذا نعني من خللهما مما هو غريب وجديد ؟ وهل يختلف حكم الأهالي عن حكم الأوربيين إلى هذا الحد ؟ إن جميعهم في حاجة إلى الأمن والعدل ووسائل الثراء، وتمكينهم من ذلك، سواء كانوا أوربيين أو أسيويين، هو عين الحكم وهو عين الإدارة، فما الداعي إلى تشريف كل ذلك بعارة السياسة الأهلية ؟ ولماذا هذا الإلحاح على مسألتين متطابقتين في الظاهر ؟

سبب ذلك أن التطابق ظاهري فقط. أما جوهر الأمور فهو أننا بصدد مسألتين اثنتين ينبغي حلها وما لا شك فيه أن حكم الأهالي وإدارة شؤونهم بل كل قرار حكومي وإداري قابل لأن يوصف بأنه سياسة أهلية، فبناء سكة حديدية سياسة أهلية، وشق القنوات سياسة أهلية، وكذلك التصويت على المدونات وإحداث المحاكم، ومع ذلك ينبغي أن نميز بين الإدارة بمعناها المحدد وبين السياسة الأهلية، فإن السياسة الأهلية ترمي إلى إقناع السكان بأنها مهمة بهم قبل غيرهم، بينما تضطر الإدارة إلى أخذهم بعين الاعتبار هم والمعمرين في آن واحد، والإدارة تشغلها المصالح المادية قبل سواها، والسياسة تشغلها المصالح المعنوية قبل غيرها. وقد يحصل أحيانا أن تمتزج المصالح المادية لدى الأهالي ولدى المعمرين فيستفيدون جميعا من نفس القرارات. لكن المصالح المعنوية لا تمتزج أبدا، فلا بد نزولا عندها من اتخاذ الاجراءات المتميزة الخاصة، مما يكون فيه اشعار فوري للأهالي بأن الفاتح لم يكن يفكر إلا فيهم وهو يضع يديه عليهم، ولذلك فإدخال الثراء عليهم (هم

(45) جوزيف شايي أو شايي - بيرت (Joseph Chaillé-Bert) 1854 — 1923 اقتصادي وزحالة، تخصص في السوسولوجيا الاستعمارية، كتب الكثير في ذلك وكان له تأثير على قادة التوسع الامبريالي الفرنسي مثل كالييني (Gallieni) وليوطي وكان يعتبر من المنظرين للسياسة الأهلية وفقهون الحماية.

والمعمرين أحيانا في نفس الوقت) من مهام الإدارة، وهو أمر حسن، وإن كان بوسعهم أن يعزوا الفضل في ذلك إلى محض جهودهم، أما احترام مصالحهم المعنوية فذلك هي السياسة الأهلية، وذلك أحسن لما فيه من استدراجهم شيئا فشيئا إلى إدراك مزايا السلطة الأجنبية وربما إلى قبولها عوضا من أن تكون عبئا عليهم. ذلك أحسن، لكنه أصعب، وهذه الصعوبة هي التي تفسر العديد من أسباب مقاومته فإن الأمر يتطلب أولا رغبة في دراسة الأهالي ومؤهلات لذلك للوقوف على شؤونهم وإدراك مؤسساتهم ومشاعرهم ودوافعهم وطموحاتهم، ثم يتطلب إرادة التجرد من الأحكام الأوربية المسبقة والقوة على ذلك وعلى كل ما كان مسلما به إلى ذلك الحين من النظريات إن كانت خاطئة وطرح الحلول المعتادة، والحيد عما يبدو طريقا مستقيما لسلوك السبل الملتوية بل وكثيرا ما تتطلب السياسة الأهلية من الحكومة أكثر من ذلك : أن تتخلى عن أدوار العناية الإلهية على ما فيها من أسباب الاعتبار والسهولة، خاصة في يومنا هذا، وأن تعرض عن أسلوب التدخل المستمر الشائع بكثرة، وأن تنتظر، وقد يطول الانتظار، فرصة التدخل في الوقت المناسب وأن تترك الناس وأعمالهم وأن تترك الأحداث ومجرأها، وأن تلتزم الصمت وأن تبدو غائصة في الفتور وتفتح المجال لمن يهاجمها ويشكك فيها بل وأن تحمل مواطنيها الأوزار أحيانا، شأنها في ذلك شأن الأم التي لن تخاطر بتوبيخ غير ابنها من بين مجموعة من الصبيان تعالى ضجيجهم، وأن تدرك مساوئ قانون من القوانين لكنها تقمع في نفسها كل ميل إلى استبداله، وتدرك أن الموظف الفلاني غير مأمون لكنها تحتفظ به برهة من الزمان، وأن تترك بعض الوظائف المهمة في أيدي بعض العاجزين عنها أو المتلاعبين بها في الوقت الذي قد يكون لديها من هو أكثر ثقافة ونزاهة. ومع كل هذا لا تجعل من الامتناع عن التدخل قاعدة، وإنما تنتهز عند الاقتضاء فرصة الأعداد لما هو ضروري ويمكن من التغيير⁽⁴⁶⁾.

«فإن السياسة الأهلية تنطلق من مبدأ تمسك الشعب بأعرافه ومؤسساته، صالحة كانت أو طالحة، وأعرافنا ومؤسساتنا، حتى وإن كانت متفوقة، لن تكون في نظره

(46) هذا من صميم سياسة الحماية، التي كانت لا تهدف إلى أكثر من جعل المغاربة زبائن للمعامل الفرنسية عن طواعية أو إكراه.

إلا مقبنة، إذا ما طمعنا في إلزامه باحترامها أو بمجرد العمل بها، لأن حضارتنا، على كمالها، في رأينا تثير استغرابه أو تصدمه فبعده عوضا من أن تجذبها، مهما كان من اقتناعنا بما له من المصلحة في ترك حضارته لفائدة حضارتنا، فإنه ينبغي أن نستدرجه إليها على مهل، في كثير من الصبر والمهارة، وتقوم هذه المهارة على استدراجه إلينا دون تشييط همته أبدا ودون السماح له بالعودة على أعقابها، ولا تقوم على فتح أبصاره قهرا بل على اقناعه بفتحها. وباختصار فإنه يوضع على طريق التطور شيئا فشيئا في نطاق تقاليد أول الأمر. فهذه هي السياسة الأهلية.

3 — الملكية الأهلية :

يجب أن يكون احترام الملكية قاعدة سياستنا الأهلية، وإنكم مطلعون إجمالاً على نظام الأرض بالمغرب، فإنها تحتوي أراضي «ملك» مملوكة للأشخاص وأراضي «عرش» مملوكة جماعيا لدوار بكامله أو لفرقة من القبيلة أو للقبيلة كلها.

وكثيرا ما يخطر بالبال أن تلك الأراضي الجماعية التي تبقى عارية في الغالب تتجاوز حاجيات ساكنتها الأهلية المتناثرة إلى حد ما، وأنه من المصلحة أن يقتطع منها أجزاء لفائدة الاستعمار الأوربي لتفوق أدواته ولحماسه في العمل.

فلنلاحظ أولا أن تلك الأراضي الجماعية ليست مهمة على النطاق كما يحلو للبعض أن يقول : فإن الكثير منها محروث بترخيص من الجماعة لبعض أعضائها ويتوزع يجري كل سنة، ويحتفظ بالمساحات الباقية لضرورات الرعي.

ثم إن الساكنة الأهلية من جهة أخرى، إذا كانت في الوقت الراهن منهكة القوى من جراء الصراعات والأمراض فإنها سرعان ما ستتكاثر وستتفاهم حاجياتها ولا بد للدولة أن تتوقع ذلك وأن تحتفظ لها بالكافي من الاحتياطات العقارية.

وأخيرا، لا يمكن الاعتراض شرعا على عدم جواز التصرف في تلك الأراضي. لكن لا سبيل أيضا لجحد كونها غير مستعملة بكاملها، وكونها قابلة لأن تمتد فيها الزراعات، ولذلك من الجائز المعقول أن يفكر المخزن، بصفة استثنائية، في شكل من أشكال جمع أعمال بعض القبائل ممن تتميز بوفرة حظها على مساحة من أراضيها تستجيب لحاجياتها في الحال والاستقبال بعد تقدير ذلك بأوسع تقدير والتفاوض معها في أمر تفويت الفائض لمصلحة الاستعمار.

لكن إيانا ثم إيانا أن نتمسك، بشكل طائش، بتلك النظريات الخطيرة القائلة بطرد الأهالي وحصرهم⁽⁴⁷⁾ قهرا في بعض الجهات فمن مخاطرها أن تحدث كما حصل في بعض المستعمرات بروليتاريا قروية من شأنها أن تفسد علينا أوضاعنا السياسية والاقتصادية بما قد يكون وزنه حاسما في الميزان.

4 - قضية تعليم الأهالي⁽⁴⁸⁾ :

هذه قضية خطيرة الشأن عويصة بل إنها قضية مهوسة لما فيها من تضارب المصلحة والضمير. ولقد اعترفت كل الأمم الاستعمارية، بعد الكثير من التردد والارتباب في غالب الأحيان، بأن لا حق لنا في احتكار مزايا التعليم، لكن ما أن يم الفصل في هذه المسألة الأساسية حتى تنبعث في الحين مسائل أخرى لا تقل عنها أهمية ولا حساسية. فما هو صنف الزبناء الذين ينبغي للغازي المهذب اجتذابهم أو استقباهم ؟ وماذا سيلقن هؤلاء الأهالي، عامتهم وخاصتهم ؟ من ذا الذي سيعهد إليه بهذا التعليم ؟ مدرسون من الأهالي أم من الفرنسيين ؟ أية لغة تستعمل لنشر هذا التعليم، اللغة الأهلية أم لغتنا ؟ لقد حددت الحماية موقفا من هذه المسائل. فإنها بادىء ذي بدء، أقرت استحالة توجيه ما ينبغي أن يلقن من التعليم للشباب الأوربي وما يخصص منه للأهالي في نفس الاتجاه، وأن قصدنا أن نجعل من شباب العرب أو البربر الذي يفد على مدارسنا رجالا ذوي صدق وفطنة وبصيرة، محبين للعمل والنظام، قابلين للتقرب منا باستعمال لغتنا، راغبين في أخذ نصيبهم من أسباب الرقي الذي ندعوهم إليه لكي يحسنوا أساليب عيشهم وأحوالهم الصحية ويمارسهم الفلاحية وأعمالهم الصناعية وعلاقاتهم التجارية، فذلك هي الغاية المقصودة وذلك هو أقصى ما يرام.

(47) حصر القبائل اجباريا في جزء من أراضيها كان من أسباب تشريد الطبقة الفلاحية في الجزائر كما يبدو ذلك من أبحاث جوليان (Julien) وأجرون (Ageron) أما في المغرب فإن تاريخ أطوار الاستحواذ على الأرض مازال في حاجة إلى الدرس، وكان يطلق على تلك العملية كلمة Cantonnement عندهم.

(48) أبان الأستاذ ريفي عن جوانب هذه السياسة وقال عنها إنها كانت مبنية على «الالتوازية» وعلى «الميز العنصري» وأنها كانت تهدف إلى تكوين طبقة من الوسطاء بين الجالية الاستعمارية والجماعات المغربية، يرجع إلى مقاله عن «المدرسة والاستعمار في المغرب في عهد ليوطي» في Cahiers d'Histoire 1976.

مما يفرض أن يكون التعليم الابتدائي، وهو ما يكون في متناول الجماهير الشعبية من التعليم، مطبوعا في بلد حديث العهد بالاستعمار مثل المغرب، بطابع المنفعة الواضح وهكذا لم تحتفظ في الدروس سوى بالقسط الضروري مما له قيمة تهيئية محضة، جاعلين المعارف ذات المنفعة شبه الفورية في محل الصدارة من البرامج. فإن المغرب يحتاج قبل كل شيء لعمال وفلاحين، فلا بد أن تسعى المدرسة لتوجيه انشغالات تلاميذها صوب الحقول والمعامل حتى يتأتى لهم تحسين ظروف عيش عائلاتهم في أسرع الآجال.

ولابد أيضا للمدرسة — والأمر ثانوي في برامجها، لكن ينبغي إثارة الانتباه إليه — أن تحافظ على الفنون الصناعية الأهلية، وأن ترد شباب العمال إلى تقنيات حرفهم التي تكاد تكون غاية في الجودة، لكنها معرضة في الغالب للاندثار، فلا بد — بكلمة وجيزة — من تجديد ذلك الجانب من التراث المغربي الذي تهدده الروتينية ونقص الأعراف الموروثة بشكل خطير.

وفي نفس هذا السياق لا سبيل إلى إغفال الفتيات المسلمات. فإن تأثير المرأة المسلمة في الواقع، أقوى في الأسرة وفي المجتمع مما قد يفترض⁽⁴⁹⁾.

فلا بد إذا من العمل على إشراك نساء الإسلام في المستقبل في التطور الجماعي لكن مع أقصى ما يمكن من الاحتياط لكي لا تصدم المعتقدات الموروثة ولا تخدش بالأحرى التقاليد المحترمة بشكل مباشر.

فهذا ما يعني عامة الناس. أما الخاصة فلقد أنشئت «مدارس أبناء الأعيان» والثانويات الإسلامية⁽⁵⁰⁾ بقصد استقبال شبان العائلات المسلمة الموسرة التي لا يليق بها تعليم ابتدائي على شكل ما ذكرنا، ففي هذا الميدان أيضا نجد أنفسنا إزاء أوساط ينبغي أن نطلع عليها تمام الاطلاع وأن نعمل فيها مع مراعاة مستمرة

(49) هذا حكم صادر عن خير بشؤون المجتمع الإسلامي أدرك أن احتجاب المرأة في الإسلام لا يعني إهماء شخصيتها، لكن الحماية لم تهم بتعليم البنات إلا بضغط من الحركة الوطنية بعد الثلاثينات.

(50) هذا دليل الحطة المالتوزيانية في التعليم ففي تاريخ إلقاء هذه المحاضرة بأرقام سنتي 1916 و1917، كان عدد تلاميذ الثانويات الإسلامية 381 تلميذا، ومعلوم ما كان لليوطي من التحفظ من تعميم التعليم لا بالنسبة للفرنسيين ولا بالأحرى بالنسبة للمغاربة.

لما قد يترتب على عملنا من بعيد الانعكاس، وعلينا أن نحذر من تلك التعميمات المتسرعة التي تدفعنا إليها حاستنا التبسيطية بكثير من الإفراط، وعلينا أن نفتتح للمسجد العتيق الذي تعيش تلك العائلات في ظلاله بعض «النوافذ» المتواضعة في البداية ليمتد الاطلاع على البناء المعقد لحضارتنا الأوروبية.

فلقد بدا أن الغاية المنشودة هي أن نلزم التلاميذ بعوالمهم الاجتماعية في الوقت الذي ندرس لهم اللغة الفرنسية ولغتهم الأم، وأن نغدهم، دون الخروج عن التقاليد ولا قلب نظام المجتمع الإسلامي، من سبل تناول إرث آبائهم في التجارة أو الفلاحة أو الصناعة، بمناهج مجددة، أو سبل التشوف إلى بعض الوظائف الإدارية التي يحفظ لهم بها المخزن أو إدارات الحماية، وأن نرفع بخلصة القول مستوى ذكائهم دون أن نقلعه بعنف عن المعهود لديه من المذكرات.

5 — الاسعاف الطبي للأهالي :

وهذه القضية من الأهمية بمكان، إذ بوسعنا في هذا المجال أن نقوم بأدوار معنوية وحضارية بارزة، فإن نسبة الوفيات مهولة لدى ساكنتنا الأهلية التي تفتك بها الأوبئة وأخطر الأمراض. فلا بد من أن نبادر إلى التدخل لجعل حد لهذا الإهدار السكاني، وسيكون الاسعاف الطبي من أنجع عوامل ازدهارنا. ثم إن الطبيب، إلى جانب المعلم، من أحسن مساعدي سلطة المراقبة، ولا يعار ما يكفي من الانتباه لما يمكن أن يقوم به من الأدوار المعنوية، ولما يتمتع به من الجاه، ولما يمكن أن يمارس من التأثير⁽⁵¹⁾. ولن أحدثكم عن نظام هذه الاسعافات بالمغرب، فلقد اكتمل بنائها أو كاد، وصارت تُعطي من النتائج ما هو جد مشجع، وأكفي بإثارة إهتمامكم إلى أهميتها القصوى.

6 — السياسة الدينية للحماية :

ويمكن وصفها بأنها احترام وامتناع عن التدخل وتجرّد، إنها حياد ديني، لكنه حياد قائم على التسامح والتعاطف. ومن حسن حظنا أننا وجدنا في المغرب ما لم

(51) مازال دور الأطباء لم يفحص بعد فحوصا تاريخيا مدققا ولكننا نعلم أن جل الأطباء الأوروبيين كانوا من المخبرين عن خبايا المجتمع المغربي ومن أنجع أدوات الدعاية الاستعمارية في صفوفه.

نجد في الجزائر، رئيسا دينيا معترفا به محترما من قبل الجميع، وتنظيما حكوميا يربى حاجيات العبادة.

فانحصر دورنا في الأخذ بيد المخزن ليجدد صرح إدارة الأحياس التي كانت تتآكل ولقد أعيد بناؤها، وهي الآن مزدهرة. ولم يبق أي داع للتدخل في هذا المجال.

7 — مشاركة الأهالي في الحياة السياسية والاقتصادية :

قبل وضع الحماية، كان هناك صنفان من المغاربة في نظام المخزن القديم. هناك من جهة أصحاب وظائف الدولة من وزراء وكتاب البنات⁽⁵²⁾ وخدام القصر والباشوات والقواد والقضاة والأمناء، وعموما موظفي المخزن كبارا وصغارا، ممن كان يجمع إلى جاه الوظيفة امتيازات مادية لا تخلو في الغالب من أهمية، وكانت تلك الوظائف كلها تُشترى، لا بشكل منتظم، ولكن في خضم الدسائس التي كانت تحاك حول المنصب الشاغر، لا يُعترف بالأحقية به إلا لأكثر المرشحين بذلا للأموال، الذي يكون ملزما بسبب ذلك إلى تعويض مصارفه بأسرع سبيل، فكان يبادر إلى جمع الغروات ويسعى في ذلك بلا حد، ويبالغ في الكلف ويفرض الضرائب الاستثنائية ويحبي الرسوم من مختلف الأشكال، ويمارس كل أنواع الابتزاز، ويمول مجاملاته وأسباب نفوذه.

وهناك من جهة أخرى جمهور من تقع عليهم الأحكام القضائية أو الإدارية أو الجبائية المعرضين بلا شفقة ولا رحمة للضرائب والكلف والذين لا يملكون وسيلة للتشكي ولا سبيل لهم لمقاومة الاستبداد إلا بالتمرد. ولعل في هذه اللوحة ما فيها من التشويه، لكنه واقع على وجه الإجمال. وإن وضع الحماية وحسن اختيار الموظفين والمراقبة المدققة لتصرفاتهم قد ساعد على تخليص المأمورين من هذا النظام القائم على الاستبداد والضغط والعنف. ولكن ذلك لا يكفي ولا ينحصر واجبنا عند هذا الحد، وعلينا أن نمد الأهالي من وسائل التعبير عن حاجياتهم ورغباتهم من خلال أجهزة رسمية، وعلينا أن نعملهم على التعامل معنا في أعمالنا والمساهمة بأنفسهم في تحسين أوضاعهم المادية. ولهذا أقدمت الحماية على انشاء نوعين من

(52) البنات: غرف جلوس الوزراء والكتاب للأعمال المخزنية.

الأجهزة من شأنهما أن يمكننا الأهالي من المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد.

ففي المجال السياسي والإداري منحت المدن مجالس هي بمثابة بلديات⁽⁵³⁾ حقيقية تناقش مصالح المدن وتساهم في إدارتها. أما لدى القبائل فلقد أنشئت جماعات هي، كما تعلمون، مجالس للأعيان⁽⁵⁴⁾ خول لها، برئاسة قوادها سلطات إدارية وأحيانا قضائية. وفي المجال الاقتصادي، فإن المدن زودت بغرف تجارية يكون بوسع وجهاء التجار الأهالي أن يناقشوا فيها مصالحهم، وأن يعربوا عن تمنياتهم، ويساهموا بذلك في الازدهار الاقتصادي للبلاد. ولنفس الغاية يمثل سكان البادية في الغرف الفلاحية⁽⁵⁵⁾. وهذا الابتكار لا يخلو من جرأة. ولا أظن أنه يوجد بمستعمراتنا القديمة تنظيم يضمن مشاركة الأهالي في الشؤون العامة وفي الدفاع عن مصالحهم بهذا الشكل الواسع. ومن حق المغرب أن يفتخر بدخوله هذا الطريق بهذا النوع من الأقدام، وبكونه أشرك الأهالي في أعمالنا وفي مجهوداتنا بهذا الشكل الواسع.

فهاأنذا، أيها السادة، قد أطلعتكم على مختلف جوانب المهام المتوقعة بمصلحة الاستعلامات في المغرب. وحتى لا أبحث في نفوسكم الملل، فإنني سرت بخصي سرية وأملت التفاصيل وقصدت رأسا إلى إظهار أهمية هذه المصلحة أمامكم وفوائدها وتعقيدها فإنها عقد قبة صرحنا المغربي الشاخ.

على أنني أكون سعيدا لو كنت قد حصلت على أبعد من ذلك بإثارة انتباهكم إلى هذا البلد البديع وإرشادكم إلى قضايا جديرة بالدرس مما قد يزيدكم معرفة به وحبا فيه.

(53) تأسست البلديات بظهير 27 مارس 1917 وكانت الغاية الحقيقية من وراءها إشراك الجالية الأوربية الدخيلة في جزء من السيادة المغربية مع إتاحة آفاق المضاربات أمامها.

(54) شرع في ضبط شؤون الجماعات أول الأمر بظهير 2 شتنبر 1914 القاضي بالاحتفاظ للجماعة بأعرافها، ثم بظهير 21 نونبر 1916 الذي حول الجماعات إلى هيئات إدارية يرأسها قائد معين مما كان مخالفا في غالب الأحيان للأعراف السابقة، وكانت المجهودات التقنية المولية تهدف كلها إلى إحكام سياسة التمييز القبلي والسلالي.

(55) وقت إلقاء هذه المحاضرة كانت الغرف المهنية، سواء منها الخاصة بالفرنسيين أو الخاصة بالمغاربة مازالت قائمة بمقتضى القرار المقيمي ليوم 29 يونيو 1913، ولم يصدر أول ظهير منظم لها إلا في يونيو 1919 وكانت الغرف المهنية المغربية مجرد أقسام ملحقة بالغرف الفرنسية.

نِصْرُكَ وَكَانَ

لائحة مطالب وطنية مبكرة يقدمها عالم من فاس إلى المقيم ستيغ سنة 1926

تقديم وعرض : مُحمد المنوفي

كلية الآداب — الرباط

واضع هذه اللائحة يحمل اسم أحمد بن محمد التّميشي الحسني الفاسي، توفي عام 1386/1967، وكان معدودا من علماء فاس وأدبائها وذوي الغيرة من نخبها، وذلك ما يشهد به ثلاثة من مترجميه.

انطلاقا من الأستاذ محمد بن العباس القباح⁽¹⁾ في فقرة يقيم فيها مواقفه : «وإن ننس فلا ننسى مواقفه التي يقفها — بلسانه وبينانه — دفاعا عن المبادئ الحق وعن الدين الحنيف، في وقت يكتنفه المفرضون الذين يتنون مجد شخصياتهم على أطلال السفاسف والجمود، ومن ذا الذي ينسى موقفه المشهور هو وإخوانه المصلحون، حيث قاموا قومة رجل واحد بالمطالبة بتنظيم كلية القرويين».

وعن جانب ثقافته يخطط الأستاذ إدريس بن الماحي الإدريسي القيوطي⁽²⁾ قائلا عنه : «الفقيه العلامة الدراكة، الأديب الأريب، الكاتب المقتدر، الشاعر المجيد، المؤرخ الشهير، أكتب أهل عصره، وأعرفهم بتاريخ فاس وخططها وأهلها وأنسابهم وأيامهم...».

ثم يركز الأستاذ عبد الله الجراي⁽³⁾ على أدب المترجم : «من أدباء فاس

(1) «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، المطبعة الوطنية، الرباط 1347/1929 : 76/1.

(2) «معجم المطبوعات المغربية»، مطابع صلا 1988، ص 348.

(3) «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين»، مكتبة المعارف، الرباط 1406/1985 :

وشعرائها...»، ومن آثاره الأدبية العلمية كتابه : (تاريخ الشعر والشعراء بفاس)...
اختصره من كتابه الواقع في مجلد ضخّم مازال مخطوطاً.

ومن غيرته تصديده لكتابة اللائحة التي تقدم لها، وقد رفعها للمقيم الفرنسي
ستيف سنة 1926⁽⁴⁾، فتناول فيها بعد افتتاحية مرنة، تشخيص الأزمة التي يعانيها
المغرب سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

وأولاً : يربط هذا الواقع باختلال نظام الضرائب، مما نجم عنه آثار سيئة على
سير الاقتصاد الوطني : في التجارة والصناعة والفلاحة، وبالنسبة لهذه الأخيرة يبرز
الخطاب كارثة نزع الأرض من ملاكها لفائدة المعمرين.

وتنتقل اللائحة — بعد هذا — إلى فضح سيرة الحكام في تعاملهم مع الوطنيين.
لنعقب على ذلك بالفات نظر المقيم العام إلى حالة العملة في حرمانهم من
حقوقهم مادياً وقانونياً، وهنا يلوح الخطاب إلى المطالبة بالحقوق النقابي للعمال،
ويضيف حرية تأسيس الأحزاب الوطنية.

(4) النص الذي اعتمدته خال من التاريخ في مصورتي، غير أني استأنست في توقيته بتاريخ مطالب
مشابهة ووجيزة، عقب بها واضع اللائحة على خطاب سياسي للمقيم ستيف، ونشر تعليقه في
جريدة «السعادة» ببلد الخميس 30 صفر 1345 / 9 شتبر 1926، وهكذا يقول :
«إننا قبل أن نطلب من حامي الشعب المغربي إشراكنا في إدارة أعمال بلادنا، نطلب منه أن
يخرج منا لعالم الكفاءة رجالاً جديرين بأن نضع فيهم ثقتنا، خبيرين بأحوال الزمان وتطوراتها،
لم يُعَمِّرْ التعصب للقديم أبصارهم، ولا أنسهم بهرجة المدينة محاسن دينهم وعوائلهم.
نطلب منه تعميم المعارف بين طبقات الشعب، حتى يدرك سواد الأمة التفرقة بين النافع والضار،
ويقدروا المشاريع الهامة حق قدرها.
نطلب منه سن نظامات عادلة تقى الضعيف جور القوي، وتصون الرعية من حيف رعاة لم
تهذبهم المعارف.

نطلب منه تحسين حالتنا الفلاحية، وتلك مشكلة البلاد...».
وتقفي على هذه المباحرة بالإشارة إلى أنه يبدو أن اللائحة المنوّه بها سبقتها لائحة مطالب وطنية،
وهي التي يذكر الأستاذ عبد الكريم غلاب تقديمها إلى نفس المقيم بتاريخ 5 نوفمبر 1925،
حسب «تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب»، مطبعة الرسالة، الرباط : 77/1.
كما أن الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني يذكر هذه اللائحة، ويحلل مضمونها تحليلًا يبين منه
أنها غير لائحة الأستاذ الخيشي، «مذكرات حياة وجهاد»، دار الغرب الإسلامي، بيروت :
1/238 — 239، غير أن القطع في هذا المقام يتطلب الوقوف على نص لائحة 1925،
وهذا لم يقع لحد الآن.

وإلى ذلك تثير اللائحة مهزلة الرواتب الضئيلة التي يتقاضاها الموظفون الدينيون وعلى رأسهم العلماء، وتنتهزها فرصة للمطالبة بحق تنظيم التعليم الإسلامي.

ومن الاقتراحات الأخرى باللائحة : مطالبات تتصل بالجمعيات الخيرية. وبإنشاء الجمعيات الأدبية.

وبالصحافة العربية الوطنية.

وإصلاح القضاء والفتوى.

وتوسيع دائرة العضوية بالمجالس البلدية وكفاءة أعضائها.

والاقتصاد في النفقات الإدارية، وفي عدد الموظفين الأجانب.

وإصلاح السجون والمحاكم والمستشفيات.

وبعد هذه الخلاصة الوجيزة لمضمون اللائحة، نشير إلى أن واضعها أداها في أسلوب رفيع المستوى : تعبيراً وتركيزاً واستيعاباً.

غير أنه يلاحظ عليه ما يتخلل اللائحة من الليونة في خطاب المقيم، على أن هذه الملاحظة ستخف مهما تبينا طبيعة سياسة ستيف، وهي التي يشجبها سياسي مغربي⁽⁵⁾ في هذه الفقرة : «... ولهذا كان مجيء ستيف كـمقيم عام إيدانا بالويل والثبور، ونذيراً بسياسة عمادها القهر والاستعباد والسلب والنهب، والإرهاب والإرهاب...».

ومع هذا فإن صاحب اللائحة يشير في طالعته إلى الوعود التي قطعها المقيم منذ عين لوظيفته، فانتهزها المترجم ليقدم مطالبه في صياغة تأخذ بعين الاعتبار نفسية المقيم⁽⁶⁾، دون التفريط في استيعاب الحقوق الظرفية بكل شجاعة.

(5) الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني في «مذكرات حياة وجهاد»، مصدر سابق : 396/1.

(6) إن هذه النفسية الجامحة لم تكن خاصة بمقيم دون آخر، وإنما نشأت في المغرب بنشوء الحماية الاستعمارية، وذلك ما يجليه المؤرخ محمد السليمان عند افتتاحه كتابه «اللسان المغرب»، مطبعة الأمنية، الرباط، ص 3، فيشرح خطته في عروض كتابه وقد حاول نشره في فجر الحماية : «... بيد أني تكلمت حسب الإمكان، في غالب وقائع هذا الزمان وتقلبات الأوان، لأن الظروف تجبر التصريح، بما يثير التريح، اللهم إلا التلميح الرامي إلى المقاصد، بما يعقله العاملون بمقتضيات العوائد، ونقاشيا عما يوقع في الخنور أو يوغر الصدور، حتى لا يجد أهل الوشابات، ما يحدثونه من المنات».

ومهما يكن الأمر فإن هذه المبادرة بالقياس لزمانها، تعبر عن غيرة وطنية، وإحساس بالحرمان، وإعلان بالرفض للسياسة المتبعة، وإيدان بظهور وعي وطني يطمح إلى التغيير.

وأخيراً، فإن هذه اللائحة أثبتنا واضعها — بخطه — في إحدى كتاباته، ومنها نقلتها كاملة، مع الإشارة إلى أنني اتصلت بها عن طريق صديق عزيز مشكور جم الشكر، وهذا نص اللائحة :

سعادة المقيم العام،

إنني قبل أن أفتح جنابكم الكريم بخطابي هذا، أعترف بأنه لا حيثية لي رسمية تؤهلني لمخاطبتكم، ولكنني لما اطلعت على خطاباتكم التي كانت تنشرها الصحف وعلمت من مجموعها ما لكم من العزم على النهوض بهذا القطر المغربي والعروج به إلى عالم الحضارة والترقي، أردت بداعي حب هذا الوطن الذي تقلنا أرضه وتظلنا سماؤه أن أدلي إلى سعادتكم ببيانات صادرة من قلب مبتهج بالوعود التي قطعها ممثل الدولة الحامية منذ عين لوظيفته السامي، ولتعتبروا هذه التصريحات التي أمليها على جنابكم بلسان طالما نوه بالأعمال القمدنية العظيمة التي قامت بها الدولة الإفرنسية في هذا القطر منذ رفرت أجنحة حمايتها عليه، وآتية من محب مخلص يتمنى أن يرى وطنه في مجبوحة رغد العيش والهناء.

لا أريد أن أضمن كلماتي هذه معنى سياسيا ربما كان مجلبة للاستياء، وإنما أقصد أن أوضح لكم ما تتوق إليه نفس كل وطني وتتمنى أن تحصل عليه إداريا. من القواعد التي سار عليها رجال الدولة الحامية منذ وطئت أقدامهم التراب المغربي، إبقاء النفوذ الخزني، والمحافظة على الأنظمة القديمة التي كانت تسير عليها الحكومة، ولم يحوروا إلا ما لا غنى عن تحويره.

كانت حالة المغرب قبل الحماية على الصفة التي لم يزل منظرها الخفيف ماثلا بين أعيننا، سائرة في سائر أعمالها على نظام عقيم إن صح لنا أن نطلق لفظ النظام على ذلك المعنى المشوه : لا وازع يزع ولا راحم يرحم، إن الرعية بين أيدي الكبراء والمشايخ إلا كالغنم بين أيدي الجازر يضحى منها ما شاء وشاءه هواه، وما كان ينجو من مخالهم إلا من التجأ للدولة أروية تحميه وما له، والثورات

الكثيرة التي كانت تنقد نيرانها بجوانب المغرب لم يكن لها من سبب إلا تلك المعاملة الوحشية القاسية التي كان يلاقها الإنسان من أخيه.

لأمتلن لكم ذلك بالتنازل من الهياة الحاكمة للعامل عن الفرد من إنالته يتصرف فيه وفي ماله وعائلته طبق مشتهياته العدوانية، فيستصفي أمواله ويفعل أمام عينيه بحرمه ما يندى له وجه الإنسانية خجلا ويعذبه بأنواع العذاب الجهنمية التي لا تقدر براعة أن تشخص أهوالها، وذلك في مقابلة ما ينفع به الوزير الفلاني والرئيس الفلاني من الدريهمات الناصعة والإبريز الوهاج، أم أمثل لكم ذلك بجبر العملة والصناع الذين هم السواد الأعظم من الأمة على القيام بالأشغال المخزنية التي لم يكن لها حد تقف عنده، دون أداء لأجور أولائك المنكوبي الحظ أو بأجر زهيد لا يوبه له.

كل ذلك في علم جنابكم إذ ليس العهد به بعيد.

ان اعتقادي شخصيا أن الحماية الفرنسية لو تأخرت عن وقتها بضعة أعوام لوصلت حالة المغرب ماديا وأديا إلى أسوأ حالة لم تصل إليها دولة من الدول، ولا شعب من الشعوب.

النتيجة أن الحماية كانت دواء ناجعا لتلك الأدواء التي نخرت عظم هيكل المغرب، فلا يماري أحد في وجوبها إذ ذاك بطبيعة الحال، هل قضى نظام الحماية على جميع الأدواء التي كان ين تحت وقرها كل عامل مغربي حزين، وهل اجتشت شجرة الظلم والخيف من أصلها، ذلك ما لا يمكنني أن أصوره بصور الإيجاب الكلي.

إن المريض وأعني به القطر المغربي بعدما استعصى داؤه وكاد أن يئأس من حياته عاجلته أيد رحيمة تشبعت بمبادئ الرحمة والشفقة، ويعز عليها أن ترى الإنسانية مُعذبة في أي صورة من الصور، ولكن تلك الأدوية لم تبلغ بذلك المريض إلى حد النقه تماما وإن أشرف على الشفاء.

والرجاء الوحيد الذي يرجوه ذلك المريض هو أن يتم علاجه على يد الطبيب الماهر المسيو ستيتش، حيث إنه لا يصف للمرضى من الأدوية إلا ما سبقت له تجربته، والتجارب نصف الطب.

هنا يحسن أن نشخص له بعض الأدواء التي نشكوها، ونكل له — وحده — النظر في اختيار الدواء الناجع.

لا يخفى على جنابك أيها الرجل العظيم أن أسباب المعيشة في هذا القطر كغيره أربعة : التجارة والصناعة والفلاحة والوظائف المتنوعة. أما التجارة فيقوم بها طبقتان من سكان المدن : الأغنياء وذوو الطبقة الوسطى من أهلها.

وقد كانت التجارة زاهية زاهرة إلى أن جاءت الحرب العالمية الكبرى فزعرعت بنيان المعاملات التجارية. من جملة ما زعرعته، وأصبح التجار كريشة ملقاة في مهاب الرياح، تبعاً لسير الصرف الذي لم يستقم له اتجاه إلى الآن، وأضحى التاجر المغربي — الذي كان مثال الخفة والنشاط — يرسف في قيود التأملات : يريد الإقدام فيحجم خوفاً من الوقوع في هوة عميقة لم يتبينها، ويريد الإحجام فيقدم خشية أن يندم إذا تبين له بعد أن الفرصة كانت سانحة، (وهل لعلاج من داء) ؟ سؤال لم يقدر ساسة الاقتصاد أن يجيبوا عنه جواباً شافياً إلى الآن، ولعل الطبيب الماهر إذا استعصى عليه الداء يشير على مريضه بمسكنات وقتية توقف داءه عند حد، ريثما يأتي الوقت الذي يبحث فيه الداء من أصله.

ومن أهم المسكنات النظر في الضرائب الموظفة على التجارة وتوزيعها على النسبة الرأسمالية، فيوظف على صاحب التجارة الواسعة ما يناسب ماله، وعلى من دونه ما لا يضر بسير تجارته، وبذلك لا يبقى محل للتأفف ولا للتضجر، من غير أن يلحق ذلك إجحافاً بالميزانية، أما الأساس الذي بني عليه توظيف ضريبة التجارة فلم يلاحظ فيه هذا المعنى، بدليل ما نراه من أن ما يدفعه أصغر تاجر ربما ساوى ما يدفعه التاجر الكبير أو فاقه، وسبب ذلك قصر اللجنة المعدلة لتلك الضريبة نظرها على ظواهر الحال من غير تعمق في البحث عن الطوايا، مع ما ينضم لذلك مما لا يتخلو منه بشر من الخطأ في التقدير، أو لأسباب أخرى لا تخفى على الفطن اللبيب.

أما الصناعة فهي مهنة السواد الأعظم من الشعب.

وإذا كانت الحكومة الفرنسية مستحقة لكل مدح وإطراء على ما مثلته من

أدوار ترقية هذا القطر، ففي طليعة ما ينبغي أن يذكر لها من الأعمال الصالحة ترقية بعض الصناعات الوطنية التي كان أهلها انكمشوا في مغارات الخمول، وأصبحوا يلقون على مصنوعاتهم نظرات الاحتقار.

عادت صناعة التجارة والتسفير والفخار والنقش على الصفر والطرز والنسج وبالجملية غالب الصناعات الوطنية المهمة إلى شبابها، وبعثت من رسمها بعد أن نامت فيه أطول من نومة أهل الكهف، وها هي الآن شاحخة الأنف تضارع الصنائع الأروبية، وأهلها قد حصلوا على بعض الثروة التي لم يكونوا يحلمون بها، والتي نالوها بكد قرائحهم وتعب أفكارهم.

وإذا كان هؤلاء يتمتعون بثار ما غرسوا بأنفسهم، فهناك فئة كبيرة لم يلاحظها السعد بما لاحظ به إخوانها ؛ وهم أهل الحرف الوطنية المحضة : كالخرازين والديباغين والحاكة والحرارين، هؤلاء مفتقرون تمام الافتقار لجس نبض حالتهم، والنظر بعين الاهتمام في شئونهم، إذ هم من أعضاء الهيكل المغربي، وأعضاء الجسد في غاية التضامن إذا اشتكى عضو واحد تأملت سائر الأعضاء، ومن جملة الأعمال الصالحة التي تسدى لهؤلاء : النظر في أمر الضرائب الموظفة عليهم بإسقاطها على من ثبت عجزه عن أدائها عجزا كليا أو كانت تحجف به وبعائلته، وتبديلها بالنسبة لمن سواه، وليلاحظ سعادة المقيم أن عملا كهذا لا يدخل على الميزانية أدنى خسارة، ولكن تربح الحكومة من ورائه وسبها بسمة العدالة التي هي أهم دعامة قامت عليها حياة الجمهورية الفرنسية، غير أن ما نطلبه عمل يشق إذا لم يتول أموره رجل ناصح أمين مقتدر — بما أوتيته من الفكر السليم — على وزن الأشياء بميزان التعقل والرزانة، وجعل النزاهة رائدا لأعماله.

وأما الفلاحة فيكفي في شرح حالها أنها مرتزقة جل سكان هذا القطر.

وإذا كان أحد يتوقف على تسهيلات الحكومة ففلاحو الإيالة المغزنية أحق بها، وتحيق الآن بالفلاح الوطني مصاعب لا يتحمل صدماتها إلا من كانت لماليته بنية تقوى على اتقاء تلك العواصف.

أهم تلك المصاعب مسألة البلاد التي هي الركن الأعظم لماهية الفلاحة، لا يغرب عن ذهن من ألقىت إليه مقاليد الحكم في هذه البلاد أن بلاد المغرب منذ

الفتح الإسلامي إلى الآن منقسمة إلى قسمين، منها ما تملكه ذوره بعقد شرعي لا تقوى أي يد على فقصم عراه، إذ الاعتداء عليه إعتداء على الحرية الشخصية التي تحرمها الأديان الشرعية والقوانين الوضعية، ومنها ما بقي تحت إشراف الحكومة منذ الفتح أو آل إليها بوجه يصح بسببه أن ينسب إليها، وهذا القسم الأخير يتنوع إلى نوعين منه ما أبقت تحت تصرفها بالفعل، ومنه ما رفعت يدها عنه وأصارت التصرف فيه لجماعات القبائل في مقابلة ما كانوا يقومون به من حراسة البلاد، وهي سياسة حميدة في ذلك الوقت تشكر عليها تلك الحكومات. وقد أصبحت تلك البلادات بسبب تنازل الحكومة عنها شبه ملك لأفراد أو لائلك القبائل، لا يظنون أن هنالك يدأ تمنعهم مما كان في حوز أسلافهم السنين العديدة والأحقاب المديدة، ولكن عارضت هذه المصلحة مصلحة الحكومة التي ترى أن تنشيط الفلاحة لا يتم لها أمره إلا بالسير وراء قوانين استثمارية يقتضيا الاستثارة.

وحيث أن فلاحي الوطنيين لا يتسنى لهم القيام بجلال الأعمال، لأنهم لم يذوقوا حلاوة الجهاد في العمل إلى الآن، لم يكن من الحكمة منع جيرانهم الفرنسيين من بذل مواهبهم الفكرية في استثمار تلك البلادات التي للحكومة شبهة في دعوى الملكية لها.

من هنا جاء الإشكال وكثر اللجج والتذمر، والحكيم النطاسي الحبير إذا استعمل الفكر السليم الخالي من التعصب لأي جهة، لا يصعب عليه التوفيق بين النظريتين.

ومسألة هي من الأهمية إلى حد أن العنصر الأهلي يتوقف مصير حياته على البت في شأنها، لا يجمل بقاصر الفكر مثلي أن ييدي فيها رأياً، والرجو من سعادتك أن تبحلوا في طالعة برنامج الإصلاحات التي تنوون القيام بها في المغرب، إذ كل من هون لكم شأنها فقد كتم عنكم الحقيقة بتأمامها، ولا يريد من وراء ذلك للوطنيين خيراً.

هذا كله بالنسبة للبلادات التي للحكومة شبهة في دعوى تملكها كما قلنا، أما البلادات التي هي ملك لأربابها وطولبوا الآن بالتخلي عنها ليحل محلها المعمرون فهي العقدة العسيرة الحل، والتي لم نطلع إلى الآن على وجه الحكمة فيها، وعلى

فرض أن هنالك وجها يسوغ للحكومة ما رامته، فقد كان الأولى أن لو سلكت فيه سبل السياسة، لئلا ينفذ ذلك بعض رجالها بكل قسوة وشدة.

وإذا أراد جنابكم الكريم أن يقف على نزر مما وقع فإني أذكر له — بكل أسف — أن من الأهالي من سجن لامتناعه من التخلي عن بلاده بدون موجب، ومنهم من وبخ أشنع توبيخ، أما الضرب فإنني أستحي أن أذكره لمثل الدولة الافرنسية التي لقنت للعالم مبادئ العدل والحرية والمساواة، كل هذا وقع قبل أن تطأ أقدامكم تراب هذه الإيالة ببضعة أشهر، وقد شاهدنا بأعيننا بعض ذلك مما أجراه الرئيس السابق لإدارة الأحواز بهذه العاصمة الفاسية القبطان مانويل.

ومن جملة الصعوبات التي يلاقيها فلاحو البوادي على الخصوص : ثقل الضرائب التي لا تراعى فيها نسبة معقولة، أرجو أن تعيروني آذانكم وأن تدبروا هذه الكلمات التي هي الأهم من خطابي.

لا أكرم عنكم ما بلغته حالة فلاحي البوادي وهل يسر المريض أن يكتم ما تحت جوانحه من الآلام عن طبيبه الذي لا يرجو الشفاء إلا على يده.

قلت في طالعة خطابي إن رجال الدولة الحامية اقتضت أنظارهم أن يتركوا بعض الأنظمة القديمة كما هي ومما ينتج عن ذلك ابقاء أيدي العمال مطلوقة في إيالاتهم، والإدارة الإفرنسية إنما هي قائمة بالإشراف على سير الأعمال.

إن فرنسا أرادت بالتحافظ على الحالة القديمة أن تقيم للعالم شاهداً على حسن سيرتها ومحافظتها على صبغة البلاد، ولكن ظلمة العمال لم يقوموا بشكر هذه النعمة، وظنوا أن الله قيص لهم الرعايا غنيمة باردة يسوقونها شبه الغنم إلى المذابح كيف شاعوا ووقتاً شاعوا، متعللين لأفعالهم بعلم لا توجد إلا في مخايلهم، ومبررين أعمالهم بحجج لا يقام لها وزن يوم يطفح الكيل وينصب الميزان.

ليعلم نائب الدولة الحامية التي بنى أساس جمهوريتها على العدل والمساواة، أن حالة البوادي تبكي عين كل انسان يحمل بين جنبيه شيئا من الرحمة والشفقة : امتص العمال أموال الرعايا، وأذاقوا الكبير والصغير أليم انتقاماتهم المتنوعة. حملوهم من الجبايا فوق ما يطيقون، وأثقلوا كواهلهم بالمغارم التي لا يبررها قانون.

يجرون أمور ترتيب حرائثهم ومواشيهم على طبق أغراضهم ومشترياتهم، مع أن للجبايا قوانين لا تتعداها، وكم من رجل لا يجب عليه أداء بمقتضى تلك القوانين، فیرغم على أداء ما لا يجب عليه، وكم منهم من يجب عليه قدر فيلزم بأداء أضعاف أضعافه، إلى غير هذا مما يضيّق عنه الشرح والبيان، ولا تقررر إلا المشاهدة والعيان.

ويا حبذا لو وقف الحد عند مضاعفة الأداءات والجبايات التي تصل للخرينة العامة، فقد يهون ذلك إذا علم أنه يصرف في مصالح البلاد، ولكن الطامة الكبرى هي أن تلك الأموال المبتزة من الرعايا جلها يتلعه العمال ومن هم على شاكلتهم، وبأدنى درس لحالتهم المالية قبل ولايتهم ومقارنتها بحالتهم اليوم يبين المقدار العظيم الذي اختلسوه من الرعايا وكان السبب في فقرهم المذق.

والويل كل الويل لمن حدثته نفسه برفع الشكاية لإدارة دارته، فهناك يصب عليه العامل جام انتقاماته، ويسمه بالجرائم التي ما حام المسكين حول حماها، وهل صاحب السلطة يعجز عن أن يقيم على دعاويه الكاذبة ألف حجة ودليل، أمثل لجناحك الكريم بحادثة صغيرة بسيطة لا يسع مرتكبها إنكارها، وإن أمكنه أن يلفق لها أسبابا وأعدارا وأهية، حدثني خبر ثقة شاهد تمثيل الرواية الخزنية التي سأقصها على مسامع جنابك الفخيم :

وذلك أن رجلا من القبيلة الجامعية تخلد في ذمته دين لم يسعه بعد حكم العامل عليه بأدائه، إلا بيع الدابة الوحيدة التي يملكها لقضاء ما عليه من الدين، فما راعه إلا توجيه عامله عليه وتوبيخه على الإقدام على بيع الدابة، مع أن ضوابط الحكومة في زعمه تمنع أهل البوادي أن يبيعوا دوابهم إلا بإذنها، فاندش وقرر له أن يبعه للدابة كان مجبورا عليه، تنفيذاً لأمره له بأداء ما عليه من الدين، وليس له ما يؤدي منه إلا تلك الدابة التي كانت شوما عليه، فأشاح بوجهه عن سماع تلك الحجة الواضحة الصادرة من أعماق ذلك الرجل التعس الحظ وألقى به في غيابات السجن، فاستعطف بعض أقاربه محدثي بهذه القصة أن يكون خير شفيع لقريرهم عند العامل، بعد أن دفعوا للعامل وكتبه أزيد من ثلاثين ريالاً على أن يسرح ذلك السجين ويلتزم بشراء دابة بدل التي باع، فما قبل للشفيع المذكور شفاعه، وكانت نهاية هذه الرواية الخزنية الحكم على الرجل رسمياً بقضاء ثلاثة أشهر سجنًا.

هذا ما حدثني به بخيري وهو من وجهاء المدينة وأعيانها، فهلا تنفطر الأفئدة عند سماع أمثال هذه القصص التي يظنها السامع أنها من أمثال خرافات ألف ليلة وليلة، مع أنها روايات واقعية يمثل العمال على مسارح أعمالهم المثبات والآلاف منها.

فإذا كان رجل فرنسا العظيم وهو من أبناء أولئك الذين قوضوا صرح الظلم والعدوان يريد خيرا بهذه البلاد، ويود أن يترك عملا نافعا يسجله له التاريخ، فليخصص جزءا من وقته الثمين للنظر في أمثال هذه الحوادث التي هي المنبع لكل شر، والمواد الالتهابية المهيجة لبراكين الفتنة، وهي فيما أتحقق السبب الوحيد لخروج بعض القبائل عن الجادة المثلى والصراط السوي المستقيم.

وأما الوظائف فلا يخفى على جنابكم أن منها ما هو إداري ومنها ما هو ديني. أما الإداري فلا كلام فيه ولا ملاحظة لي عليه حيث أن رواتب أهله مناسبة في الجملة، إذ للحكومة اعتناء بهم وتشملهم برعايتها كما تشمل إخوانهم الإفرنسيين، وإن كان هؤلاء الآخرين تفوق على الأهليين تفوقا لا يجب أن يحسدوا عليه نظرا للمصارف الكثيرة التي تخصهم باعتبار عوائلهم وكلفهم، ولكونهم كالغرباء عن وطنهم الأصلي.

نعم من هذا القسم العملة وما أدراك ما العملة، أولئك الذين هم السواد الأعظم من الأمة، والذين من عرق جبينهم تتكون أودية الأموال التي تسقى منها رياض الأغنياء وبها تجري مراكب ثروتهم.

في كل بلاد من البلاد المتعدنة يوجد حزب لهذه الفئة التي يجب أن ينظر لها بعين الشفقة والرأفة والاحترام، لقيامها بجهود عظيمة، وتحملها لمصاعب جسيمة.

أما هذا القطر فهو خال من هذا الحزب ومن بقية الأحزاب، لكونه لازال حديث عهد بالرقى العصري، ومادام محروما من حياة تمثله وتدافع عن حقوقه، فالأليق أن تدير الحكومة أعماله بواسطة رجال أحرار يقدرون الإنسانية — من أي جنسية كانت — حق قدرها.

وكفانا أن يعرف جانب المقيم أن حالة عملة هذا القطر تقتضي مد يد المعونة لهم، لاسيما بعدما حرموا من الهجرة للربوع الفرنسية الجميلة التي كانوا يجدون فيها من واسع الرزق ما لم يجدوه في أوطانهم.

ولا أنسى أن أذكر لكم أن هؤلاء العملة المساكين هم هدف لظلم الولاة أكثر من غيرهم، فهم الملزومون بخدمة الطرق دون أجور، وهم الذين يقومون بأشغال حراثة العمال من بذر وتقيية وحصاد ودراس ونقل محصول.

ومن الغريب أن الضريبة الشخصية المعبر عنها عند المغاربة بضريبة الاذن انما شرعت لتقي القائم بدفعها من تلك الأشغال، وها تلك الضريبة تؤديها — الآن — بوادي المغرب ويرغمون بعدها على القيام بالخدمات الشاقة التي لا يحتملها عليهم قانون، بل قد بلغ المكر في بعض القبائل إلى حد أن تلزم السلطة بعضهم بترك شئونهم الخاصة والقيام بأشغال المعمرين مدة معينة بأجر زهيد، وربما ضاع للقيام بذلك من أمور معاشه أضعاف أضعاف ما قبضه.

وأما الوظائف الدينية كاللتريس والإمامة والأذان وغيرها فهي التي يهملها أن نسهب القول فيها، وأن نشرح لعميد الدولة الجمهورية حالتها بغاية الحرية والصراحة :

وقع التصريح في عقد الحماية بأن الدولة الحامية لاتزال ساهرة العين على حفظ شريعة وعوائد البلاد، وتلك تصريحات مؤكدة لمضمونه من غير ما واحد من كبار الساسات الإفرنسيين، مما لم يبق لنا شكاً ولا ريباً في حسن نوايا هذه الدولة نحو شريعتنا، وإذا خضنا معها يوماً من الأيام في ذلك الموضوع واستلفتنا نظرها إلى جزئية من جزئيات ما قطعت لنا الوعد به، فما معنى ذلك أننا نتهمها بنكث عهدها أو نقض وعودها، وإنما معناه إيضاح أن الجزئية المبحوث في شأنها مندرجة في عموم ما وقع التنصيص عليه، أو أن حالتها الوقتية تقتضي النظر إليها بوجه خصوصي.

ومن هذا النوع مسألة أجور الموظفين الدينيين التي ينبغي الاهتمام بها، وجعلها في طليعة المسائل التي يجب النظر إليها بعين السرعة.

تقوم بنفقة هذه الفئة إدارة الأحباس، إلا أنها بكل أسف لم تسمح لها ميزانيتها بالزيادة في رواتبهم التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

وإنني أتيقن أنه لتأخذكم الدهشة عندما أقول لكم بكل صراحة : إن هذه المسألة التي هي روح الدين هي المسألة الوحيدة التي كانت قبل الحماية. أسعد

منها بعدها، كانت هبات الأمراء وصلاتهم تترى على العلماء آونة بعد أخرى
بمناسبة وبغير مناسبة، زيادة على ما يسهم لهم في الأحباس.

أما اليوم فلا أزيدكم شرحا على أن أذكركم أن غاية ما يقبضه صاحب الطبقة
الأولى من العلماء نحو المائة والخمسين فرنكا شهريا، والكثير منهم ربما كان هذا
القدر مبلغ نصيبه من الدنيا.

وإنني أعرف كثيرا منهم — يا جلالة المقيم — أصحاب عائلات كبيرة يبيتون
هم وعائلاتهم طواوين اليوم والليلة، وربما كان قوتهم — في غالب الأيام — خبز
الشعير فقط، أيرجى للعلم انتشار والقائمون بنشره بهذه الحالة التي وصفها بلا
تحيز ولا مبالغة.

نعم إذا كان هذا من الاجحاف العظيم بخير حياة في البلاد فذنبه محمول على
عائق الرؤساء المسؤولين من المسلمين، لأن المسألة — كما قلنا — مسألة دينية بحتة،
وقد قطع رجال فرنسا كما قلنا غير ما مرة وعودهم بأن لا يتدخلوا في شئون
المسائل الدينية إلا تتدخل لإرشاد.

وبهذه المناسبة نقول إن سبب كل حيف يقع على الأهالي، فأكثره من رؤسائهم
الذين يتقاعسون عن رفع مطالبهم لرجال فرنسا الأحرار.

ولمثل لجنابك الفخيم بالحياة العلمية التي هي موضوع بحثنا، فطالما اجتمعت
كلمة أفرادها على أن يرفعوا شكواهم وما يقاسونه من أليم الفاقة للرؤساء
الإفرسيين، فيشط عزيمتهم مجلسهم العلمي الذي كان من حقه أن يكون أول مدافع
عن حقوقهم، ويضع لهم العرافيل في سبلهم، حتى إنه ربما مثل لهم ما يريدون
الإقدام عليه بشبح مخيف مرعب، ويدلك على ذلك أن غير ما مرة استفهم سلفكم
المريشال ليوطي عن سير الحالة العلمية وعن حال العلماء، فكان المجلس يأنف
أن يشرح له الحالة كما هي، ويبيحه بأن الحالة العلمية زاهية زاهرة، ورجالها حامدون
شاكرون، مع أن حال العلم وحالتهم — وحق شرف فرنسا — لحالة تحزن الأفتدة
وتدمي العيون.

إنني منذ عشر سنوات وأنا مشغول بدرس مسألة إدخال النظام على التعليم
الإسلامي، ورفعت بذلك التقارير الضافية لغير ما واحد من كبراء الوطنيين ورجال

الدولة الحامية، وربما كان في ضمن هؤلاء الآخرين الفاضل العلامة المستعرب حبيكم القونصو المسيو ميرسي حينما كان مرشدا للمجلس العلمي بهذه العاصمة الفاسية أول تأسيسه، وأحمد الله أن وقع الشعور التام بشدة الاحتياج إلى اصلاح التعليم، وأصبح عقلاء الأمة ومفكروها ينتظرون تداعي صروح العلم إن لم تتداركها أيدي الترميم.

النتيجة أن عيون العلم قد أوشك ماؤها أن ينضب، وأن القائمين بتمثيل أدواره تنفس أفرادهم يوما فيوما، وكل فرد ذهب لا يلفي له خلف.

الدواء الوحيد لذلك هو السير بالعلم على الأنظمة العصرية التي تسير عليها غالب كليات الشرق، ولا أبعد النجعة في التشبيه، فهذا القطر التونسي الذي تخفق في سمائه الراية التي تخفق علينا، قد أصبح معهد الزيتونة به بهجة للناظرين، وروضا زاهرا بالعلوم والمعارف.

من ساعده الحظ بالوصول لذلك القطر وشاهد سير العلم في تلك الكلية المباركة، لا يسعه إلا الثناء الجميل على السياسة الحميدة التي سلكتها فرنسا هنالك حتى أصبحت تلك الكلية العظيمة تضم بين جدرانها مئات الأساتذة وآلاف التلاميذ.

إنني لا أحسد إخواني التونسيين على ما نالوه بمجدهم واجتهادهم وأخذ الدولة الحامية بعضهم، ولكن في مقابلة ذلك أندب حالة الكلية القروية التي كانت تسير مع الكلية الزيتونية جنبا لجنب، وربما سبقتها شوطا بعيدا، فأصبحت — الآن — مقيدة الرجلين ترى شقيقتها تسير عدوا ولا تقدر على النهوض للسير وراءها.

إنني — بإسعاد المقيم — من متخرجي هذه الكلية الذين تغذوا من لبنائها وكرعوا في حياضها، ومن المطلعين على تاريخ سير العلم بها منذ أقدم أزمنته إلى الآن، فإن رأيي أبكي عليها وأندب ضيعتها فإنني أبكي على مجدها السالف الذي لم يكن لكم يد في ضياعه، بل سعيتم جهدكم وطاقتكم في استرجاعه، فأنى الجامدون من أهلها أن يتبعوا ارشاداتكم أو يوافقوا رجالكم على أفكارهم الإصلاحية، سل المسيو ميرسي الذي شاهد تكوين حنين المجلس العلمي عن

الصعوبات التي لقيها مبتكرو ذلك المجلس، وسل غيره من عظماء الرجال الأحرار تعلموا أنني غير مجازف فيما قلته.

إذا لم تدخل الإصلاحات اللازمة للكلية القروية وباقي المعاهد بالمغرب ولم يوف القائمون بالتعليم أجورا كافية، فلتتقنوا أنه في أقرب وقت يتقوض صرح العلم وتترك معالمه، وذلك ما لا ترضونه قطعا ولا ترضاه حكومتكم الساهرة على حفظ المدينة الشرقية.

أرجو يا جناب المقيم أن تكلفوا حبيبيكم المسيو ميرسي بدرس هذه المسألة، وأنا الكفيل بأن ما يرفعه لكم من التقارير في شأنها يهولكم كثيرا.

وإنني مستعد لأن أقدم لجنتايه جميع الارشادات التي يتوقف عليها، خدمة لديني الذي أرى أن لا حياة له بغير العلم، وخدمة للحكومة التي أتمنى أن يكون لها شهرة في العالم بالسير في نظام الأقطار المحمية بها على النهج السوي والصراط المستقيم.

وما شرحته من زهادة رواتب المدرسين، هو بعينه موجود بالنسبة لأئمة المساجد والمؤذنين، وعسى أن تنظر لهم إدارة الأوقاف مخرجا من المأزق الضيق الذي هم فيه، وتضيف هذه الحسنة لسجل حسناتها الكثيرة.

هذه أيها الرجل العظيم الأصول الأربعة التي أشرت إليها في طالعة خطابي شرحت بعض أدوائها، ولو أردت أن أستقصيها لكلت النفس وضاق الطرس. وهناك مسائل لا تقل عنها أهمية يجب أن يلتفت إليها وتعد لها يد المعالجة : منها مسألة المعارف العصرية، إن حكومة الحماية قد بذلت المجهود في تأسيس المدارس وتشيد المعاهد العلمية، وخصصت من الميزانية جزءا غير قليل للنفقة على ترقية المعارف، فهي — من جهتها — قد قامت بما يجب عليها، إما من جهة الأهالي الذين كان يجب عليهم أن يقدموا فلذات أكبادهم للارتواء من تلك الحياض، فقد رأينا تقاعسا عظيما وإحجاما جسيما لم ندر السبب فيه، فإن كان لنقص رأوه في برامج التعليم فكان من حقهم أن ينهبوا عليه، وإن كان تكاسلا أو تثاقلا فليعلموا أنهم قد أضاعوا مستقبل أولادهم وحرموهم من الخيرات بمقدار ما تباعدوا بهم عن ولوج ساحات المعارف.

أما أنا فالملاحظة الوحيدة لي على نظام تلك المعاهد التي أُجِّلها وأكبر أعمالها هي عدم إعطاء اللغة العربية لغة الدين والبلاد ما تستحقه من كامل العناية.

ليس السبب في ذلك احتقار الحكومة لها أو إرادة القضاء عليها، إذ هي أعقل من أن تجني على لغة الدين الذي تكفلت بحفظه ورد كل يد عادية تشير إليه، وإنما أتي التفريط — أولاً — من عدم انتقاء الأساتذة ذوي الكفاءة والخبرة والتضلع في هذه اللغة، وثانياً من جنائية التلاميذ على أنفسهم، فإننا نرى التلميذ أول ما تظهر له بارقة من بوارق التحصيل، يشهر حرباً عواناً على لغته ولغة آباءه ودينه ووطنه، لا يخط بها كتاباً ولا يحسن بها جواباً، وهذا أمر مشاهد للعيان، لا يقام عليه دليل ولا برهان، فإن كانت الحكومة ترى من الحكمة الإبقاء على اللغة العربية فلتوكلها لأمانة أساتذة ماهرين، ولترب التلاميذ على احترام لغتهم التي إذا أضاعوها أضاعوا كل شيء.

ومنها افتقار البلاد إلى جمعيات خيرية تقوم بإسعاف المحتاجين وسد خلة العاجزين، إذ حبس المساكين بهذه البلاد لا يقوم بكل حاجياتهم، كما أنها مفتقرة إلى جمعيات أدبية تقوم بخدمة لغة البلاد وإحيائها بكل الطرق الموصلة لذلك، ربما تقولون إن هذا حق من حقوق الأمة فلو طلبته من الحكومة لَبَّت طلبها، فأجيب سعادتك بأن الأمة اليوم لا تزال على أبواب الرقي ولا زال جل أفرادها يجهلون الواجبات التي لهم والتي عليهم، ولا أستحي أن أقول لكم إن السواد الأعظم منهم يعتقدون أن الخوض في مثل هذه المشاريع الأدبية ربما كان من المنوع، أو مما لا تود سماعه آذان الحكومة، مع أن أمثال هذه الجمعيات لم تحرم منها أية أمة من الأمم حتى المستبدة تمام الاستبداد.

وحكومة مثل الحكومة الإفريقية التي هي وليدة الحرية، لا يضرها أن تشرح للمتعلقين بأذيالها أنها لا تعارض في أمثال هذه المشاريع فقط، بل تنشطها وتعزدها وتحوطها بتمام الرعاية.

وحبذا لو تتألف جمعيات من هذا النوع الذي أشرنا إليه، ولو تحت رئاسة أفاضل المستعربين الإفريقيين الذين لهم الفضل في القيام بخدمة اللغة العربية. ومنها خلو القطر من الجرائد العربية، التي أصبح وجودها اليوم عنواناً على رقي الأمة وعدمها علامة على انحطاطها.

إنني شخصياً أرى أن كثرة الجرائد في بلاد لم تنزل حديثة عهد بالحضارة مضرة بمصالح تلك البلاد، لاسيما إذا اشتغلت بسفاسف الأمور وتركزت الصالح العام، ولكن عدمها بالكلية يدل على سبات الأمة وعدم استعدادها لمجاراة الأمم الحية.

ان المغرب — بفضل الله — ليست له مشكلة سياسية كبرى تشتغل الجرائد بالمناقشات فيها، وغاية ما يرجوه هذا القطر أن تكون له جرائد وطنية تشتغل بالمسائل التي تهم البلاد، وترشد الأهالي إلى الطريقة المثلى التي يجب أن يسيروا عليها في تجارتهم وصناعاتهم وفلاحتهم، وتقوم من جهة أخرى بشرح أحوالهم الاجتماعية للحكومة وبيان ما يضرهم وما ينفعهم، فلا تخفى بعد ذلك على الحكومة خافية من أحوال رعايها المخلصين.

ولو كان للبلاد جرائد حرة المنزع تُسمع الحكومة أنين الأهالي وتشرح لها ما يقاسونه من آلام الضيق والحيف، لما وقع طرف مهم من البلاد في حماة الثورة التي أكرر لمجادتكم القول — ثانياً — بأن السبب الوحيد فيها هو جور الولاة وعتوهم.

ومن المسائل المهمة التي لا يحسن غض الطرف عنها مسألة القضاء والفتوى، وهما في الشريعة الإسلامية من الأهمية بمكان، بالغت الشريعة في وضع الشروط والقيود لارتداء الشخص بتلك الحلة الفاخرة، ومن أهم تلك الشروط العدل في الأحكام والتنزه عن الرذائل وسفاسف الأمور.

وبعد أن كانت تلك الولاية السامية لا يتوصل للترفع فوق منصبها إلا من أهله معارفه ودينه، أصبحت اليوم مبدولة لكل خاطب كفؤ كان أو غيره، فشوه بعض من لا أخلاق لهم وجهها الجميل، وكانوا يعلمهم الذي تبعد منه الشريعة بمراحل، سبة على الإسلام وسببا في نفور كثيرين ممن يجهلون حقيقة سر أحكامه.

إنني أعرف أن وقوف رجال فرنسا أمام هذه المسألة كوقوفهم أمام كل مسألة دينية، فذنب القضاة محمول على كاهل العدالة الإسلامية التي أفرطت كل الإفراط في ولاية غير الأكفاء، وإننا نفضل أن تتدخل الدولة الحامية في أمثال هذه المسائل الحيوية، وأن لا تكل أمورها لمن لا يحسن تدبير أمور معاشه فضلا عن تدبير أمثال هذه الأمور العظيمة، هذا ما يتعلق بالقضاء أوأمأت لحالته المحزنة بغاية الإيجاز، تاركا تفاصيله للمشاهدة المحسوسة.

أما الفتوى فقد أصبحت نقطة سوداء في جبين الشريعة، ولم يبق لها معنى إلا ابتزاز الأموال وتخريف النصوص الشرعية تبعاً للأغراض والشهوات، زيادة عن كون الوظيفة الذي كان يقوم به المفتي وهو مراقبة أحكام القضاة، قد نصبت له الحكومة مجلس الاستئناف الأعلا، فلم يبق إلا القضاء على جرثومة داء الفتوى الفتاك، وبذلك ينجو من مخالب المفتين مئات الأيامي وألوف الضعفاء، وتتوفر على الأمة أموال كانت تصرفها على هؤلاء المفتين دون طائل، وقد تنبه غير واحد من ملوك المغرب الأقدمين إلى مفاسدهم فكانوا تارة يعصرون أفرادهم في عدد معين، وأخرى يقضون عليهم بالكلية كما فعل السلطان مولانا سليمان.

ومنها توسيع نطاق المجالس البلدية، والسعي في أن يكون الرجال المنتخبون للذب عن المصالح أكفاء للقيام بما طوقوا به عارفين بالنافع والضار، أما الطريقة التي يسير عليها الانتخاب الآن فلا تأتي بالنتيجة المقصودة، ضرورة أن المنتخبين بالكسر لم تراع فهم الشروط اللازمة، فقد شاهدت بعيني — يا جلالة المقيم — أناساً عديدين دعوا للانتخاب وهم أميون لا يحسنون رقم أسمائهم، والكثيرون منهم ينيبون غيرهم في التصويت، وهذا من أقيح ما يرى ويسمع، أعضاء منتخبوهم بهذه الصفة ربما خانتهم صفتهم عن تمثيل رغائب الأمة وهذا الذي أوأمت إليه دون ما يقع من التلاعب من بعض أفراد لا ذمة لهم ساعة الانتخاب، من تكليف هذا بانتخاب فلان، وإغراء ذلك بالتصويت لآخر، والتحزب ضد بعض الأعضاء الذين يدافعون عن الحقوق بكل نزاهة وصراحة، وتنبية المنتخبين إلى عدم تجديد ثقتهم بهم، إلى غير هذا مما كان يراه الإنسان ولا يقدر أن يفوه في شأنه بكلمة انتقاد.

وأنتي أحمد الله على هذه الساعة التي أمكن لقلمي أن يصور فيها تلك الحالة لممثل الدولة الحامية التي هي من ألد الأعداء لكل متهاون بالقوانين ومتلاعب بالنظام، ولو لم يكن من محاسن أيام المسيو ستيف إلا هذه المأثرة لكفت.

وكل ما قلته في شأن المجالس البلدية أقوله في شأن المجلس الشوري الأعلا بالنسبة لأعضائه الوطنيين.

إن هذا المجلس الذي تجري فيه أمور هامة تتعلق بالوطنيين وغيرهم ينبغي أن يكون أعضاؤه في غاية التيقظ والنباهة، ومن حنكتهم التجارب واشتهروا بين الأمة

بأعمال تؤهلهم لتمثيلها والذب عن رغائبها، ورجال كهؤلاء يخدمون أممتهم وحكومتهم في آن واحد، أما إذا كانوا بعكس هذه الصفة فضررهم عائد على الشعب وعلى حكومته كذلك : يضررون الشعب من حيث كتم رغائبه التي لا يجدون لسانا بليغا يعبر عنها، ويضررون الحكومة بخطاهم في تطوير آمال الأمة التي تبني أحكامها عليه.

ومادام النبغاء في المغرب الذين يشرحون آمال الأمة وآلامها قليلين، فالواجب على الحكومة أن تنتقي الأمثل فالأفضل، إلى أن تخرج لعالم الكفاءة رجالا بكل معنى الكلمة.

ومنها عدم الاقتصاد في بعض المصارف التي ربما لم تكن البلاد مفتقرة إليها، فينشأ عن ذلك تبذير أموال عظيمة كان الأليق أن تصرف فيما هو أهم، ومن ذلك تشييد الصروح الشاغرة لبعض المصالح الإدارية التي لا تناسب حالة البلاد المالية، ومضاعفة جيوش الموظفين الذين يستحوذون على معظم مداخل الميزانية، مع ظهور أن النصف منهم ربما كان فوق الكفاية، سيما في هذا الوقت العسير الذي لا تقدر الأمة فيه على تحمل ضرائب جديدة باهظة، لما تجلّ على العالم من أزمة الصرف وارتفاع الأسعار ارتفاعا باهظا ضر بالفقير، وضعضع ركن مالية الغني الكبير.

ورجل ناقد بصير كحبيب الأمة المسيو ستيغ، لا يجهل ما تصير إليه حالة البلاد إذا حملت من الجبايا فوق مقدراتها وطاقتها، وصرف معظم ما يجبي منها على فئة كان عليها أن تضرب في الأرض ملتزمة رزق الله، لا أن تكون عالة على الأمة.

قد انقضت أيام الفخفخة كما عبر عنها جنابكم في إحدى خطبه، وحن وقت الجد والعمل، وإن الأمة من أكبر كبير إلى أصغر صغير معلقة على وجودكم آمالا عظيمة، فنسأل الله أن لا يخيب ظنونها وآمالها.

ومنها إصلاح السجون، لا يعزب عن فكرك السليم أن الأمم المتقدمة لا تنظر اليوم إلى الأشقياء — الذين قضى عليهم سوء الطالع أن يكونوا أحلاس السجون — بالعين التي كان ينظر لهم بها وقت أن كان السجين يؤثر سكنى القبور على تلك السجون التي هي أشبه بالكهوف والمغارات.

ومهما ازدادت الأمم تقدما في سبل الحضارة إلا وازدادت عنايتها بالسجون، وفي مقدمة تلك الأمم الأمة الإفرنسية انبيلة التي قامت صروح حريتها على أنقاض حصن الباستيل.

إن حالة السجون يا جلالة المقيم وإن تحسنت حالتها بعد الحماية نوعا ما، إلا أنها مع ذلك لا تناسب ترقيات هذا العصر، فمآكل من بها يرثى لها، وراثاة ملابسهم وفرشهم يؤسف لها غاية الأسف، أما القسوة التي يتخذها ضدهم الموكلون بهم فحدث عن بلوغها النهاية ولا حرج، حكى لي من أثق به أنه ذهب لمشاهدة قريب له بسجن عين مومن فمنع من التمتع بمشاهدته أياما عديدة، ولما أعيته الحيلة جثا على ركبتيه أمام بعض موظفي ذلك السجن وأرخصى العنان لعبوته، فكان جواب ذلك الموظف أن قال له ما أخالك إلا مجنونا، أتظن أن من يساق إلى هذا السجن يبقى له أو لأهله أمل في حياته، اذهب لحال سبيلك وعده — من الآن — في صف الأموات.

ومنها اقرار الحكومة الحامية لبعض العوائد التي كانت جارية في البلاد مع اصطحاب الشرع والعقل على استقباحها واستنكارها، ولم يكن لها من سبب إلا قبض اليد الجائرة على مخائق العباد.

وذلك كمسألة التأديب بالضرب في محاكم الباشوات والقواد بمرأى من الجمهور.

إن هذه المسألة التي وقع إبطال العمل بها في كل الأقطار لم يزل العمل جاريا بها في هذه العاصمة الفاسية، التي لا يأمن الإنسان فيها على نفسه من تلك الأشنوعة بأدنى تهمة وجهت عليه.

وبمجرد أن تسمع سعادتك ما أمليه عليها مما شاهدته بعيني تعلمون مبلغ السبة التي ستبقى عالقة بهذه المدينة الفيحاء.

كنت في احدى الأيام بمحكمة الباشا فأتى إليه بامرأة اتهمت بسرقة، وبعد استنطاقها أنكرت ما اتهمت به فما كان من سعادة الباشا إلا أن أمر بضربها بالسياط على أشنع حالة أمام جماهير الحلائق، وأثناء العملية أتت المصادفة بسائح انجليزي وقرينته لتلك المحكمة، وما وقع بصرهما على تلك المرأة الصريعة حتى

كادا أن يغنى عليهما وأبرقا وأرعدا ثم خرجا ساخطين شامتين، ولما سألت الترجمان الذي كان معهما عن أفظع ما نطقا به حالة غيظهما أجابني بأن السيدة قالت لقرينها في سياق استهجانها لما رأيته : لا أعلم — الآن — بقعة من الأرض مهما بلغ توحش أهلها يجري فيها مثل ما رأينا وقوعه بأعيننا في عاصمة اشتهر أهلها من قديم بمثافتهم للحضارة، وأشنع من ذلك وقوع هذا الأمر الفظيع في عصر الحماية الإفريقية التي تحت كثرا من المظالم الجارية بهذه البلاد، ثم غيرت لهجتها وقالت له بصيغة المتكلم : إننا لو أصبحنا معنا ألتنا الفوتوغرافية وخذلنا صورة هذا المنظر البهيج لكان أجمل تحفة نقدمها لأصدقائنا ومواطنينا الأعزاء.

ولا يخفى على جنابك الكريم أن نشر أمثال هذا بالبلاد الأجنبية محل بشرف هذه المدينة ومحل بالسياسة الحميدة التي تريد الجمهورية الفرنسية أن تسير عليها في هذه البلاد.

ومنها احتقار بعض صغار الموظفين الافرنسيين للأهالي ومخاطبتهم لهم بأقبح صيغ الشتم والسباب، والحق أقول أن غالب ما يقع هو من صغار الموظفين الذين ليس معهم من العلم ما يؤدبهم ويهذب أخلاقهم، وذلك كتراجمة بعض الإدارات وكعملة البوسطات وسماسة بعض شركات النقل ومن هم على شاكلتهم، والأهلي البسيط لا يفرق بين مراتب من أهانه ويرى أن الإهانة إنما لحقته من صفة كونه وطنيا مسلما.

شاهدت ياسعادة المقيم، حوادث من نوع احتقار الأهالي لا تدخل تحت العدد، وإنني أمثل لك باثنتين منها : الأولى كنت في بعض الأيام بإدارة الأحواز وهي غاصة برجال البوادي، وهناك ضابط مترجم صغير السن والرتبة هو المتولي لفصل القضايا المهمة بمحضر القواد، فلم يقع بصري عليه إلا سائبا شامتا قادحا مهينا للوجوه والأعيان ساخرا بهم، وكان يؤديه الحال ساعة بعد أخرى لصفع هذا ولكم ذاك أمام تلك الجماهير من الناس، ولا يخفى على جنابك الكريم ما يثير ذلك من الأحقاد في النفوس، الثانية : دخلت يوما لبريد هذه المدينة بقصد شراء طوابع بوسطية، فوقفت أمام الموظف المكلف بذلك وطلبت منه ما أردت، فاستغرق في الحديث مع بعض رفاقه ساعة كانا في أثنائها يلمحاني بأعينهما ساخرين، ولما ضقت ذرعا من تلك المعاملة المشينة خاطبته بلهجة تشف عن الاستياء، فهز كتفيه

وأشاح بوجهه وقال لي لابد أن تقف ربع ساعة أخرى جزاء لك على تأفك، فبقيت سجيناً لهذا العامل الصغير حتى انتهت المدة التي حددها لإيقافي على التدقيق، وذهبت لحال سبيلي وأنا أستمطر اللعنة على الحاجة التي أوقفتني أمام ذلك العامل بصفة الذليل المهين.

إنه من السهل على الحكومة أن ترشد موظفيها إلى حسن معاملة الأهالي بإصدار إنذار عام لهم، وبجعل كئاش بكل إدارة لتقييد الشكاية بكل موظف تجاوز حدود وظيفته وأساء معاملة أخيه الوطني، وبذلك يرتدع الموظفون عن غيهم وتذهب الأسخام والحفاظ من الصدور.

ومنها التلاعب الواقع ببعض المستشفيات من مقابلة المرضى بما لا يليق بحالتهم من سوء الأخلاق ولا سيما الفقراء منهم، ومن مطالبة بعضهم بأداء ثمن الأدوية الذي لم يسمع أغرب منه، إذ مصارف المستشفيات هي أول ما يرقم في ميزانية البلديات، أما عيادة المرضى في بيوتهم فالضريبة الموظفة عليها ليس لها حد تقف عنده، بل ذلك تابع لتقدير الأطباء أنفسهم الذين يعتمدون في تقديراتهم على حرز مالية الشخص المريض.

ومما يقع بالمستشفيات هنك حرمان من يفد عليها من النسوة الصينيات، بمغازلة بعض خدمتها من شبان الأهالي الطائشين وتكشفيهم عن محارمهم التي لا تبيحها لهم شريعة البلاد، وقد أصبح جل النسوة اللاتي يذهبن للمستشفيات يحسبن في عداد الساقطات، ولا أسهل من رتق هذا الفتق بأن يخصص بكل مستشفى سيدات فرنسيات تقف مع رئيس المستشفى ساعة مباشرته للعمل بقسم النساء، بدلا من الشبان الذين لم يربوا على الحشمة وحفظ ناموس الأدب والمروعة.

هذه — يا جلالة المقيم — نبذ من أدواء المغرب التي يشكوها لطبيبه أو مأت إلى بيانها بغاية الإيجاز، إذ تفاصيله تحتاج إلى تقارير واسعة الأطراف ضافية الذبول، لم أنخير لها معنى رقيقاً ولا انتقيت لها جملاً بليغة، بل خطتها يراعتي طبق ما أملاه عليّ الوجدان، وإن الأمة المغربية لمرتقبة بفارغ صبر ما ستستوئنه من النظامات العادلة لمستقبلها، وأضعة فيكم من الثقة ما لم يحرز عليه ممثل من ممثلي فرنسا. وكان من أجل الأدلة لهم على حسن نواياك، ارتداؤك برداء البساطة في سائر

شعونك وتباعذك عن الظهور بمظاهر الفخفخة التي يتحاشاها عظماء الرجال.
أرجو من جنابك الفخيم أن تمنع النظر في خطابي هذا، الذي أشهد الله على أنني لم أخطط فيه جادة الحقيقة، وأن تجري الأبحاث اللازمة عن كل جزئية من الجزئيات التي تضمنها، لتوضح لك الحقيقة، وتعلم أن الأمة كان مضروبا بينها وبين المفاهمة مع ممثل الدولة الحامية لها بسور من حديد.
وهاأنا أنتظر جوابكم الممتع، لأرقص فرحا وسرورا إذا تبين لي من ثنايا مسطوره أن خطابي صادف منكم قبولا حسنا، ووقع منكم موقعا جميلا، وتقبل في الختام فائق احترام المحب المخلص : أحمد بن محمد التميمي.

در السلك و عروض بلیغ غرافیه

المصادر العربية لتاريخ المغرب

محمد المنوني

. كلية الآداب — الرباط

المحاضرة الثالثة والعشرون

المصادر التاريخية

المدونة في العصر العلوي الخامس

1349 - 1376 / 1930 - 1956

المرحلة الثانية

القسم الثاني

نقط المحاضرة (تابع) :

المذكرات.

الأنساب.

الرحلات.

تاريخ الأدب العربي.

تاريخ العلوم.

فهارس الخزائن.

م — المذكرات :

1723 — «مذكرات العلوي» : الطيب بن أحمد المدغري المكتاسي نزيل

فاس، ت 1383/1964.

مذكرات مطولة مهد لها بالإلمام بواقع المغرب بعد حربي ايسلي وتطوان، مع إشارة إلى البعثات الحسنية ومصرها، إلى ما تحفل ذلك من أزمات داخلية : سياسية واقتصادية واجتماعية، ملاحظا تصاعدها بعد وفاة الوزير احماد حتى أفضى ذلك إلى اعتداء فرنسا على الصحراء : الشرقية والغربية واقطاع توات وموريطانيا من المغرب.

وبعد إشارة وجيزة لسير التعليم الإسلامي بالأرياف المغربية وفاس، تخلص المؤلف للحديث عن بداية مساهمته في العمل الوطني حوالي 1925، وما عانى في ذلك بالأطلس المتوسط من سجن وارهاق ونفي، مبرزا ما كان للحرب الريفية والظهور البربري من نتائج لصالح الوعي الوطني.

تلك خلاصة وجيزة للصفحات المختارة من هذه المذكرات، وقد نشرت في مجلة «الموقف» بالعدد الرابع المؤرخ في ربيع الثاني 1408/ دجنبر 1987، ونص المذكرات — كاملا — لايزال مخطوطا في حوزة ابني المؤلف الأستاذين رشيد وأحمد.

1724 — «الإلغيات»: تأليف رضا الله محمد المختار السوسي، س.ذق. 1619.

شبه سيرة ذاتية كتبها أيام نفيه في بسيط «إليخ» بسوس، وبذلك بدأها بتسجيل انطباعاته عن حياته في فترة منفاه سنوات 1355 — 1364هـ، وخلال ذلك كان المؤلف قد وصل إلى قمة الأربعين من عمره، فانتقل يدون محطات حياته من ولادته إلى مراحل تعلمه الأولى، فمأخذه للعلوم، فطور الأستاذية... 213/2 — 232.

ثم طغى على الجزء الثالث أدبيات المؤلف شعرها ونثرها : منه وإليه، فضلا عن تدوين جملة من محاوراته مع ثلة من أدباء سوس في مواضيع متنوعة. وبذلك جاء هذا العمل — حسب ملاحظة المؤلف — شبه مذكرات من ناحية، وشبه مجموعة أدبية من ناحية أخرى.

مطبعة النجاح — الدار البيضاء 1382 — 1383/ 1963، في ثلاثة أجزاء من حجم متوسط : 256 × 240 × 233ص نصا وفهرسة.

استخدمت «الإلغيات» الطالبتان سعد الله فاطمة وآد لفقيه وفاء في بحث لنيل

الإجازة في اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بمراكش، بعنوان «الإليغيات دراسة وفهرسة» تحت إشراف د. حسن جلاب : 162 ص مرقونة في حجم كبير.
1725 — «مذكرات الطريس» : عبد الخالق بن أحمد بن محمد بن العربي
التطواني، ت 1390/1970.

والقصد إلى مذكراته الخاصة بالحركة الوطنية : 1923 إلى 1956 : البعض
منها يربطه عبد الخالق الطريس، والبعض الآخر في خزانة الأستاذ محمد ابن عزوز
حكيم، وقد نشر منها قسمان :

الأول : بعنوان «يوميات زعيم الوحدة»، ويستوعب 11 سنة. 1923 —
1933 : موزعة بين جزئين، وهما منشوران بتحقيق الأستاذ محمد ابن عزوز
حكيم، وقد أثارهما جهامش مركزة، ورسوم للشخصيات والأماكن، مع نماذج
من خط صاحب المذكرات وخطوط أخرى.

الجزء الأول سنوات 1923 — 1932، مطبعة الساحل — الرباط 1989 :
329 ص.

والجزء الثاني سنة 1933 — 1939 خال من اسم المطبعة : 337 ص عدا
الملاحق، والجزعان في قطع متوسط.

القسم الثاني بعنوان «من مذكرات الزعيم» : الجزء الأول الخاص برحلة الوفد
الوطني إلى مدريد سنة 1934 لتقديم مطالب الأمة بالمنطقة الخليفة.
نفس المطبعة والمحقق والحجم : 100 ص.

1726 — الزاوية : من تأليف التهامي الوزاني، س.ذ.ق. 1617.

مذكرات كتبها — بالأساس — عن تطلعاته الصوفية، إلى أن انتهى به المطاف
إلى الزاوية الحراقية بتطوان، فيوسع الحديث في التعريف بشيوخها ومريديها،
وأشغالها وملازمته لها.

وإلى ذلك تتخلل المذكرات أنماط من ارتسامات المؤلف عن حياته التعليمية
وعلاقاته مع عدد من أصدقائه، ثم الأحداث التي عاصرها، وخصوصا وقائع
احتلال إسبانيا لتطوان سنة 1913، إلى موضوعات أخرى متنوعة.

لم تنشر المذكرات بكاملها، وصدر منها الجزء الأول عن مطبعة الريف بتطوان
1361 / 1942 : 215 ص عدا فهرس التصويبات.

1727 — «مذكرات بوية» : أحمد بن الجليلي بن علي الدكالي ثم الزموري
القبلي، ت 1399 / 1978.

وهو يقول عن منهجيته في تدوينها : «وسأتابع في تسجيل هذه المذكرات طريقة
سردها حسب الزمان والمكان، منذ نشأتي إلى وقتنا هذا الذي هو فاتح محرم الحرام
1398، موافق 12 دجنبر 1977.

كما يذكر عن توثيق عمله : «أنه توخى فيه ما عايشه شخصيا، أو سمعه من
الأباء والأجداد والأصدقاء، يتحرى — جهده — البحث عن الحقيقة، ويحصص
الروايات المتعددة فيأخذ منها ما هو صحيح الإسناد ثابت الأركان».

والمذكرات — في معظمها — ترجمة ذاتية دون فيها انطباعاته عن الفترة التي
عايشها، أو التي سبقت حياته وعرفها عن طريق المسنين الموثقين، وبهذا تتناثر
في المذكرات معلومات جمة عن حياة المؤلف وما عاصره أو سمعه من الأخبار
عن منطقتهم وسواها، وبين ذلك حديثه عن حفظه للقرآن بمسقط رأسه، ثم رحلته
لتلقي المبادئ في مدرسة بني مرعاز بجبل زرهون ووصفه للحياة التعليمية بها،
وزيارته لبني عمار وقرية سيدي عبد الله الخياط، وعند ذكر رحلته لفاس يتوسع
في ارتساماته عن شيوخه والمواد التي درسها عليهم بالقرويين وسواها.

وهو يبرز كيف واكبت إقامته بفاس نشاط «كتلة العمل الوطني» ونشر الحركة
الوطنية بزمور، مع إشارته لأصدقاء النشاط الوطني بسوريا وفلسطين عن طريق
الصحافة العربية، وكذلك الحرب الريفية. وإلى هذا تنصدر المذكرات نظرات عن
تاريخ قبائل زمور وأنظمتها، استنادا إلى بعض المصادر أو إلى مشاهدات المؤلف
والروايات الشفوية.

كما يبرز الأعمال البطولية بالمنطقة ضد الغزو الفرنسي، فيذكر المجاهدين
وأعمالهم، ويسمي أبطالهم وزعماءهم، وخلال ذلك يشير إلى روائع الكفاح خارج
زمور : بالأطلس المتوسط والكبير والصغير.

ومن جهة أخرى يهتم كاتب المذكرات بإرجاع عدد من الأسماء الأمازيغية إلى

أصولها أو مرادفاتهما، ومن نماذج ذلك هذه اللقطات حسب تعابيره : «ولعل الاسم الذي يتقارب مع لغة تامازيغت هي كلمة زناڭة لا صنهاجة، فكلمة صنهاجة معربة كلمة زناڭة».

جراوة سكان تادلا يعرفون اليوم بآيت ويّرة، أي آل «الجرأوي».

«اسم زانا الزناقي محرف عن أجانا».

«زواوة يقال لهم — أيضا — زواغة أو زواڭة».

وقفت ارتسامات المذكرات عند آخر سنة 1936، ويقع الموجود منها في سفيرين بخط المؤلف، وهو يميل إلى الوضع المشرقي مع دقة وادماج، ويتسلسل ترقيم السفيرين إلى 610 ص من حجم كبير، حيث يحتفظ بهما ابن المؤلف الأستاذ فوزي.

1728 — «مذكرات الخطيب» : محمد العربي بن أحمد بن محمد التطواني، من ذرية الشيخ أبي يعقوب الزّهيلي البادسي، ت 1400 / 1980.

تتسلسل فيها معلومات عن حياته في الكتاب، ومنه إلى مرحلة تعلمه بتطوان وفاس والقاهرة، إلى أن دخل لمعترك التجارة والتوظيف والصحافة، ولظروف سياسية غادر تطوان إلى جنوب المغرب، فاستقر في قصبة ابن أحمد بالشاوية ثم الدار البيضاء، ومن طنجة سافر للحج عام 1350 / 1932، فاتصل في مصر بأستاذه الشيخ محمد رشيد رضا، وبعد قضاء الحج والزيارة انتقل للشام وزار «مدرسة النجاح» بنابلس، وقام بجولة في فلسطين وسوريا.

وقد تخلل هذه العروض انطباعات المؤلف عن شيوخه بتطوان وفاس والقاهرة، وعن بعض رفقاءه التطوانيين بالقرويين، ثم عن اتصاله الأول بالشيخ محمد رشيد رضا، ودراسته في مدرسته التي أسسها في القاهرة باسم «دار الدعوة والارشاد»، بعدما كان انتسب للأزهر وسكن في رواق المغاربة، إضافة إلى خواطره عن الحج والزيارة، وعن الشيوخ الذين اتصل بهم بمجال شياخته في المشرق العربي.

تلك لمحات من موضوعات هذا العمل، اقتباسا مما نقله عنه ابن مؤلفه : الأستاذ الباحث إسماعيل الخطيب، خلال الترجمة المركزة التي كتبها لوالده، حيث يحتفظ بالنسخة الكاملة من هذه المذكرات.

2/1728 — «هذه مذكراتي»، عمل الجراي : عبد الله بن العباس، س.ذ.ق
1671.

مذكرات كتب منها — حسب ترجمته — جزئين : الأول من ولادته إلى سنة
1944، والثاني : إلى سنة 1950.
منها نسخة مرقونة في خزانة المؤلف بالرباط.

1729 — «على رأس الأربعين» عنوان المذكرات التي كتبها محمد داود
التطواني س.ذ.ق 1647.

دونها عن حياته إلى أن وصل سن الأربعين. لاتزال مخطوطة عند أسرته.
1730 — «المخالي والمخالف»، اسم مذكرات محمد بن أبي بكر اشعاعو السلوي
القائم الحياة.

تتبع فيها تدوين الأحداث المغربية التي شاهدها أو سمعها ممن يوثق به، حسب
«دليل مؤلف المغرب الأقصى» رقم 2223، مخطوطة عند مؤلفها في مجلدتين.
ملاحظة :

هناك مذكرات ذات موضوع موحد، وهي التي سبق عرضها في أمكنتها
المناسبة من هذه المحاضرة عند أرقام : 1626، 1630، 1637، 1638،
1640.

ن — الأنساب :

1731 — «تحفة الأكياس فيما غفل عنه صاحب كتاب زهر الآس في
بيوتات فاس» مؤلفه هو الكتاني : محمد بن عبد الكبير بن هاشم الحسني
الإدريسي الفاسي، ت 1362 / 1943.

استدرك فيه من أسر فاس، ما بقي على والده في كتابه «زهر الآس» س.ذ.ق
1357. مخطوط في حوزة أسرة المؤلف.

1732 — «أنساب السوسيين» تأليف رضا الله محمد المختار السوسي س.ذ.ق
1619.

- يقع الموجود منه في دفر محفوظ عند أسرته.
- 1733 — «لغة عن تاريخ تطوان وعائلاتها الأندلسية الأصل»، تأليف جيبور عبد الرحيم بن العدي التطواني ت 197/139.
- محاضرة منشورة بالمطبعة المهدية — تطوان 1948 : 27 ص في حجم صغير. مذيلة بترجمتها للإسبانية : 21 ص.
- 1734 — «إزالة الالتباس عن قبائل سكان مدينة فاس»، لأبي خليل عبد السلام ابن سودة س.ذ.ق 1667.
- تتبع فيها قبائل مدينة فاس بقسميها، القديمة وفاس الجديد، وبعد مقدمة موضوعية من خمسة أبحاث، انتهى إلى التعريف بأكثر من 2400 أسرة بين الباقي منها والمنقرضين، مصنفا لها حسب الترتيب المغربي للحروف الهجائية.
- خ.س 10652 : جزعان مرقونان 254×197 ص في حجم فوق المتوسط.
- 1735 — ثم اختصوها باسم «قطف أزهار الآس من روض لإزالة الالتباس»، وقدمه لمهرجان جامعة القرويين بمناسبة ذكرها المائة بعد الألف، فنشرت قطعة منها بالكتاب الذهبي للذكرى جامعة القرويين : ص 173 — 179.
- أما الاختصار كاملا فقد أدرجه المؤلف في افتتاحية أصله «إزالة الالتباس».
- 1736 — «عائلات تطوان» لمحمد داود التطواني س.ذ.ق 1647.
- حسب المؤلف فإنه أكمل منه نحو 600 ص تستوعب ما يزيد على 1200 عائلة أسهب في التعريف بها.
- مخطوط عند أسرة المؤلف في جزعين.
- 1737 — اختصره مؤلفه في لائحة اقتصر فيها على أسماء الأسر، ورتبها على الحروف الأبجدية.
- ثم نشرها بذيل كتابه «مختصر تاريخ تطوان س.ذ.ق 1648 : من الصفحة 329 إلى 339.

ص - الرحلات :

أ - إلى المشرق العربي :

1738 — «دليل الحج والسياحة» تأليف الهواري : أحمد بن محمد الفاسي،
نزول الرباط ثم الدار البيضاء، ت 1372 / 1953.

كما يدل العنوان أعلاه، فإن هذا الدليل يعتبر خطابا لكل من الحاج والسائح،
فيرشد الحاج إلى أعمال وجهته نسكا وزيارة، ويعرف الفريقين بالأماكن التي
يقصدها، وبالأجراءات المنوعة التي يسرون عليها، ملاحظا في ذلك ما يتجدد
من الأنظمة الجديدة على مستوى التنقلات، وعند المبادلات النقدية، ويضيف
التعريف بمختلف النفقات في مقابل الركوب وأئمة الحاجيات.

وهو يقدم هذه المعلومات خلال مسار رحلته عام 1352 / 1934 إلى القاهرة
والحرمين الشريفين وبيروت والقدس الشريف وسوريا واسطنبول وفرنسا، فيدرج
ذلك خلال ارتساماته عن المناطق التي زارها.

مؤدبا صياغة الرحلة في تعبير سهل، وموضحا بالرسوم للأشخاص والأماكن.
نشر دليل الحج والسياحة في سفر المطبعة الرسمية، الرباط 1354 / 1935،
315 ص عدا الإعلانات.

1739 — «القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى»
لمؤلف من فاس لم يذكر اسمه.

وقد حج عام 1352 / 1934، وزار في طريقه القاهرة فوصف جملة من
معالمها، ومنها انتقل إلى جدة والحرمين الشريفين، فاستوعب ارتساماته عن كل
من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبعد قضاء الحج والزيارة سافر إلى بيروت في
طريقه إلى القدس الشريف، ومنه إلى دمشق، مسجلا انطباعاته عن هذه البقاع
الشامية، وعن المدن التي مر بها في طريق عودته - بحرا - إلى المغرب.

منها مصورة خاصة تشتمل على 33 لوحة في قطع متوسط.

1740 — «رحلة حجازية» من تأليف أبي خليل عبد السلام ابن سودة
س.ذ.ق. 1667.

دون فيها ارتساماته عن الحرمين الشريفين في حجته عام 1389/1970،
وتوسع في الحديث عن أسرار الحج إلى حدِّ الإغراب في بعض الاستنتاجات.
لاتزال مخطوطة في سفر عند أسرة المؤلف.

(ب) إلى فرنسا :

1741 — «بعثة الشبان المغاربة بفرنسا» لأبي المواهب جعفر الناصري
س.ذ.ق. 1623.

سلسلة مقالات وصف فيها الرحلة الاستطلاعية إلى فرنسا في صيف 1922،
وقد رشح لها عشرة من قدماء التلاميذ المغاربة بالمدارس العصرية من ثانويتي فاس
والعدوتين، وكان كاتب هذه المقالات في جملتهم.

منشورة في جريدة «السعادة» على امتداد عدة أعداد منها أربعة كالتالي :

عدد الأربعاء 29 حجة 1340 / 23 أوت 1922.

عدد الجمعة 8 محرم 1341 / 1 شتبر 1922.

عدد الاثنين 10 صفر 1341 / 2 أكتوبر 1922.

عدد الأربعاء 12 صفر 1341 / 4 أكتوبر 1922.

(ج) إلى وجهات متعددة :

1742 — «تحركات إسلامية» لكتّون : عبد الله بن عبد الصمد بن التهامي
الفاسي نزيل طنجة 1409 / 1989.

مجموعة مقالات وصف فيها تنقلاته إلى جهات إسلامية حسب رسمها في
العناوين التالية :

— مشاهداتي في الحجاز : (1376 / 1957).

— المؤتمر الإسلامي العام بمكة : (1384 / 1965).

— رحلتنا إلى الاتحاد السوفياتي : (1388 / 1969).

— من حديث الحج : (1388 / 1969).

— المؤتمر الإسلامي الدولي بماليزيا : (1389 / 1969).

— مؤتمر ممثلي الأديان في الاتحاد السوفياتي : (1389 / 1969).

— زيارتي للجزائر : (1389 / 1969).
 — أيام في يوغوسلافيا : (1390/1970).
 — الملتقى السادس بالجزائر للتعرف على الفكر الإسلامي : (1392 / 1972).
 — المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة : (1395 / 1975).
 نشر دار الطباعة الحديثة — الدار البيضاء دون تاريخ : 254 ص في حجم صغير.

(د) في داخل المغرب :

1743 — «من الحمراء إلى إيليغ» لرضا الله محمد المختار السوسي س.ذ.ق. 1619.

رحلة كتبها — عام 1354هـ — عن سفرته من مراكش إلى بلدته إيليغ، وفيها وصف موسع لقبيلتي حاحة وكسيمة وما إليهما، مخطوطة عند أسرة المؤلف في سفر.

1744 — ولنفس المؤلف «خلال جزولة»، دون فيها انطباعاته عن أربع رحلات قام بها إلى بعض جهات سوس أعوام 1361 — 1363هـ، وركز على ثلاث مناطق : تارودانت وما حولها، وأكادير وما إليه، وتزنيت وناحيتها، وبذلك نوه — إلى جانب هذه الجهات — بمعالم أخرى بالمنطقة : قرى أكثلي، وتالبرجت وفونتي، وماسة، ومشهد ش وثاك ورابطته، وأكلو، وأكرار، وإيليغ، وتمدلت، وتامانارت، وفم الحصن، وأقا وطاطة، وسواها كثير.

فيصف الآثار المعمارية : القائمة وبقايا المندثرة، كما يعرف بالمساجد والمدارس والقائمين عليها، ويهتم — أكثر — بالخرانات العلمية، فيصف أعدادا كثيرة من مخطوطاتها في لوائح مستوعبة، فضلا عن مجموعة كبرى من تراجم النابيين : علماء ورؤساء، إلى أحاديث عن المستويات الأدبية المحلية.

المطبعة المهدية — تطوان دون تاريخ، وصدرت في أربعة أجزاء 123 × 260 × 217 ص عدا الفهارس.

1745 — «الرحلة الفاسية» لأبي المواهب جعفر الناصري س.ذ.ق. 1623.
 دون فيها ارتساماته عن مدينتي فاس ومكناس لما زارهما في بعثة طلابية.

نشرت بعض فصولها في جريدة «السعادة»، حسب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» رقم 1567.

وللمؤلف الجرازي : عبد الله بن العباس جملة رحلات صغرى، نستعمل الإشارة لها من ترجمته.

1746 — «عشرة أيام في مراكش» : جمادى الثانية : 1353 / 1934.

1747 — «نزهة الاقتباس من خمسة أيام في فاس» : محرم 1354 / 1935.

1748 — «قرة العيون من سبعة أيام في مكناصة الزيتون وجارعتها زرهون» : ربيع الثاني 1355 / 1936.

1749 — «الرحلة السطاطية» : جمادى الثانية 1357.

1750 — «جولة في وجدة» : جمادى الثانية 1358 / 1939.

1751 — «الرحلة الربيعية إلى عاصمة فاس العلمية» : ربيع الأول 1362 / 1943.

الرحلات الست لاتزال مخطوطة في خزانة مؤلفها بالرباط.

1752 — نذيل على الرحلات بكتاب «دليل السائح في المغرب الأقصى» تأليف محمد البيوي س.ذ.ق 1615.

وصفه في «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» عند رقم 1458 : «تكلم فيه على كيفية السياحة في جل المدن الشهيرة بالمغرب الأقصى، وعلى كيفية السير فيها، وعلى ما بكل واحدة من الآثار والمعاهد، يقع في نحو الخمسة كرايس، وفرغ منه سنة 1926 موافق 1345...».

نشر المؤلف فصلا منه في مجلة «الثقافة المغربية» الصادر بالرباط، عدد 2 من السنة 4 بتاريخ شعبان 1363 / غشت 1944، ص 374 — 377.

غ — تاريخ الأدب العربي :

1753 — «مترعات الكؤوس في بعض آثار لأدباء سوس»، تأليف رضا الله

محمد المختار السوسي س.ذ.ق 1619.

مجموعة كبرى حفلت بمختارات الآثار الشعرية والنثرية لطائفة من أدباء سوس، وهم الذين لم يرد ذكرهم — غالبا — في «المعسول»، فينطلق المؤلف — حسب منهجيته — من القرن 10 هـ حتى عام 1352، دون أن يغفل الأدباء الأحياء الذين ذكر منهم 35 اسما ممن وجد تحت يده آثارهم، وبذلك جاءت هذه المدونة تختزن رصيда مهما من أدبيات المنطقة، مع التعريف بأصحابها في تراجم مختصرة.

النسخة الرئيسية من «مترعات الكؤوس» لانزال بخط مؤلفها عند أسرته، وتقع في ثلاثة أسفار تستوعب 624 ص من القطع المتوسط، حسب المخطوطة التي اطلع عليها ووصفها — لي مشكورا — ابن أخي المؤلف الأستاذ عبد الله الدرقاوي.

1754 — «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، مؤلفه هو القباچ : محمد بن العباس الرباطي، ت 1399 / 1979، أرخ فيه لنخبة من شعراء المغرب الأقصى المعاصرين، وتخير منهم 27 اسما موزعين بين ثلاث طبقات :
— الأدباء الشيوخ الذين يمثلون أدب الماضي بطلوته وأغراضه.

— ثم طبقة المخضرمين، وهم الذين تضلعوا في الأدب القديم وأخذوا من الحديث، والقسمان يستوعبهما الجزء الأول في 16 ترجمة.

— أما الطبقة الثالثة فيمثلها شعراء الشباب، وقد تجاوزوا — إلى حد — مع التقدم الذي صار إليه عصرهم، وهؤلاء هم موضوع الجزء الثاني في 11 اسما. والمؤلف يصدر مختارات كل شاعر بصورته إن عثر عليها، مع ترجمته من عمل المؤلف، وقليل منها بأقلام أصحابها.

وبهذا فإن كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى» كان له السبق في تبريز أعداد — ولو أنهم قلة — من شعراء المغرب خلال النصف الأول من القرن 14 هـ، وقد أعلن المؤلف في خاتمة الكتاب أنه سيذيله بجزء ثالث يضم طائفة أخرى ممن هم على شرطه، غير أن هذا الجزء لم يقدر له الظهور.

نشر — للمرة الأولى — في المطبعة الوطنية بالرباط 1347 / 1929 في جزعين من قطع دون المتوسط : 128 × 131 ص، وأعيد نشره بالتصوير 1400 /

1979 في مطابع فضالة — المحمدية، بمبادرة من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية.

1755 — «شعراء المغرب الأقصى وأدباؤه المعاصرون»، للأستاذ عبد الله الجبراري س.ذ.ق 1671.

بدأ تأليفه سنة 1970 وخرج منه الجزء الأول، حيث استوعب فيه التعريف بواحد وعشرين شاعرا بين شيوخ وشباب : من القنيطرة وفاس والرباط وسلا وطنجة ووعدة ومراكش والعرائش وسوس، فيصدر ترجمة كل شاعر بمعلومات مختصرة عن حياته، ليعقب عليها بتقديم مختارات متنوعة من شعره.

الجزء الأول — الذي أنجزه المؤلف — حققه الطالب سعيد الفاضلي، في رسالة جامعية د.د.ع : 143 ص في حجم عادي، كلية الآداب — الرباط.

1756 — «النبوغ المغربي في الأدب العربي»، مؤلفه هو الأستاذ عبد الله كثنون س.د.ق 1741.

حدد المؤلف منهجية عمله عند افتتاحية الطبعة الأولى في هذه الفقرة : «هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة، ورمينا بذلك إلى تصوير الحياة الفكرية لوطنتنا المغرب وتطورها في العصور المختلفة، من لدن قدوم الفاتح الأول إلى قريب من وقتنا هذا».

ومن هنا نتبين أن الكتاب يؤرخ للأدب العربي بالمغرب في مدلوله الشامل للعلوم العربية وسواها، وينطلق المؤلف من العصور الأولى للفتح الإسلامي حتى يصل إلى قريب من عصر التأليف، فيقدم عن هذه الفترة المديدة نبذا مركزة من تاريخها وأعلامها، مع مختارات موسعة من النصوص منثورها وموزونها : فصحا وزجلا : فضلا عن تأطير ذلك بأبواب وفصول تدرس الحياة الفكرية في مختلف عصورها واتجاهاتها، على أن تاريخ الأدب بمفهومه المتداول يطنى على مواضيع الكتاب، وخصوصا عند قسم النصوص نثرها وشعرها.

تعددت طبعات «النبوغ المغربي»، وصدر للمرة الأولى عن المطبعة المهدية بتطوان 1356/ 1937 في جزئين متوسطين : الأول للدراسة، والثاني للنصوص، ومن هذه كانت ترجمته إلى الإسبانية. الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة 1961، بمبادرة

دار الكتاب اللبناني — بيروت، وصدرت في ثلاثة أجزاء : الأول للدراسة والثاني للنصوص النثرية، والثالث : قسم المنظوم، الطبعة الثالثة صدرت عن نفس الدار سنة 1975 في مجلد يجمع الأجزاء الثلاثة، وبها زيادات، الطبعة الرابعة : صدرت وشيكا في مجلد غفل من التاريخ واسم المطبعة، ويتخللها بتر في الجزء الثالث. 1757 — ولنفس المؤلف «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، وتعتبر التكملة الأولى لكتاب «النبوغ المغربي».

ويوضح المؤلف الغاية من هذه الذكريات ومنهجيته في تصنيفها : «... وذلك أن «النبوغ» كان كتابا جامعا ودراسة محيطية بالشاذة والفادة، وكان لكل فصل فيه مقدمات يراد منها الوصول إلى نتائج، فلم يتأت التوسع في باب فيه دون باب، وقد بقيت في النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه، خصوصا المشهورين منهم... على أننا لا نعد بكتابة تراجم علمية لهؤلاء الأشخاص قائمة على التحليل، ومستوفية للأغراض الواجبة في هذا الصدد، لأن المصادر تعوزنا كثيرا...»

وقد نهجنا في كتابته منهاجا أدبيا بديعا، فأنت تقرأ الترجمة وكأنك تقرأ قصة مسلسللة الفصول...».

وقد ظهر من الذكريات أربعون كراسة طبع منها خمسة وعشرون بمبادرة معهد مولاي الحسن بتطوان، ثم قامت دار الكتاب اللبناني بنشر ما بقي منها إلى 40 جزءا مع إعادة نشر الأجزاء 25، ومجموعها تتنوع اتجاهات أصحابها بين أدباء وعلماء وساسة فهي ثلاثة أنماط يتكون من أجزائها سفر كبير بمثابة التكملة الأولى للنبوغ المغربي.

1758 — وللمؤلف ذاته «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث»، محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية بالقاهرة، وقد تبينا — سلفا — أن «النبوغ المغربي» يقف به المؤلف إلى قريب من عصره، وبذلك فإن هذه المحاضرات، تعتبر — إلى حد — كتكملة ثانية للنبوغ المغربي إلى مبادئ الستينيات، غير أن المؤلف أثر في منهجيته أن يقدم الأدب في آثار أعلامه وليس الأدباء في آثارهم.

وهو يصدر عمله بمداخل يمهّد بها إلى وظيفة المحاضرات : أدب فجر النهضة بالمغرب الأقصى، فأدب الجيل الجديد، ويتبع — عبر المرحلتين — اتجاهات الأدباء على مستوى أغراض كل من النثر والشعر، وإلى تحليلها يتوسع في عرض النماذج حسب تنوعها.

دار الرائد للطباعة — القاهرة 1964 : 214 ص في قطع متوسط.

1759 — ونلحق هنا من آثار المؤلف المنوه به : «أمرأؤنا الشعراء»، كتيب رصد فيه أشعار الأدباء من أمراء المغرب، انطلاقاً من الإمام إدريس الثاني إلى السلطان الحفيظ، وطرزه بتعاليق تناسب موضوع الأطروفة المؤلفة برسم الخزانة الخليفة بتطوان.

المطبعة المهدية بتطوان دون تاريخ : 68 ص في حجم صغير.

1760 — «دراسات في تاريخ الأدب العربي بالمغرب الأقصى» للأستاذ محمد الفاسي س.ذ.ق 1624.

ويعتبر هذا العمل الباكورة الأولى للكتابة التاريخية بالمغرب في نسق المنهجية الغربية الحديثة، مما أفاده المؤلف من دراسته الجامعية بباريس، ولم تجمع هذه الأبحاث في كتاب وبقيت موزعة بين الصحف والمجلات، وهذا جرد لعناوينها مع الدوريات المنشورة بها :

أ) هل كان للمغاربة أدب في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي ؟

جريدة «المغرب» — سلا على امتداد خمسة أعداد :

- 1 — العدد الممتاز الأول رقم 312 — 23 دجنبر 1939 : ص 3.
- 2 — العدد الممتاز الثاني رقم 332 — 16 يناير 1940 : ص 3 والبقية ص 9.
- 3 — العدد الممتاز الثالث رقم 346 — 4 يناير 1940 : ص 3.
- 4 — العدد الممتاز الرابع رقم 360 — 27 يناير 1940 : ص 3.
- 5 — العدد الممتاز 9 رقم 433 — 15 يونيو 1940 : ص 3 والبقية ص 6.

ب) الآداب العربية بالمغرب الأقصى أيام المرابطين : عصر الفترة — عصر التأسيس.

نفس الجريدة في ستة أعداد.

- 6 — العدد الممتاز 10 رقم 586، فاتح يناير 1941، ص 7.
- 7 — العدد الممتاز 11 رقم 593 — 15 يناير 1941 : ص 2.
- 8 — العدد الممتاز 13 رقم 616 — 15 يراير 1941 : ص 2.
- 9 — العدد الممتاز 14 رقم 626 — فاتح مارس 1941 : ص 2 والبقية ص 7.
- 10 — الانتاجات الأدبية الأولى : العدد الممتاز 15 رقم 637 — 15 مارس 1941 : ص 2 والبقية ص 7.
- 11 — مع العدد الممتاز 16 رقم 679 — 15 مايه 1941 : ص 2 والبقية ص 7.

ج) نشأة الدولة الموحدية ومميزات العصر الموحدى الأدبية، مع خمسة من رجال العصر الموحدى الأول :

«مجلة الثقافة المغربية» — سلا، في خمسة أعداد :

- 12 — النشأة والمميزات : العدد الأول — غشت 1941 : ص 9 — 14.
- 13 — القاضي عياض : العدد 3 — أكتوبر 1941 : ص 105 — 112.
- 14 — الشاعر الكبير ابن حبوس : العددان 4 — 5 «مزدوج» — نونبر، دجنبر 1941 : ص 153 — 162.
- 15 — ثلاثة من رجال العصر الموحدى الأول : العدد 6 — يناير 1942 : ص 211 — 218.

د) العصر الموحدى الثاني ورجاله الأولون :

- 16 — مدخل : نفس المجلة : العدد السابع، يراير — مارس 1942 : ص 249 — 259.
- 17 — ابن الياسمين — أبو حفص بن عمر، مجلة «رسالة المغرب» في طورها الأول — الرباط، العدد الأول — فاتح أكتوبر 1942، ص 12 — 17.
- 18 — ابن الملجوم — عبد الجليل القصري، رسالة المغرب : العدد 3 — 15 نونبر 1942 : ص 9 — 11.
- 19 — الشاعر الكبير أبو العباس الجراوي، رسالة المغرب : العدد 5 — فاتح يناير 1943 : ص 11 — 13، مع العبددين 7 — 8 من نفس المجلة.

2/19 — شاعر الخلافة الموحدية أبو العباس الجراوي : «كتيب»، الرباط 1957.
20 — المؤرخ عبد الواحد المراكشي، رسالة المغرب في طورها الثاني، الرباط،
العدد الأول — غشت 1947 : ص 11 — 18، مع العدد الثاني من
نفس المجلة.

2/20 — عبد الواحد المراكشي من علماء بغداد : مجلة «البينة»، الرباط، العدد
التاسع — يناير 1963 : ص 12 — 33.

هـ) العصر الموحدى الثالث :

21 — ابن خيابة الخطاوى، نفس المجلة : العدد 4 — دجنبر 1947 :
ص 221 — 226.

22 — ابن دحية الكلبي، نفس المجلة : العدد 10 — يونيو 1948، ص 536 —
546.

23 — الشاعر ابن عبدون، رسالة المغرب في طورها الرابع، الرباط، العدد
136 — يناير 1952 : ص 12 — 15.

24 — أبو الحسن الشاري وتأسيس أول مدرسة بالمغرب، نفس المجلة، العدد
138 — مارس 1952 : ص 12 — 20.

25 — الفلكي الكبير أبو الحسن المراكشي، نفس المجلة، العدد 140 — مايه
1952 : ص 10 — 15.

26 — أبو العباس ابن فرتون، نفس المجلة : العدد 142 — يولييه 1952،
ص 12 — 17.

و) العصر المريني الأول :

27 — مميزات العصر المريني الأدبية، مجلة التربية الوطنية، الرباط، العدد 4 —
يبرابر — مارس 1961 : ص 17 — 25.

28 — ابن البنا العددي المراكشي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمغريد :
المجلد 6، عدد 1 — 2 «مزدوج»، 1958 : ص 1 — 9.

29 — المؤرخان ابن أبي زرع وابن عبد الحليم : تحقيق عن مؤلف كتاب
القرطاس : «مجلة تطوان»، تطوان، العدد الخامس، سنة 1960 : ص
159 — 164.

ف — تاريخ العلوم :

تقديم : عرفت هذه الحقبة نماذج — ولو أنها محدودة — من تاريخ بعض العلوم، انطلاقاً من محمد المهدي الحجوي، فيحيل على تأليف له بعنوان «الجغرافية وأطوارها»، حسب إشارة له في كتابه : «حياة الوزان الفاسي وآثاره» س.ذ.ق. 1692، ثم عبد الملك بن عبد السلام فرج الفاسي، ت 1391 / 1971، وهو مؤلف «العلاقات الطبية بين المغرب والأندلس»، وهو منشور بالفرنسية.

1761 — وهذا وسابقه جاءت الإشارة لهما تمهيداً للمصدر المتواجد بالعربية : «تاريخ الطب العربي في عصور دول المغرب الأقصى» لمحمد بن أحمد العبيدي الكانوي، س.ذ.ق. 1642.

تناول فيه تاريخ هذه المادة عبر الدول المتوّه بها في العنوان، بدءاً من الدولة الإدريسية وانتهاء عند عصر المؤلف أيام الدولة العلوية، وفي شبه إعلان كتبه المؤلف يقدم التعريف بعمله، فيذكر أنه افتتحه بمقدمة عن نشوء الطب في الأمة الإسلامية إلى أن بلغ درجة الازدهار، ثم يقسم نشاط الطب بالمغرب إلى أربعة أدوار :

— دور التكوين، في القرون الأربعة الإسلامية الأولى.

— دور الازدهار، في القرنين الخامس والسادس : عصر الدولتين المرابطية والموحدية، حيث دخلت الأندلس ضمن المغرب سياسياً.

— عصر الوقوف والركود، في القرنين السابع والثامن : عصر الدولة المرينية.

— دور الانحطاط في القرن التاسع فما بعده.

وفي تحليله لموضوعات الكتاب، يذكر الدولة وعنايتها بالحالة الصحية، وما شيدت من مستشفيات، وما لهذه من أنظمة ونظار وشهود وخدمة ومالية، ثم ما كان تحت نفوذ تلك الدولة من أطباء، وما لعظمائهم من مكشفات ومخترعات، ومقدار تأثيرهم على الطب الأوربي.

وأخيراً، يذكر المؤلف أن كتابه يستوعب التراجم لنحو 150 طبيباً عربياً. صارت مبيضة تاريخ الطب العربي إلى المؤرخ المرحوم عبد السلام ابن سودة، ومنها استخرجت نسخة محفوظة في خزانة خاصة بالرباط، وبنفس المدينة نسخة أخرى خاصة، وقد تكون هذه هي التي أخرجها المؤلف.

ض — فهارس الخزانات :

أ) فهارس المخطوطات :

1762 — فهرس المخطوطات العربية المخطوطة في الخزانة العامة برباط
الفتح: (المغرب الأقصى)، إعداد الأستاذين : ب.س. علوش، محافظ القسم
العربي بالخزانة العامة، والركراكي : عبد الله بن محمد بن الطيب الرباطي، محافظ
الخزانة العامة أخيراً، ت 1398 / 1978.

سفران مرتبان على العناوين، ويستوعبان 2765 مخطوطا : السفر الأول :
مطبوعات المكتبة الشرقية والأمريكية بباريس 1954، والسفر الثاني : مطبوعات
إفريقية الشمالية الفنية بالرباط 1958 : 380 × 371 ص، عدا لائحتي المؤلفين
والكتب آخر كل سفر، في قطع متوسط.

ملاحظة : يعتبر هذا العمل حلقة ثانية بعد فهرس برفنصال للمخطوطات
الأولى بالخزانة العامة، س.ذ.ق 1607.

1763 — فهرس مخطوطات خزانة القرويين، بفاس، إعداد محافظها الأستاذ
محمد العابد الفاسي، س.ذ.ق 1664.

أربعة أسفار مرتبة على أسماء الكتب، وتستوعب 1727 رقما للمخطوطات
المفردة والجامع.

السفر الأول : من منشورات دار الكتاب — الدار البيضاء 1399 / 1979.

السفر الثاني : مطبعة إفريقيا الشرق — الدار البيضاء 1400 / 1980.

السفر الثالث : مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء 1403 / 1983.

السفر الرابع : خال من اسم المطبعة 1409 / 1989 : 464 × 540 ×
356 × 416 ص، في حجم متوسط.

السفر الأول مصدر بتقديم تعريفا بالمؤلف وخزانة القرويين : ص 5 — 34،
والسفر الرابع مذيّل بكشاف للمؤلفين : ص 395 — 416، والكل من عمل
ناشر الفهرس ابن المؤلف : الأستاذ محمد الفاسي.

ب) لوائح المخطوطات :

1764 — «المخطوطات العربية في تطوان» للأستاذ عبد الله كُتون س.ذ.ق.
1741.

«مجلة معهد المخطوطات العربية — القاهرة، المجلد الأول : الجزء الثاني :
ص 170 — 189 سنة 1955.
نشرة ثانية لنفس اللائحة، ضمن مجموعة «خِلْ وَبَقْل» للمؤلف ذاته :
ص 120 — 147.

1765 — ولنفس المؤلف «أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث
عشر هـ»، والقصد إلى خزائن العلماء : أبي الربيع سليمان الحوات، وأبي حامد
محمد العربي الزرهوني ثم الفاسي، وأبي العباس أحمد الوداني الشنقيطي نزيل فاس
ومراكش، وأبي عبد الله محمد بن المدني كُتون الفاسي، فيمهد البحث للموضوع
بتقديم مركّز، ليتخلص منه إلى عرض اللوائح.

«مجلة معهد المخطوطات العربية» — القاهرة، المجلد التاسع : الجزء الأول :
ص 47 — 105 سنة 1963.

1766 — «لائحة خزانة زاوية تنغملت»، بهنتيفة (إقليم أزيلال)، ومعظم
محتوياتها لا يزال مخطوطا.

مرقونة في كراسة تستوعب 799 رقما للكتب المفردة والمجاميع : 44 ص.
منها نسخة ضمن مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، على تصحييف يتخلل عملية
رقنها.

1767 — «لائحة المخطوطات والمطبوعات في خزانة المسجد الأعظم
بوزان».

في دفتر مخطوط يشتمل على 1195 رقما عدا المصاحف الكريمة : 171 ص،
حسب إحصاء سابق بتاريخ النصف الأول من شعبان 1368 / 1947.
خ.ع 640 (فيلم) : عن دفتر اللائحة بخزانة وزان.

1768 — «المخطوطات العربية المتعلقة بالطب في مكتبة الرباط»، كتبها
— بالفرنسية — المستشرق رونو، ت 1945م.

نشرة الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب سنة 1923.

1769 — ولفنس المؤلف بالفرنسية «تعريف بالمخطوطات العلمية» في خزانة الزاوية الحمزاوية.

«هسبيريس»: المجلد 17، 1934، الشهور الثلاثة الأولى: ابتداء من ص 76.

(ج) فهرس المطبوعات :

1770 — «فهرس المطبوعات العربية» في الخزانة العامة بالرباط.

كان تصميم هذا العمل، ينطلق من جمع محتويات البطائق المتفرقة لبعض المواد من مطبوعات الخزانة، ثم نشرها — على حدة — حسب بطائق المؤلفين، ولتنظيمها وزعت موضوعاتها بين تسعة أقسام، أولها: «قطاع التاريخ والتراجم والرحلات والجغرافية»، وهذا القسم هو الذي ظهر من هذه المبادرة.

صدر — في عدد محدود — مصور بالأوفسيت عن خط كاتبه المرحوم عبد الله الركراكي، س.ذ.ق 1762، سنة 1938م: 82 ص في حجم طويل خال من الترقيم المسلسل لأسماء المؤلفين.

1771 — «فهرس المكتبة العامة لمنطقة الحماية» (المنطقة الخليفية)، تأليف

ألفريد البستاني.

وهو خاص بالقسم العربي في المكتبة، وجاء تصنيفه مرتبا على ثلاثة أقسام، فيتوسع المؤلف — قليلا — عند فهرس العناوين، بينما يوجز في قسمي المواد والمؤلفين.

منشور في طنجة 1940 في حجم دون المتوسط: 224 ص دون صفحتي التقديم بالإسبانية.

1772 — «فهرس الخزانة الخليفية بمعهد مولاي الحسن» (تطوان)، عمل

محمد وهبي.

فهرس فيه لكتب الخزانة: العربية ثم الإسبانية، ورتب كلا من القسمين على المؤلفين فالمواد، مع إيجاز أكثر في التعريف بمحتويات القسم الثاني.

مطبعة الوحدة المغربية — تطوان 1361/ 1942: 318 ص للمؤلفات العربية، مع 66 ص للمؤلفات الإسبانية، في حجم دون المتوسط.

ملاحظة : لم تدرج هنا الفهارس واللوائح الصادرة بعد استقلال المغرب، رعا لأن مجال هذه المحاضرة يقف عند سنة 1956، وبذلك فإن الأدلة المشار لها تعتبر من أعمال ما بعد 1956، مما يجعل مكانها عند المحاضرة 24 بإعانة الله سبحانه.

ق — أدلة المصادر :

1773 — «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» للمؤرخ عبد السلام ابن سودة، س.ذ.ق 1667.

معلمة أبدعها المؤلف لرصد المصادر العربية التي تتصل بتاريخ المغرب، حتى انتهى بها إلى ما يناهز 2400 مصدرا ومرجعا، فأسدى بذلك خيرا عميما للباحثين في تاريخ المغرب : وطنيين وسواهم.

نشر — للمرة الأولى في جزء — بمبادرة معهد مولاي الحسن بتطوان /1369/ 1950، وكان يشتمل على 1900 مؤلفا ووثيقة.

ثم أعاد المؤلف مراجعته، وأضاف له زيادات ارتفع بها عدد محتوياته إلى 2364 رقما، وصدر عن دار الكتاب بالدار البيضاء 1960 — 1965، في جزئين تسلسلت صفحاتهما إلى 632، في قطع صغير، ومن ميزات هذه الطبعة، تذييلها بكشافين استوعبا أسماء المؤلفات والمؤلفين.

1774 — نعقب على هذا المصدر بالإشارة إلى عملين موضوعيين وفي مجال محدود : «لائحة بمصادر تاريخ سوس»، بذييل «سوس العالمة» س.ذ.ق 1652 : ص 210 — 233.

1775 — ثم «مؤلفات علماء غرب إفريقيا في المكتبات المغربية»، للشيخ محمد إبراهيم الكتاني، س.ذ.ق 1640.

مجلة «دعوة الحق» السنة 11 : العدد 1، ص 84 — 87، سنة 1967.

قائمة الأطروحات والرسائل الجامعية

المناقشة والمسجلة بكلية الآداب بالرباط

القسم الثامن لسنة 1992

إعداد : مهلحة النشر

نشرت مجلة الكلية الأقسام السابقة من هذه القائمة في الأعداد الماضية :

- القسم الأول : العدد السابع : صفحات 289 - 305
القسم الثاني : العدد الثاني عشر : صفحات 221 - 241
القسم الثالث : العدد الثالث عشر : صفحات 291 - 307
القسم الرابع : العدد الرابع عشر : صفحات 231 - 249
القسم الخامس : العدد الخامس عشر : صفحات 239 - 274
القسم السادس : العدد السادس عشر : صفحات 253 - 273
القسم السابع : العدد السابع عشر : صفحات 167 - 193

وتنشر ضمن هذا العدد القسم الثامن الخاص بالرسائل والأطروحات لسنة 1992 وذلك حسب التصنيف التالي :

أولا : قائمة الرسائل والأطروحات التي وقعت مناقشتها لنيل :

- 1 — دكتوراة الدولة.
- 2 — دبلوم الدراسات العليا.

ثانيا : قائمة الأطروحات والرسائل المسجلة لنيل :

- 1 — دكتوراة الدولة.
- 2 — دبلوم الدراسات العليا.

وقد تم ترتيب هذه القائمة تبعا لتخصصات الشعب.

أولاً : الأطروحات والرسائل التي نوقشت لنيل دكتوراة الدولة ودبلوم الدراسات العليا.

1) دكتوراة الدولة :

شعبة اللغة العربية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
92/ 4/14	أ. محمد بنشريفة	المدلاوي أحمد	أزمة الحداثة في الشعر العربي المعاصر.
92/ 6/26	أ. محمد السرغيني	أنقار محمد	صورة المغرب في الرواية الإسبانية خلال عهد الحماية.
92/ 9/24	أ. أحمد الطريسي	محمد أحمد وريث	إيقاع الشعر العربي بين الثبات والتحول.
92/11/20	أ. محمد مفتاح	بلمليح ادريس	اختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحاسة أبي تمام.
92/11/23	أ. محمد بنشريفة	قرقران محمد	جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب لأبي بكر محمد بن عبد الملك الششتريني ابن السراج المتوفى سنة 549هـ.
92/12/ 9	أ. عباس الجراري	الشايع المصطفى	شعرية الخطاب في القصيدة المغربية (1936-1964).

شعبة اللغة الفرنسية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
27/10/92	M ^r . François Dell	El Medlaoui Mohamed	Aspects des représentations phonologiques dans certaines langues Chamito-Semitiques.
30/10/92	M ^r . Pierre Testud	Harifi Naïma	Retif et le théâtre.

شعبة التاريخ

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
92/ 6/16	أ. سرنار كيلمان	حام محمد	Lignages aristocratiques Gascous (XII ^e -XIII ^e siècle) Essais de filiations et d'histoire sociale.
92/10/ 9	أ. محمد حجي	غازي سعيد جواده	الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر المرابطي بالمغرب.

شعبة الدراسات الإسلامية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
نظرية التعقيد التقني وأثرها في اختلاف الفقهاء.	الروكي محمد	أ. فاروق حمادة	92/ 5/12
نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية.	الريسوني أحمد	أ. فاروق حمادة	92/10/12
طبق الارطاب فيما اقتطفناه من مساند الأئمة وكتب مشاهير المالكية والإمام الخطاب تأليف محمد بن عبد الله بن اسماعيل الحسن الملوحي (1171-1204هـ/ 1757م-1790م)، دراسة وتحقيق.	عبد الله ادريس أبو بكر ميغا	أ. محمد أمين السمايلي	92/11/24

شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الايديولوجيا أبعادها ووظائفها.	سيلا محمد	أ. علي أومليل	92/ 2/21
مشكل الإنسان في فلسفة ابن باجة.	الوزاد محمد	أ. علي أومليل	92/ 2/22
إشكالية الإنسان في الفلسفة المعاصرة: بحث في أزمة النزعة الإنسانية.	الدواي عبد الرزاق	أ. علي أومليل	92/ 3/27

(2) دبلوم الدراسات العليا :

شعبة اللغة العربية وآدابها

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
من شعراء المغرب الأقصى وأدبائه المعاصرين لعبد الله الجراي، تقديم وتحقيق.	الفاضلي سعيد	أ. علال الغازي	92/ 2/ 3
القول الفصل في اختلاف السبعة في الوقف والأصل لأبي زيد بن القاسمي (ت 1082هـ)، دراسة وتحقيق.	نولسي عبد الرحيم	أ. أحمد الملوحي	92/ 2/11
النقد الأدبي القديم في تقويم النقاد المحدثين.	تاكفراسيت بشرى	أ. جعفر الكتاني	92/ 3/27
الفروسية والسيادة في شعر عوف بن عطية بن الجرجع وبشر بن أبي حازم (دراسة تحليلية موقفة ومقارنة).	إسلم السبتي	أ. أحمد الطربسي	92/ 5/11
الصنيع البديع في شرح الحلية ذات البديع لمحمد بن قاسم بن زاكور الفاسي، تقديم وتحقيق.	البدلوي بشرى	أ. علال الغازي	92/ 5/13
الخطاب الروائي المغربي.	غلامي عبد الرحمن	أ. أحمد اليوري	92/ 5/21

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
ديوان الصبابة تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى بن أبي حجلة، دراسة وتحقيق.	مومن عبد الكبير	أ. عزة حسن	92/ 5/26
عمود أمين العالم وإشكالية النقد الأدبي الاجتماعي من الأربعينات إلى الثمانينات.	الحمدلوي مصطفى	أ. أحمد الطريسي	92/ 5/29
قيم بن أبي مقبل حياته وشعره.	الرشيد عمر	أ. عزة حسن	92/ 6/17
الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الأخرى لذلك بن المرحل.	بنويس ربيعة	أ. علال الغازي	92/ 6/29
ديوان محمد بن سيد أحمد (دراسة وتحقيق).	مريم بنت الشيخ	أ. علال الغازي	92/ 7/ 3
ظاهرة الفموض في الشعر المعاصر.	ناوري يوسف	أ. أحمد الطريسي	92/ 7/ 8
شعر التصوف في المغرب خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، دراسة تحليلية.	الفيلاي عبد الوهاب	أ. أحمد الطريسي	92/ 7/13
مرحلة النهضة في الشعر بين المشرق والمغرب (1930-1950).	النصوري وفاء	أ. أحمد الطريسي	92/ 7/15
تقديم وتحقيق كتاب انطاف الأزهار من حداثتي الأفكار لولاي عبد السلام بن سيد محمد بن عبد الله العلوي (1170هـ - 1227هـ).	الكحل زهراء	أ. علال الغازي	92/ 7/16
تأثير اللغة العربية في لغات شبه القارة الهندية، نموذج اللغة البنغالية.	محمد أحسن الله هلال	أ. عبدالملي الودغوري	92/ 9/28
المصطلح النقدي عند الخالقي (دراسة وصفية تحليلية نقدية).	القاسمي محمد	أ. علال الغازي	92/10/13
خصائص صيغة (العمل) النحوية والمعجمية.	حمائل حسن	أ. عبد القادر القاسمي الفهري	92/11/17
شعر أصحاب المراتي من خلال كتاب (طبقات شعول الشعراء) لابن سلام الجمحي دراسة تحليلية لشعرهم.	محمود حميد	أ. جعفر الكنان	92/11/25
الشعرية التوليدية حدود النظرية إمكانات التطبيق وآفاق التوسيع.	عثاني الميلود	أ. محمد براءة	92/12/ 8
البناء الفني لقصيدة المدح العرشية عند الشاعر محمد الحلوي.	الشتوي زينة	أ. عباس الجارري	92/12/14
شعر محمد حامد بن آن، تحقيق وتقديم.	أحمد سالم ولد محملو	أ. أحمد شوقي بنين	92/12/15
شعر الحسن البونعماني (جمع وتحقيق ودراسة).	أنا الحسين	أ. علال الغازي	92/12/16
الشعراء المغمورون في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري.	زلمي محمد	أ. جعفر الكنان	92/12/18
التصغير في اللغة العربية.	الحلوي فاطمة	أ. عبد القادر القاسمي الفهري	92/12/18

شعبة اللغة الفرنسية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
19/ 6/92	M ^r .A. Boukous	Bennis Saïd	La formation du causatif en Arabe Marocain (Approche Prosodique).
23/ 6/92	M ^r .A.Alaoui M'daghri	Zerouali Hayat	«Metaphore et Fiction dans du cote de chez Swann de Marcel Proust».
23/ 6/92	M ^r .A. Boukous	Abdourahmane Diallo	Etude de l'intégration morphologique et phonologique des emprunts linguistiques arabes en Pulaar de Guinée.
26/ 6/92	M ^r .A.M'daghri et Mustapha Ben Cheiker	Belahbib Tlemçani	L'espace dans topologie d'une Cité Fantome d'Alain Robbe Grillet et l'enfant de sable de Tahar Ben Jelloun.
30/ 6/92	M ^r .A. Boukous	Mohamedoune Merne dit Doudou	Syllabe et Processus phonologiques en Pulaar (Parler de Boghé - Mauritanie).
6/ 7/92	M ^r .A. Boukous	Fennich Bouchra	La formation du nom féminin en arabe marocain (Parler de Rabat) Approche prosodique.
7/ 7/92	M ^r .A. Boukous	Mamadou Saliou Diallo	La suffixation verbale en Pulaar (Peul): Morphologie et Phonologie des suffixes verbaux dans le Pulaar du Fouta-Djallon (Guinée).
22/ 7/92	M ^r . B. Meyer	Zellou Ilias	Poétique de l'analogie dans illusions perdues d'Honore de Balzac.

شعبة اللغة الانجليزية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
2/ 7/92	M ^r . A. Kriem	Maarouf Mohamed	A study of the discourse of subversion in the tempest.
21/ 7/92	M ^r . J. Saib	Idrissi Ali	Syllabicity and syllabification in Ait Seghrouchen tamazisght berber dialect of Marmoucha.
30/10/92	M ^r . Mohamed Dehbi	Fathi Saïd	Politeness in the speech of Moroccan males and females.

شعبة اللغة الاسبانية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
30/ 4/92	M ^r . C Poullain	Regala Amal	Galicia en los gozos y las sombras Gonzalo Torrente Ballester.

شعبة اللغة الألمانية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
16/12/92	M.M. P. Dienstbier	Beirnaft Christine	Spuren Der schwarzen padagogik in kinder literatur und kinder programmen in Marokko.

شعبة التاريخ

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الغزو الاستعماري ومقاومته في الأطلس المتوسط (1913-1930).	الملكى الملكى	أ. أحمد التوفيق	92/ 5/26
اسهام في دراسة زاوية قصر تامكروت 1045-1729.	أنكام علي	أ. أحمد التوفيق	92/ 5/27
تطوان في أواخر القرن التاسع عشر جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية على ضوء محاولات التسرب الأوربي.	السعود عبد العزيز	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 6/19
تحقيق مخطوط الاعلام بمن غير من أهل القرن الحادي عشر.	نافع فاطمة	أ. محمد حجي	92/ 7/ 8
كتاب الروضة المقصودة والحلل المملوذة في مآثر بني سودة لأبي الربيع سليمان الخوات (1231هـ / 1816م)، دراسة وتحقيق.	تيلالي عبد العزيز	أ. محمد المنصور	92/12/16
دراسة وتحقيق كتاب ابتهاج القلوب بغير الشيخ أبي الحسان وشيخه المجلوب مؤلفه عبد الرحمن بن عبد القادر المتوفى 1096هـ / 1685م.	اللازي حفظة	أ. محمد حجي	92/12/17
الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17-18م).	ددود ولد عبد الله	أ. محمد حجي	92/12/23

شعبة الجغرافية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
حوض تيداس معاليز دراسة جيومرفولوجية.	بلهلاي مصطفى	أ. عبد الله العونية	92/ 5/19
هضبة ولبلي دراسة جيومرفولوجية.	لعنزي عماد	أ. عبد الله العونية	92/ 6/30

شعبة الدراسات الإسلامية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
دلالات النبي عند الأصوليين وأثرها في الفروع الفقهية.	أوقسو عبد الناصر	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 7
دلالة الالتزام وأثرها في الأحكام.	أبره ولد اطراح	أ. عقي البخاري	92/ 1/ 9
كتاب التهج المتشارك في شرح دالية ابن مالك لأبي العلاء ادريس بن محمد النجدة (ت 1137هـ)، دراسة وتحقيق.	الحامر العربي	أ. التهامي الراجي	92/ 2/17
طرق إثبات المقاصد الشرعية.	شكري فريد	أ. محمد بلشير	92/ 3/ 5
الإسلام والديانات الوضعية في آسيا (دراسة مقارنة).	لي و ن سام	أ. المهدي بنعبود	92/ 3/ 9

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
ظروف التشديد والتخفيف في عقوبات الفقه الجنائي الإسلامي دراسة مقارنة.	نجيم ادريس	أ. التهامي الراجي	92/12/14
خير الواحد في التشريع الإسلامي وحجته.	برهون القاضي	أ. فاروق حمادة	92/12/21
كتاب الدرة الصقلية في شرح أبيات العقيلة لأبي بكر عبد الغني المشتهر بالليث، تقديم وتحقيق.	آيت زعبول عبد المولى	أ. التهامي الراجي	92/12/22
أسلوب الدعوة من خلال القصص الواردة في القرآن الكريم.	يونغ مون لي	أ. التهامي الراجي	92/12/22
مقاربة تحليلية نقدية لبعض مكونات الفكر النهضوي المعاصر.	الصولي حميد	أ. محمد بليشير	92/12/22

شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
معالم المنهجية الرشدية من خلال فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة ونهايات التهافت.	هلال فال	أ. سالم يفوت	92/ 5/26
تطور العلاقات بين الزاوية الوزانية وقبيلة سفيان الشرقية إلى سنة 1991 من التأسيس إلى التفتك.	الحدي نجيب	أ. محمد جسوس	92/ 6/24
قبائل حوارة في ليبيا الجذور والامتدادات للعاصرة دراسة اجتماعية ميدانية.	عمر القذافي عمر هية	أ. رشدي فكار	92/ 6/25
تمثيل الواقع في رسوم الأطفال وعلاقته بالتوافق النفسي.	يبنادة محمد	أ. مبارك ربيع	92/ 6/30

ثانيا : قائمة الأطروحات والرسائل التي سجلت لنيل دكتوراة الدولة ودبلوم الدراسات العليا (السلك الثالث).

1) دكتوراة الدولة :

شعبة اللغة العربية وآدابها

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
بلاغة الإنجاز في القرآن الكريم دراسة بلاغية أسلوبية.	الصادق إبراهيم البصر	أ. علال الغازي	92/ 1/ 6
مصادر أبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني وقیمتها في الدراسات الأدبية.	عبد الله علي الصويهي	أ. أحمد شوقي بئين	92/ 1/ 15
بناء القصيدة العربية في العصر المملوكي.	يوسف إسماعيل	أ. علال الغازي	92/ 1/ 21
اللغويات المعاصرة وعبارتها العاملية.	بوزيان رشيد	أ. أحمد العلوي	92/ 1/ 30
التراث الشعري اليهودي الوسطوي في الأندلس.	الغزي فاطمة	أ. أحمد شحلان	92/ 2/ 7
شعراء قرين في القرن الأول الهجري.	محمد محمد علي الفناي	أ. محمد بنشرفة	92/ 2/ 19
الكتابة في البلاغة العربية (بحث يتناول الكتابة من الوجهة التاريخية والفنية).	بشير كليل	أ. محمد مفتاح	92/ 2/ 19
مصادر النقد والبلاغة في العصر المغولي التركي قضايها ومنهجها.	عمو عسو	أ. علال الغازي	92/ 2/ 25
الصورة الشعرية في عهد المرابطين بالأندلس.	المهدي الصيد عمار	أ. محمد بنشرفة	92/ 2/ 25
بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية.	علي أبو القاسم عون	أ. علال الغازي	92/ 3/ 21
تفكير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (من خلال جريمة النصارى الثانية 1947-1956).	نعمان محمد	أ. عباس الجراري	92/ 3/ 21
الحكايات الشعبية في قبيلة أحر الهوارة: مكوناتها ووسائل اشتغالها.	لفزالي سالم	أ. عباس الجراري	92/ 3/ 23
الإعراب وبناء الجملة في اللغة العربية.	الرحالي محمد	أ. عبد القادر الفاني النهري	92/ 3/ 25
تجربة (الميث) بين التراث الإنساني والرواية العربية الحديثة.	باسو مينة	أ. أحمد الطريسي	92 4/ 20
نحو مصطلحية غربية مواكية : مقارنة نظرية وتطبيقية.	جواد حسني عبد الرحيم	أ. أحمد الإبراهيمي	92/ 6/ 3
الشعراء المنكوبون في الأندلس في القرن الخامس الهجري.	لي جونج هوا	أ. محمد مفتاح	92/ 6/ 16
المسح السني والأشعري في البيان وإعجاز القرآن.	كولان علي السوسي	أ. محمد بنشرفة	92/ 6/ 23
		وأ. أحمد أبو زيد	

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
92/ 7/13	أ. عزة حسن	مهلاوي لطيفة	مراثي الخلفاء والقادة في الشعر العباسي إلى آخر القرن الرابع الهجري، جمع ودراسة.
92/ 7/24	أ. سعيد علوش	بحراوي حسن	نحو شعرية للترجمة الجهد، المكاسب والآفاق.
92/10/27	أ. عزة حسن	الرشيد عمر	الفخر في الشعر الجاهلي معانيه، صورته وقيمه الفنية.
92/12/22	أ. أحمد العلوي	بودلال عبد الرحيم	الميزان العاملي والميزان الصربي بحث في الوحدة والاختلاف.

شعبة اللغة الفرنسية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
17/ 4/92	M ^r . A. Kilito et J. Neefs	Benamrhar Abdelkrim	Miroir et mélancolie entre fantastique et réalisme dans la deuxième moitié du dix-neuvième siècle.
23/ 6/92	M ^r . M. Elyadry Bekkali	Touati Abdelouhab	Pour une thématique dialogique.

شعبة اللغة الانجليزية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
16/ 6/92	M ^r . J. Saïd	El Kirat Yamina	The morphology of the verb in the Beni Iznassen dialect : A non-concatenative Approach.
23/ 6/92	M ^r . M. Dahbi	Oumzane Lhoussaine	A comparative study of conversational Mitigation in Moroccan Arabic, Berber and English: Requests Refusals as instances.
8/ 7/92	M ^r . V. Kennedy	Lebbady Hasna	Entrapment and Espace: Radical and Revisionary uses of Gothic Fantasy by selected contemporary women novelists.
28/ 9/92	M ^r . M. Dahbi	Mahi Zohra	Background knowledge (Use Medical Settings).
28/ 9/92	M ^r . M. Dahbi	Afikir Mina	Language socialization and the acquisition of literacy.
28/ 9/92	M ^r . M. Dahbi	Hmama Abdellah	The uses of English written communication in Moroccan Business settings.
28/ 9/92	M ^r . M. Dahbi	Bouzzroud Abdelhafid	Language choice and language use in secondary and higher education in Morocco.

شعبة التاريخ

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الأحوال الصحية في مغرب الحماية 1912-1940.	رويان بوجمة	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 1/21
الرواية المصلوحيّة: من الأصول إلى سنة 1912.	المازوني محمد	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 1/21
التضامن العربي الإسلامي مع حركة المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي 1911-1931.	مصطفى حامد رحمة	أ. محمد أمين البزاز	92/ 1/21
المغرب العربي من خلال خلافة المرحوم لادن الله الفاطمي.	عمار الحاج صالح	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 2/19
الأحياس بمدينة مكناس في عهد الحماية (1912-1956).	بلمقدم رقية	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 2/21
اللباس والزينة في المغرب (1856-1956).	بوسلام محمد	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 4/15
بنو هلال في المغرب والأندلس (452 - 668/ 1060-1270).	عبد الجواد الصادق الشيتاني	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 4/16
الرواية الفاسية وتطورها حتى نهاية العهد العلوي الأول.	الذهبي نفيسة	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 4/16
من تاريخ المقاومة الوطنية والتغلغل الأجنبي في المغرب في عهد الحماية (مارس 1915 - غشت 1924).	بناني عثمان	أ. محمد حجي	92/ 6/23
الإسلام والسلطة والاقتصاد في المجتمع السوداني الغربي والأوسط ق XVI ق XIX (16-19).	شكراوي خالد	أ. مصطفى ناعمي	92/ 6/23
الشهادات المسيحية وكيفية تمثيلها للمجتمع السوداني من الجدل إلى نهاية القرن 19م.	الشكري أحمد	أ. مصطفى ناعمي	92/ 6/23
الروايات بين قبول الاستعمار ورفضه.	أزلييه ولد عبد حمود	أ. محمد زنيو	92/ 7/ 8
الوضع السياسي والاجتماعي لغرناطة في القرن الخامس الهجري.	عبد القادر عثمان	أ. عبد الهادي التازي	92/ 7/13
الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.	محمد جاد الرب بشور رمضان التليسي	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 7/13

شعبة الجغرافيا

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الاستعمالات المختلفة للماء بمنطقة الغرب (السكان، الفلاحة، الصناعة).	بلقفيه عبد الصادق	أ. أحمد الغرابوي	92/ 2/ 9
التكوينات الرباعية والدينامية الساحلية الحالية في الشريط الممتد بين مصب واد النقيض ورأس العنق بالدار البيضاء.	بحار نعيمة	أ. عبد الله العروبة	92/ 2/25
الغروة الحيوانية في موريتانيا والعوامل المؤثرة فيها.	محمد ولد الشيخ ولد عبد القادر	أ. إسماعيل العلوي	92/ 6/16

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الإنسان والوسط الطبيعي بمقدمة الريف الشرقية.	طريق عبد اللطيف	أ. أحمد الغرابوي	92/ 6/16
الحوض النهري لمنغاية.	السعدي محمد	أ. أحمد الغرابوي	92/ 6/30
دراسة جغرافية لواحة غدامس.	عمود علي الغدامس	أ. إسماعيل العلوي	92/ 9/25
خرائط التوزيعات المناخية، دراسة - تأليف خرائط، توقعات.	علي بشير أبو زيد	أ. أحمد الغرابوي	92/10/27
واحات درعة الأوسط مسورة التحولات السوسيوإقليمية.	أوججو لكبير	أ. عبداللطيف بنشرفة	92/12/ 1

شعبة الدراسات الإسلامية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من خلال القرائات القرآنية المتواترة.	جمعة محمد الأحول	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 6
الحسبة على أصحاب المهن الطبية في الإسلام.	علي أحمد الفياض الدرغام	أ. عصمت دندش	92/ 1/ 8
كتاب المسند في الحديث لأبي محمد يحيى بن صاعد المطامشي - دراسة وتحقيق.	حريفي لحسن	أ. فاروق حمادة	92/ 1/ 8
عقد الصلح بين الشريعة الإسلامية والقانون المغربي (دراسة مقارنة).	حمالي حميد	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
منهج السيرة بين ابن إسحاق وابن عبد البر.	كرمة عمر عهود	أ. عصمت دندش	92/ 1/21
الشيخ أحمد بن عبيدة (1161-1224) وتفسيره للقرآن.	عزوزي حسن	أ. التهامي الراجي	92/ 1/27
أحكام الطفل في الفقه الإسلامي والتشريع المغربي دراسة مقارنة.	بطراني عبد العزيز	أ. فاروق حمادة	92/ 3/21
الكليات الشرعية في القرآن الكريم جمع وتصنيف وتحليل.	حريفي لحسن	أ. فاروق حمادة	92/ 6/25
دراسة وتحقيق كتاب التكميل والامام لكتاب التعريف والإعلام.	عبد الله محمد علي النقراط	أ. أحمد أبو زيد وأ. التهامي الراجي	92/12/ 9

شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
نقد العقل النظري في فلسفة الغزالي اتجاه لعقلنة الفكر الفلسفي الإسلامي.	القريضي سالم	أ. سالم يفوت	92/ 3/ 9
علاقة بعض متغيرات جماعات العمل لطبيعة القيادة في هذه الجماعات، بـ(دراسة سوسيولوجية لجماعات انتاجية ضيقة في المجتمع المغربي).	التونسي عزوز	أ. المصطفى حدية	92/ 6/ 6
تطور الصورة الذهنية لدى المراهق والراشد (دور المؤثرات الادراجية في الانشاء الميالي لمنار الكويرات).	الشيخ محمد	أ. ربيع مبارك	92/ 6/ 16
أنشطة أوقات الفراغ وعلاقتها بتمثل الذات عند الطفل المغربي.	يوكساكي فاطمة	أ. المصطفى حدية	92/ 7/ 6
الخطاب النقدي في المشروع النهضوي العربي.	مبروك الشريف جبريل	أ. سالم يفوت	92/ 7/ 6
الحياة الفكرية ليهود الأندلس من بعد بن ميمون إلى السيف المملود 1135-1394م.	عبد الواحد المهدي ميلاد	أ. رشدي فكار وأ. سالم يفوت	92/ 11/ 13
المعرفة عند القاضي عبد الجبار الاسديادي 415هـ- 1025م حدودها وأبعادها.	عبد الله بالقاسم عبد الكريم	أ. رشدي فكار	92/ 12/ 23

(2) دبلوم الدراسات العليا :

شعبة اللغة العربية وآدابها

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الدرس الصرفي عند ابن عصفور واللسانيات التوليدية التحويلية.	صديق سميرة	أ. أحمد الإدريسي	92/ 1/ 7
التأويل والاستحسان إسهام في حل مشاكل تأويل القرآن الكريم.	مصطفى حيدر	أ. أحمد الإدريسي	92/ 1/ 7
الحل والجملة بحث في الأصول والمقدمات النحوية.	جبل نعمة	أ. أحمد الطوي	92/ 1/ 8
شعر أبي البقاء الرندي جمع وتحقيق ودراسة.	عابد ثورية	أ. محمد بنشرفة	92/ 1/ 8
شخصية الشاعر كما توحى بها بعض الدراسات النقدية العربية القديمة.	بن الهادي شادية	أ. أحمد أبو زيد	92/ 1/ 8
وظيفة القول الأصولي في النظرية اللغوية العربية.	ميموني مولاي ادريس	أ. أحمد الطوي	92/ 1/ 8

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
معجم العربية الجاهلية - العلاقات السبع - المصطلح الصوفي عند ابن سينا. دوحة البستان وزهرة الإخوان في مناقب الشيخ علي عبد الرحمن تأليف الزبدي.	البوقاعي محمد أبو دقة يوسف بواغاز فاتحة	أ. عبد العلي الودغيري أ. عبد العلي الودغيري أ. أحمد شوقي بنين	92/ 1/10 92/ 1/14 92/ 1/14
مدخل لدراسة الخطاب الشعري من خلال العلاقات السبع. العلاقات في ضوء نظرية عمود الشعر. مصدر الثلاثي في اللغة العربية دراسة صرفية. الدلالة المجازية، التضمين والانتفاء. الاشتقاق في اللغة العربية دراسة صرفية توليدية. منزلة الشعر في الفكر العربي - الإسلامي منذ بداية ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري. حازم القرطاجي بين التنظير النقدي والإبداع الشعري: دراسة في إمكان انسجام الخطاب. سوسولوجية النص الروائي العربي (التيه) و(الأعدود) لعبد الرحمن منيف نموذجاً.	البويجاوي الإدريسي سيدي اسماعيل حسان فلاح أوعلي توراني عبد الرزاق بتنامو صافية كزاوي محمد عقيل المرعي	أ. محمد مفتاح وأ. إدريس بلمليح أ. علال الغازي أ. عبد القادر الفاسي الفهري أ. عبد القادر الفاسي الفهري أ. عبد القادر الفاسي الفهري أ. أحمد الطربسي	92/ 1/14 92/ 1/16 92/ 1/16 92/ 1/16 92/ 1/16 92/ 1/16 92/ 1/16
ناجع مينة	أ. علال الغازي	92/ 1/20	
براهمة سلمي أصول الفكرية لنظرية النظم عند الأشاعرة. المصطلح اللساني عند فخر الدين الرازي. أخلاف النحوي بين ابن مالك وأبي حيان الأندلسي. اقتطاف زهرة الأفتان من دوحة قافية ابن الونان، تحقيق وتقديم.	أ. أحمد البيوري وأ. سعيد يقطين أ. أحمد أبو زيد أ. عبد العلي الودغيري أ. أحمد الإدريسي أ. أحمد أبو زيد	92/ 1/20 92/ 1/20 92/ 1/22 92/ 1/23 92/ 1/27	
الذهبي حميد الصلوة الاستلزامية بين النحو وعلم الكلام حالة القاضي عبد الجبار. بنية القصيدة الصوفية في شعر عبد الغني النابلسي دراسة في ديوان الحقائق ومجموع الرقائق. بنية السرد الشعري دراسة تحليلية لرواية: يا بنات الاسكندرية لأدوار الخراط.	أ. أحمد العلوي أ. علال الغازي أ. أحمد البابوري	92/ 1/27 92/ 1/30 92/ 2/ 3	
جوهري أحمد ديوان الأعشى الكبير دراسة احصائية ونصية. شاعر المسحون: الشيخ أحمد بن رقية الأزموري (دراسة لشعره). النقد الأدبي التطبيقي للشعر في المغرب من خلال شروح القرنين 13 و14هـ. الانجاء الوطني عند شعراء الصحراء المغربية من سنة 1956 إلى 1992. السيرة الذاتية الإسلامية الحديثة.	أ. عزة حسن أ. عباس الجاراي أ. عباس الجاراي أ. عباس الجاراي أ. عباس الجاراي أ. أحمد يون	92/ 2/11 92/ 2/13 92/ 2/13 92/ 2/13 92/ 2/13 92/ 2/19	
القباچ عديل حنان عبد الإله	أ. عزة حسن أ. عباس الجاراي	92/ 2/11 92/ 2/13	
حافظي علوي شرفية	أ. عباس الجاراي	92/ 2/13	
الفرودي سيرة	أ. عباس الجاراي	92/ 2/13	
وفكوح عبد الفتاح	أ. أحمد يون	92/ 2/19	

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
مستويات الوعي في أعمال عبد الكريم غلاب الروائية. التناسب الفني في القصة القرائية. الجاحظ في الدراسات العربية الحديثة والمعاصرة مشروع مراجعة نقدية لمائة عام من الكتابة عن التراث النقدي والبلاغي عند العرب.	كدو فاطمة الحرايكي خديجة بو الصلحي نجيب	أحمد البيوري وأحمد بظن أ. أحمد الطريسي أ. أحمد الطريسي	92/ 2/24 92/ 2/25 92/ 2/25
شعر محمد مصطفى مريه ربي. جمع، تحقيق، تقديم. النقد العربي الحديث : التجليات النظرية وإشكالية المنهج. السيناريو في السينما المغربية.	ماء العنين النعمة تليست أحمد بلرنة محمد	أ. عباس الجاراي أ. أحمد الطريسي أ. سعيد علوش	92/ 2/25 92/ 2/25 92/ 3/ 3
بناء قصيدة المدح من خلال تجربة الشاعر الوزير بن ادريس العمراوي.	التازي سكتية	أ. أحمد الطريسي	92/ 3/13
أدب محمد الصباغ موضوعاته وخصائصه الفنية. توظيف التراث في الشعر الفلسطيني.	بنخليفة نزهة أزميان جميلة	أ. عباس الجاراي أ. أحمد الطريسي	92/ 3/21 92/ 3/21
الصورة الشعرية عند أبي تمام — الاستعارة نموذجاً — الأدب الأندلسي في المصادر الشرقية من أوائل القرن السادس إلى منتصف القرن التاسع الهجري.	بن الطاهر جمال علام رقية	أ. أحمد الطريسي أ. محمد بنشرفة	92/ 3/21 92/ 3/21
بناء القصيدة العربية في نقد حازم القرطاجني. دور الشعر في التزاوّل الفقهية الموريتانية خلال القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين.	خالد محمد علي الملقب الناجي فال ولد سيد أحمد	أ. علال الغازي أ. أحمد الطريسي	92/ 3/21 92/ 3/23
توظيف التراث في شعر صلاح عبد الصبور. المقارنة ونظرية الأدب لـ: أدريان مارينو، ترجمة، دراسة وتعليق.	العلوي لالة فاطمة الزمراء أراق سعيد	أ. أحمد الطريسي أ. سعيد علوش	92/ 3/23 92/ 3/23
شعرية القصيدة العربية القديمة عند طه حسين والعقاد. ظاهرة النفي في اللغة العربية (نحو دراسة تركيبية ودلالية). الإضمار في اللغة العربية.	بغور رحال مرزوق محمد برامو بوشعيب	أحمد براءة أندريس بلبلح أ. أحمد العلوي أ. أحمد العلوي	92/ 3/23 92/ 3/25 92/ 3/25
القياسي والسماعي في الصيغ الصرفية العربية. التخييل في السرد العربي القديم مقامات المحدثي نموذجاً (مقاربة موضوعاتية).	العياشي رشيد ملين عبد الإله	أ. أحمد العلوي أ. محمد براءة	92/ 3/25 92/ 3/27
أثر الاتهامات الكلامية في النقد البلاغي عند العرب. تقديم وتحقيق مخطوط كتاب فائق الرق على عائق الفتق محمد مصطفى ماء العنين.	عصام أحمد الزوتان مصطفى	أ. أحمد أبو زيد أ. علال الغازي	92/ 4/20 92/ 4/24
اشتغال التخييل والمتخييل في مقامات الحريري. الأدبية مفهوماً ومصطلحاً بين التنظير والإنتاج.	زيد جمال بطال محمد أنوشي أحمد	أ. محمد براءة أ. محمد براءة أ. أحمد البيوري	92/ 4/27 92/ 4/27 92/ 4/27
شعرية الخطاب الروائي عبد الله الحروي نموذجاً. الكتابة للأطفال في الأدب المغربي الحديث.	عيا عبد الرحمان البوطاهري خديجة	أ. عباس الجاراي أ. محمد بنشرفة	92/ 4/27 92/ 4/27
الأستاذ محمد القاسي وجهوده في خدمة الأدب المغربي.			

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
بناء القصيدة الشعرية بين الجاهلية والإسلام كعب بن زهير نموذجاً.	بنفيلوس محمد	أ. أحمد الطريسي	92/ 4/27
الإيقاع في الشعر العربي الحديث دراسة نظرية وتطبيقية من خلال بعض النماذج.	بنقة خديجة	أ. أحمد الطريسي	92/ 4/27
مفهوم الشعر في ضوء فلسفة الشعر عند ابن رشد.	امهور جميلة	أ. أحمد الطريسي	92/ 4/28
علاقة الرواية بالثراث من خلال 3 روايات لنجيب محفوظ، إميل حبيبي، وليد إختلاصي (ليالي ألف ليلة وليلة، سرايا بنت الفول، دار المتعة).	عقق نور الدين	أ. محمد بريدة	92/ 4/28
عرض تقديم وترجمة كتاب ما هو التاريخ الأدبي ؟ لكلمان مواسون.	الطالب حسن	أ. سعيد علوش	92/ 4/28
مقاربة تفلغية للنص الروائي.	درموش نور الدين	أ. أحمد البيوري	92/ 4/28
قضايا الخطاب النقدي في الأدب المغربي المعاصر من سنة 1960 إلى سنة 1990.	صديق محمد	أ. أحمد الطريسي	92/ 4/28
شعر الطبيعة بين الصنوبري وابن خفاجة.	شرجيلي عبد الصمد	أ. ثريا لمي	92/ 5/14
تيمة الموت في أشعار محمد الحمار الكنتوني وعبد الله راجح.	الأعرج حسن	أ. سعيد علوش	92/ 5/20
تحقيق عثوط الدر النثيس والور الأثيس في مناقب ادريس بن ادريس لأحمد الحلي أبي العباس.	والزين محمد	أ. أحمد شوقي بنين	92/ 5/21
المصطلح النقدي في الأدب العربي الحديث والمعاصر.	انفيروش نجية	أ. محمد أبو طالب وأ. سعيد علوش	92/ 5/22
أدونيس والخطاب النصوي.	بلقاسم خالد	أ. محمد بنيس	92/ 5/26
شعر الجهاد الأندلسي من عهد بني الأحمر حتى سقوط غرناطة.	الطاري الكبيرة	أ. ثريا لمي	92/ 5/27
الألم عند محمد الحمار الكنتوني.	القزيزي المصطفى	أ. سعيد علوش	92/ 5/27
تقديم وتحقيق تسيم الوردة من تسيم البردة لمحمد المكي البطالوري.	بلكاس زهراء	أ. ثريا لمي	92/ 5/28
مفهوم الشعر عند ابن جلون.	المكاوي مليكة	أ. فاطمة طحطح	92/ 5/29
المصطلحات اللسانية عند القزويني.	عثالي العربي	أ. أحمد الإدريسي	92/ 5/29
شعر ابن فركون، دراسة إحصائية ونصية.	فولوس مليكة	أ. فاطمة طحطح	92/ 5/29
سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دراسة تحليلية.	المراكشي محمد	أ. أحمد أبو زيد	92/ 5/29
أبو عثمان سمد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي (681 - 750هـ) شخصيته وآثاره.	البقالي محمد	أ. محمد بنشرفة	92/ 5/29
مفهوم التجديد عند الشعراء الرومانسيين في بلدان المغرب العربي، الجزائر، تونس (1925 - 1950 دراسة مقارنة).	بن لكرلوي بيججة	أ. عباس الجراي	92/ 6/ 4
طرائق اشتغال الخطاب الروائي في ثلاثة أحمد إبراهيم الفقيه.	كروح مينة	أ. أحمد البيوري وأ. سعيد بنين	92/ 6/19

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
التنافس من خلال رمل المائة فاجعة الليلة السابعة بعد الألف لواسيني الأعرج.	الخوري سمية	أ. أحمد البيوري	92/ 6/19
تقديم وتحقيق مخطوط تلخيص غيث الأدب الذي انسحب في شرح لامية الصبح لكمال الدين النعمري.	زنادة رجاء	أ. وأ. سعيد يقطين	92/ 6/24
تقديم وتحقيق: زهر الربيع في شواهد البديع لشمس بن قرقماس بن عبد الله الناصري.	الشعلل زبيدة	أ. أحمد شوقي بنين	92/ 6/26
قدامة بن جعفر في الدراسات الأدبية الحديثة والمعاصرة.	اعبوش سهام	ألفونس شوري وأحمد مفتاح	92/ 7/ 3
الحكايات الشعبية المغربية: بنياتها وأنواعها ودلائلها.	اعدي سعاد	أ. أحمد اللطفي وأ. سعيد يقطين	92/ 7/ 3
توظيف الظواهر الاحتفالية في المسرح المغربي.	محبوب محمد	أ. أحمد المصلاوي	92/ 7/ 8
ديوان الأبحر المعنية في بعض الأملح المعنية الجزء الثاني للشيخ محمد الفيت النعمة، تقديم وتحقيق.	محمد المختار المداح	أ. محمد بنشرفة	92/ 7/13
تقديم وتحقيق مخطوط حلبة الكيميت في الأدب والتوارد المتعلقة بالخمرات النواجي المؤلف: شمس الدين محمد ابن الحسن النواجي.	العايد مليكة	أ. أحمد شوقي بنين	92/ 7/13
صورة المغربي في أعمال (زبول يوازي).	جلدر عبد العزيز	أ. سعيد علوش	92/ 7/13
أدونيس وعطاب (الثابت والمتحول).	ابن عربية رضوان	أ. سعيد علوش	92/ 7/13
فيومينولوجيا الصورة لدى الشيخ عبي الدين بن عربي.	امعاري محمد	أ. محمد بركة	92/ 7/13
الصورة اللشبية في الدراسات الانثروبولوجية الأدبية عند جليل دوران مع ترجمة كتابه الصورة للشبية وأوجه العمل.	كراكشو كريم	أ. سعيد علوش	92/ 7/17
مقاربة سوسيوثقافية للنص الروائي العربي.	الإدرسي رحمة	أ. أحمد المصلاوي	92/ 7/17
شعرية الحكمة في ديوان المتنبّي دراسة نصية.	كراس محمد	أ. وأ. سعيد يقطين	92/ 7/20
تقديم وتحقيق كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء للشيخ أحمد بن محمد بن عرب شاه الحنفي 791هـ-854هـ.	أبو سعد رشيد	أ. إبراهيم المزدالي	92/ 7/20
تقديم وتحقيق مخطوط المقاتلح للرزوقية بلح الأفتال واستخراج نخبها الخرجية.	زين الدين أمينة	أ. أحمد شوقي بنين	92/ 7/20
ترجمة وتقديم لكتاب بئر لوني في المغرب.	اليزيدي راحمة	أ. حسن كراوي	92/10/12
الحركة الصوفية وأثرها في الشعر الأندلسي خلال القرن الثامن الهجري.	كزيز جميلة	أ. وأ. أحمد المصلاوي	92/10/20
أحمد الطرابلسي الشاعر الناقد.	الفاتح مبارك	أ. علال الفازي	92/10/26
مقارنة سوسيوثقافية — شعرية ثلاثية سهيل اندرس الرواية.	ليلى عبد الحق	أ. محمد بركة	92/10/26
التوكيد في اللغة العربية.	عبد الحجاج	أ. عبد القادر القلي الهري	92/10/26
البعد السرد في القصيدة العربية للمعاصرة شاكر السياب نموذجاً.	ناصر الحبيب	أ. أحمد البيوري وأ. سعيد يقطين	92/11/ 2

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الوضع اللغوي في موريتانيا (11م - 19م).	أحمد محمود ولد الذنيجة	أ. عبد العلي الودغيري	92/11/13
منهج ابن السراج الشتريني في النقد والبلاغة بين المصطلح والشاهد، دراسة في النظر والتطبيق لكتاب جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب.	الشريف الكتاني أم كلثوم	أ. إبراهيم المزدالي	92/11/21
ترجمة ودراسة لكتاب : ما هو الجنس الأدبي ؟ مؤلفه جان ماري شافير.	لثاوي عزيز	أ. أحمد المدلوي وأ. حسن البحراوي	92/11/21
البنية المكانية في مدن الملح ل: عبد الرحمن منيف.	جاو دام	أ. أحمد المدلوي وأ. حسن البحراوي	92/11/21
تلقي الشعر العربي الحديث... الشعر الإسباني نموذجاً.	جبار منسك أبو الحور	أ. أحمد الطرسي	92/11/30
بين لوركا والبياتي دراسة في التناسق.	محمد عبد الرضا شياح	أ. أحمد الطرسي	92/11/30
حركة الاستغلاب وأثرها في الشعر الأندلسي خلال القرن السابع الهجري.	عماوي عبد العزيز	أ. ثريا لمي	92/12/15
حسن الأشعار بمحاسن الأشعار لأحمد بن محمد الصبيحي السلاوي.	الطاهري عبد العزيز	أ. ثريا لمي	92/12/15
بين الشعر والنثر في الكتابة الصوفية عند ابن عربي: قراءة أولية في تجربة اختراق الحلود.	المادلي عبد الإله	أ. فاطمة طحططح	92/12/15
المسائل اللغوية عند أهل العقائد نموذج الأشاعرة.	طلحة عبد المجيد	أ. أحمد العلوي	92/12/17
التقديم والتأخير عند سيويه نماذج من المزية والكورية.	يونس بونغ سوكر	أ. أحمد العلوي	92/12/17
الفكاهة والتندر، المهجاء في الأدب الأندلسي.	البقالي علي	أ. ثريا لمي	92/12/17
مراثي الأشخاص في الشعر الأندلسي، دراسة وتحليل.	الإدريسي للامرم	أ. ثريا لمي	92/12/17
مصطلحات السرقات في النقد العربي القديم حتى القرن الثامن الهجري دراسة وصفية تاريخية مقارنة.	بنسالم أبا الشيخ	أ. أحمد بون	92/12/17
لسانيات النص من خلال كتابات المفسرين الزمخشري نموذجاً.	الفران محمد	أ. أحمد شحلاان	92/12/21
جهاز القراءة عند الأعلام الشتريني من خلال شروحه للشعر العربي القديم.	طاهري أحمد	أ. إدريس بلحميح	92/12/21
عوامل استخراج المعنى في نماذج من كتب الغريب نموذج (معاني القرآن للغراء).	طاهيري عبد الله	أ. أحمد العلوي	92/12/22
موضوعية الماء في الشعر العربي المعاصر.	نخاش ربيعة	أ. محمد بنيس	92/12/22
الحطاب الروائي في ثلاثية حنامية حكاية بحار النخل، المرفا البعيد.	كامل عبد الواحد	أ. أحمد البيوري وأ. سعيد يقطين	92/12/23

شعبة اللغة الفرنسية وآدابها

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
14/ 1/92	M ^r . A. Kilito	Hafiawi Loubna Bouchra	Le mythe dans la production romanesque de Pierre Benoit
20/ 1/92	M ^r . B. Lakhder	Moubajjal Mustapha	Les nominalisations affixales aspects sémantiques et morphologiques.
20/ 1/92	M ^r .A.Moutaouakkil	Nacer Idrissi Abdelfattah	La force illocutionnaire dans la phrase enchânée: Problèmes d'existence et représentation.
11/ 2/92	M ^r .A. Zeggaf	El Halouat Farida	Espace et signification dans les œuvres de Chrétien de Troyes.
31/ 3/92	M ^r .M. Bekkali Yedui	Moussim Asmae	Les figures de la perversion dans l'écriture sadienne.
31/ 3/92	M ^r .M. Essaouri	Ouahboun Youssef	La musique et la couleur dans l'œuvre de Charles Bandelaire.
31/ 3/92	M ^r .A. Kilito	Zellou Sanaa	Le déguisement dans les romans d'Alexandre Dumas.
15/ 4/92	M ^r .A. Kilito	Dinia Fatime Salua	Le merveilleux dans les romans de Gaston Lerout.
15/ 4/92	M ^r .A. Moutaouakkil	Lyoubi Bahija	Les Enonés directifs: illocution, constructions directives et satellites illocutionnaires. Eléments pour une Approche fonctionnelle.
17/ 4/92	M.A. Memmes	Yatribi Karima	Ecriture et signification dans les écrits de Ahmed Seftoui.
22/ 4/92	M ^r .B. Lakhder	Lajili Leila	L'hyponymie et la structuration sémantique du Texique.
15/ 5/92	M ^r .A. Kilito	Bellefquih Anissa	La masque ou la transparence du voile dans les aventures d'Arsène Lupin de Maurice Leblanc.
16/ 6/92	M ^r .A. Zeggaf	Abdallah Yousseuf	Château briand et son public.
16/ 6/92	M ^r .E. Moujahid et M ^r .B. Lakhder	El Hedar Amina	La syntaxe de l'adverbe en arabe moderne: Une approche générative.
9/10/92	M ^r .A. Boukous	Benzekri Driss	Poésie Tamazight de resistance (Maroc Central)
12/10/92	M ^r .M. Chadli	Tahri Larbi	Etude thématique et formelle. Etude sémiotique de quelques manifestations narrative discursives issues de la mystique de la zaouia d'Ouzzane.

شعبة الانجليزية

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
4/ 2/92	M.Abderrahim Jamari	Alt Taleb Ali Saïd	Anaphoric relations in Barber A. Generalize / Binding Approach.
19/ 5/92	M.A. Benhallam	Bensoukas Karim	Noun of Agent Formation in Tamazight of Agadir, Aprosodic Approach.
3/11/92	M ^r .M. Ezzroua	Samiky Abdellatif	Frye's Archetypal Criticism.
11/11/92	M ^r . J. Saib	Bouhlala Abdellatif	Spiritization in Tashlhiyt 3 erter Diachrony and synchrony.
17/11/92	M ^r .M. Dahbi et M ^r .A. Jamari	El Falh Mina	Explanatives in Standard Arabic.
3/12/92	M ^r .M. Dahbi et M ^r .A. Jamari	El Atri Khadija	The syntax of Adjuncts in classical Arabic.
15/12/92	M ^r . A. Benhallam	Adnor Abdellah	Stress Assignment in Idan Tanane Tashlhit (A metrical Approach).
15/12/92	M ^r . A. Benhallam	Soudani Mohamed Salem	Case in standard Arabic.

شعبة الاسبانية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
«Aspectos y funciones del humor en la novela peruana actual».	Dakir Rajaâ	Mme. Aouad	14/ 2/92

شعبة التاريخ

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
تحقيق مخطوط بعنوان (نظرات في تطور التعليم بالمغرب) للعلامة مفتي سلا أبي بكر بن الطاهر زنيور. العامة في المغرب العربي.	إيلاحي خديجة	أ. محمد زنيور	92/ 1/21
جهش العبيد والدولة المغربية منذ التأسيس إلى سنة 1757. ترجمة القسم الأول من كتاب تاريخ الجزائر المعاصر (1871-1954) لشارل روبير أجرون.	الحلالي محمد ياسر	أ. محمد القيلي وأ. محمد الفتوي	92/ 2/10
دكالة خلال العصر الوسيط.	الحمر محمد	أ. عبد الرحمن المودن	92/ 2/19
السفارات الأجنبية إلى فاس ومراكش في عهد مولاي الحسن (1873 - 1894).	أفتوي حميد	أ. إبراهيم بوطالب	92/ 2/19
انعكاسات أزمة 1929 على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب.	بوخلفي المصطفى	أ. محمد زنيور	92/ 2/19
تقديم وتحقيق مخطوط (الدر المنتخب للمستحسن في مآثر مولانا الحسن لأحمد بن الحاج الأجزاء السادس والسابع والثامن إلى نهاية عهد مولاي إسماعيل).	جوي محمد	أ. محمد أمين البواز	92/ 2/19
العلاقات المغربية الأسبانية خلال العصر الروماني.	ابن الجلابي حسن	أ. محمد أمين البواز	92/ 2/19
الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب مولانا إدريس مؤلفه أحمد بن عبد الحي الخليقي المتوفى عام 1120هـ دراسة وتحقيق.	أبشرخان أحمد	أ. محمد المنصور	92/ 2/19
المغرب وتجارة الرقيق العابرة للصحراء (من القرن 16 إلى القرن 19).	السويفي جمال	أ. عبد العزيز ثوري وأ. عمر أكراز	92/ 4/16
مملكة موريطانيا بين 33 ق.م و40م.	قبيل محمد	أ. إبراهيم حركات وأ. محمد الفتوي	92/ 4/16
عمدة الراوين في تاريخ تطاوين تحقيق وتقديم للفقهاء أحمد الرهوني.	مسعود عبد الله	أ. مصطفى ناعمي وأ. زهور طموح	92/ 4/16
	سلامة ربيعة	أ. عبد العزيز ثوري وأ. عمر أكراز	92/ 4/23
	إكلا أسية	أ. عبد العزيز خلوق القسماني	92/ 6/10

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
تحقيق غنطوط (الترجمان العرب عن دول المشرق والمغرب لأبي القاسم الزياتي).	محمد غسان عبيد	أ. محمد زهير	92/ 6/10
الرواية الكثائية في مطلع القرن العشرين (1909-1900)	انظام فاطمة	أ. محمد أمين الزراز	92/ 7/ 8
ترجمة كتاب الصراع الفرنسي - المغربي 1943،	المعروفي حسن	أ. إبراهيم أبو طالب	92/ 7/ 8
1956 الجزء الأول تأليف ستيفان برنار.			
أقوال المطامعين في الطعن والطواعين للعربي المشرقي دراسة وتحقيق.	الفرقان الحسين	أ. محمد أمين الزراز	92/ 7/ 8
تقديم وتحقيق غنطوط دوحه الشبان ونزهة الاخوان في مناقب الشيخ علي بن عبد الرحمن الزيادي محمد.	جريس فاطمة	أ. عبد الرحمن المودن	92/ 7/10
ردود الفعل المغربية إزاء الحركة الوهابية 1792-1822.	الحمراري خديجة	أ. محمد أمين الزراز	92/ 7/16
جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرسمية من منتصف القرن الثاني إلى أواخر القرن الثالث الهجري.	صالح معيوف مفتاح	أ. محمد زهير	92/10/ 7

شعبة الجغرافية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
دراسة مقارنة لثلاث مراكز طريقية بالمغرب: بير الجليل، بوزنيقة، بوقنادل.	كنائي نور الدين	أ. محمد الغوات	92/ 1/15
التحولات الجبالية والاجتماعية بظهور مدينة القنيطرة.	ابسيك بوبكر	أ. محمد بلقفيه	92/ 1/16
دراسة جيومورفولوجية للهامش الشمالي الغربي من وحدة الريف الأوسط، منطقة زومي.	التعاكي قاسم	أ. عبد الله العويبة	92/ 1/16
التفاعلات الاجتماعية الجبالية وتشكيل الحيز الحضري نموذج مدينة غريكة.	عكاشة عبد الواحد	أ. محمد بلقفيه	92/ 1/27
البنية الجبالية والاجتماعية لمدينة في تحول مثال: القصر الكبير.	الميشو طامو	أ. محمد بلقفيه	92/ 1/30
الأنشطة التنسوية وأشغل الفلاحي بسهل الغرب.	بمنصور خديجة	أ. عبداللطيف بنشريف	92/ 2/ 4
الضاحية الجنوبية الغربية لمدينة فاس - دراسة جغرافية.	دوحه المفضل	أ. محمد بلقفيه	92/ 3/13
آليات الأنشطة بالمدن الأصلية نموذج مدينة سلا دراسة جغرافية.	عودراجي توفيق	أ. محمد بلقفيه	92/ 3/16
مسألة البيئة والتطهير في سلا.	امغليل محمد	أ. محمد الغوات	92/ 3/16
دراسة جيومورفولوجية لسهول مبروت والجزء الغربي لمضبة الحمام.	السمومي محمد	أ. عبد الله العويبة	92/ 3/25

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع البحث
92/ 4/16	أ. عبد اللطيف بنشرية	بلعونات خديجة	الآثار الاقتصادية والاجتماعية للهجرة الريفية على وضعية المرأة: نموذج الضواحي الجنوبية لمدينة الرباط
92/ 5/ 5	أ. عبد الله العويطة	أكواناوس الحسن	النهاية الجنوبية الغربية للأطلس المتوسط المضي (بين ختيفرة وكروستان) الأشكال، التشكيل والدينامية الحالية.
92/ 5/18	أ. عبد الله العويطة	احسيني جلول	دراسة جيومورفولوجية لجبال الأطلس عند اقتران المتوسط بالكبير (زاوية الشيخ تقياب، الجزء الجنوبي لكاف انسور والجزء الشمالي لأغبال).
92/ 6/16	أ. محمد الفوات	نضيف سعاد	ظاهرة التمدن والأنشطة الحضرية في ساحل منطقة دكالة.
92/ 9/18	أ. محمد بريان	بيجو مجيد	مساهمة في دراسة التماسكات السياحية الداخلية على المدن والمراكز الساحلية حالة الشريط الساحلي لزموور، الوليدية.
92/10/26	أ. أحمد الغرابوي	الأرس ادرس	تخطيط الاعلام الجغرافية.
92/11/25	أ. عبد اللطيف فضل الله	سليدي محمد ولد	الحضرية وأشكال التوسع لمدينة نواكشوط.
92/11/25	أ. إسماعيل العلوي	سليدي محمد ابن محمد آب	التحديث الزراعي بموض نهر السنغال بالجمهورية الإسلامية الموريتانية.
92/11/25	أ. عبد الله العويطة	الزهاق نعيمة	دراسة جيومورفولوجية للحوضين الأعلى والأوسط لواد الزواق.
92/11/25	أ. عبد الله العويطة وعبد العزيز مرزوق	فنجيرو عماد	مساهمة كل من الاستشعار عن بعد ولسق المعلومات الجغرافية في وضع خريطة لأشكال التفرع بالحوض السفحي لثلاثة - منطقة - طنجة.
92/11/25	أ. إسماعيل العلوي	محمد المزاري	إشكالية أعداد المناطق الجبلية (نموذج دير الحاجب).
92/11/25	أ. محمد الفوات	بيطة حليلة	انتشار التمدن ومسألة الهيكلية الجبلية بالمنطقة الشمالية الغربية لسهل الغرب.
92/12/ 1	أ. محمد الفوات	بنسويسي عبد العزيز	أهمية الأرض والتحولات الجبلية والاجتماعية دراسة مقارنة بين مدينتي الرباط وسلا.
92/12/ 3	أ. محمد بريان	حميد محمد	الهجرة والتحولات الاجتماعية والجبلية (حالة بعض الأحياء الحديثة بمدينة سلا).
92/12/ 3	أ. محمد بريان	ستور عبد الرحيم	الهجرة الدولية للعمل والتوسع الحضري للقيام التنازور جبل لعروي نموذجاً.
92/12/ 3	أ. إسماعيل العلوي	فاتح حسن	التكيف الفلاحي والتحولات السوسيوإقليمية والاهيكولوجية بوجلة دكالة.
92/12/ 3	أ. إسماعيل العلوي	للشيخ سعد بوه بن محمد الحسن	التحولات الجبلية والاقتصادية بولاية التارزة.
92/12/ 8	أ. محمد بريان	إعيايو عبد التميم	اتمسكات الهجرة الدولية على الوسط الحضري بإقليم الناظور.
92/12/ 8	أ. محمد بريان	بوشية نعيمة	دور المجرات الدولية في الدينامية الحضرية لمدينة أصيلة.
92/12/ 9	أ. محمد الفوات	حسني الغزواني	دور المدن المتوسطة في تنظيم المجال الجغرافي بالمغرب.
92/12/11	أ. عبد اللطيف بنشرية	الجلالي محمد	التحول من الترحال إلى الاستقرار ومسألة التكيف مع الجفاف نموذج منطقة شيشاوة.
92/12/21	أ. محمد بريان	للققيه النجيري ربيعة	الهجرة الخارجية وعلاقتها بالهجرة الداخلية بالمقصر الكبير.

شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
فلسفة التأويل عند بول ريكور.	حسن بن حسن	أ. محمد سيلا	92/ 1/ 2
الزاوية التيجانية في السنفال دراسة سوسيو-سياسية.	علي تيام	أ. رحمة بورقة	92/ 1/ 2
عملية نمو الأية وعلاقتها بالتمهات الأمي نموذجه ونمو الآخرين.	الكنوني رشيد	أ. المصطفى حدية	92/ 1/ 2
التحولات الاجتماعية للممارسة العلاج-نفسية لدى (المريض) وعلاقتها بفعالية العلاج.	حكم عبد المجيد	أ. المصطفى حدية	92/ 1/ 7
تحليل التصور الكانطي للحرية.	كوزة علال	أ. محمد سيلا	92/ 1/21
قراءة ابن طفيل للفلسفة الشرقية السنيوية.	بن حمادي حمودي	أ. سالم يفوت	92/ 1/21
حدود مساهمة المجرة إلى الخارج في تطوير وتحديث المجتمع المغربي نموذج: مدينة الفقيه بن صالح (تلم بن ملال).	النفوطي حمادي	أ. محمد شقرون	92/ 1/28
مفهوم القانون العلمي في الفيزياء الكلاسيكية والمعاصرة- دراسة وتحليل لوجهة نظر ريشار فانيان.	أجروسي مبارك	أ. عبدالسلام بن مس	92/ 2/ 3
التشفة الاجتماعية للطفل المغربي أسفي كنموذج.	قيسومي محمد	أ. رشدي فكار	92/ 2/11
الواقع والمضمون الثقافي بالمغرب العربي من خلال الانتاج الكولونيالي.	بن عبد النبي محمد	أ. للكي بنطاهر	92/ 2/11
التحولات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بحركة المدن بالمغرب ما بعد الحماية نموذج مدينة فاس.	غميض مراد	أ. محمد شقرون	92/ 3/ 6
البعد اللغوي لفلسفة الرياضيات عند فنجشتاين.	لشهب خديجة	أ. عبدالسلام بن مس	92/ 4/23
سوسيولوجية المدرسين بالتعليم الثانوي (السلك الأول) بحث في الدلالة السوسيولوجية للخطاب البيداغوجي والتربوي بالمغرب، مساهمة في سوسيولوجيا التربية والثقافة.	مطيع عبد الواحد	أ. محمد شقرون	92/ 4/23
التسمية والتغير الاجتماعي في المجتمع القروي المغربي بعد الاستقلال هضبة مكثاس كنموذج.	مالي أحمد	أ. رحمة بورقة	92/ 5/ 4
ظاهرة التشرذم عند الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي (دراسة نفسية-اجتماعية بالوسط الحضري، الدار البيضاء نموذج).	بوحميد الشرقي	أ. المصطفى حدية	92/ 5/25
مفهوم الزمان في النظرية الأشعرية.	مصطفى فضل	أ. سعيد بنسعيد	92/ 5/25
تمثيلات الذات عند المراهق وعلاقتها بالتواصل لدى الآباء دراسة نفسية اجتماعية.	عبد الوهاب	العلوي	92/ 5/25
فلسفة المنطق عند فنجشتاين.	لعيش فاطمة	أ. المصطفى حدية	92/ 5/25
تمثل المرأة العاملة لذاتها وعلاقتها بجوانبها المهني-	الطاطري ياسر	أ. طه عبد الرحمن	92/ 6/ 4
دراسة نفسية اجتماعية في وسط حضري مغربي.	بجلول زهرة	أ. المصطفى حدية	92/ 6/18
تكوين المدرسين بالمراكز التربوية الجهوية وعلاقتها بالانتماءات التربوية دراسة نفسية اجتماعية.	مومن محمد	أ. المصطفى حدية	92/ 6/18

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
فلسفة هيغل السياسية : الدولة في فلسفة هيغل. مفهوم الدولة وأسس الفلسفة في الفكر الأوربي الحديث. الدين والبنيات الاجتماعية بالمغرب من خلال أعمال ليفي بروفانسال وروبر مونتاني. صورة الأب لدى الثقافة المغربية وعلاقتها بالتوافق الزوجي. التزعة العدمية في الفكر الغربي (الحداثة/ ما بعد الحداثة). ترجمة كتاب فينومولوجيا الروح : La phenomologie de l'esprit de G.N.F. HEGEC	قاسمي محمد عائيد لحسن الطيطي عمر القصي فوزية الطويل عبد السلام يعقوب ولد القاسم	أ. محمد سيلا أ. علي أومليل أ. رشدي فكار أ. مبارك ربيع أ. محمد سيلا أ. محمد سيلا	92/ 6/18 92/ 7/ 1 92/ 7/ 6 92/ 7/16 92/11/11 92/11/13
قياس علاقة الأسلوب المعرفي الإدراكي بالاتجاهات العنوانية لدى الشاب المتعلم. التفكك الأسري وعلاقته باضطراب العلاقات العاطفية عند الأطفال والمراهقين. السببية والجمعية في التفكير العلمي المعاصر. تاريخ الرياضيات بالمغرب ابتداء من القرن 13م ابن البا المراكشي وشرحه.	قوري بوعيد الأنصاري عبدالرحمن قتليل محمد عثاني عبد العزيز	أ. المصطفى حدية أ. المصطفى حدية أ. سالم بغوت أ. عبد السلام بن ميس	92/11/13 92/12/ 9 92/12/ 9 92/12/11

شعبة الدراسات الإسلامية

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم للحافظ أبي العباس الأتليشي — دراسة وتحقيق. أبو سليمان الخطابي وجهوده في علم الحديث والفقه. مشروع البديل الحضاري الإسلامي بين النظرية والتطبيق ودور التربية في هذا المشروع. الإمام الغزالي أصوليا.	مكراز الحسن المقالي خلد بن العربي خديجة عوام محمد	أ. فاروق حمادة أ. فاروق حمادة أ. محمد بلشير أ. أحمد أبوزيد وأحمد الريسوني	92/ 1/ 8 92/ 1/ 8 92/ 1/ 8 92/ 1/ 8
موقع السنية وقوانين التغيير الاجتماعي في بنية الفكر الإسلامي. المصوفة ودورهم في صد الغزو الصليبي في عهد السعديين. المباحث والمسائل الكلامية في أصول الفقه تأثرها عليه ومدى صلتها. المدرسة البغدادية للمذهب المالكي نشأتها، أعلامها، منهجها، أثرها. القاضي إسماعيل المالكي وفقهه.	قشيش عبد الرحمن نجيم المصطفى بلاحي عبد السلام العلمي محمد هاشمي مصطفى	أ. محمد بلشير أ. محمد بلشير أ. أحمد أبوزيد أ. فاروق حمادة أ. فاروق حمادة	92/ 1/ 8 92/ 1/ 8 92/ 1/ 8 92/ 1/ 8 92/ 1/ 8

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
المعرفة ومنهجها في القرآن الكريم.	بن بريك علي	أ. أحمد أبوزيد	92/ 1/ 8
بناء الذات الإنسانية في الشريعة الإسلامية.	الأحرر عبد السلام	أ. فاروق حمادة	92/ 1/ 8
الفكر الأصولي عند القاضي الباقلاني.	أمراني علوي	أ. فاروق حمادة	92/ 1/ 8
القطعية والظنية في الأدلة الشرعية.	بلقاسم حديد	أ. فاروق حمادة	92/ 1/ 8
فقه الإمام القرطبي من خلال كتابه (الجامع لأحكام القرآن).	لعشاش عاشور	أ. فاروق حمادة	92/ 1/ 8
مدرسة أبي الحسن بن بري الرباطي في أصل مقرأ الإمام نافع وأشاعها العلمي.	أركيتي مسعود	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
مساهمات الفكر السلفي في المشروع الحضاري الإسلامي	البوكيلي أحمد	أ. محمد بلشير	92/ 1/ 9
نموذج علال القاضي.			
الاستشراق الإنجليزي والسيرة النبوية مارتن ليجر نموذجاً.	بوردة عبد الله	أ. قاسم الحسيني	92/ 1/ 9
رسم المصحف الشريف ومحاولة توجيه اختلافاته.	هدهودي فاشحة	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
التقليد في الفروع من خلال نشر البنود على مراقي السعود للشنقيطي.	صادق أحمد	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
القاضي عياض وأثره في الدراسات الأصولية.	بنوار محمد	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
موقف الإسلام من المناقذين من خلال القرآن الكريم.	بنعبود عبد السلام	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
دراسة وتحقيق لكتاب: (الأقراط والتشوف بمعرفة	الشفوعي الطاهر	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
الابتداء والوقواق). محمد بن عبد السلام القاضي.			
اختلاف القراء والنحاة في توجيه القراءات.	بنزيدي إبراهيم	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
توجيه قراءة الأخوين حمزة والكسائي.	الحيشي علال	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
منهجية الدعوة إلى التوحيد في القرآن الكريم (دراسة موضوعية).	البنبي علي بن جعفر	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 1/ 9
القراءات الشاذة آلة من آلات التفسير.	الزباح عبد الواحد	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
العقيدة الإسلامية والبناء الأخلاقي ابن قيم الجوزية نموذجاً.	كمال نعمة	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
جدلية الربط بين الأصلي والتبعي عند الأصوليين.	المهدي عبد السلام	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
ضوابط التأويل من خلال تفسير المعتزلة والأشعرية	الحراق محمد	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
والشيعة الإمامية.			
فلسفة العقيدة والمذهب في المغرب والأندلس خلال القرن الرابع والخامس الهجريين.	بلعوشي أبو بكر	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
بيوع الآجال في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة.	الصدقي فؤاد	أ. التهامي الراجي	92/ 1/ 9
موقع المنهج التربوي عند ابن عربون بين مناهج الترية.	الحلوقي محمد	أ. قاسم الحسيني	92/ 1/ 9
النتج العقدي في التفسير عند ابن تيمية.	هدهودي حياة	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 1/ 9
التفكير العقلي في مسائل العقيدة خلال القرن السادس الهجري بالأندلس والمغرب.	بن طهري المهدي	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 1/ 9
شرح الشيخ الطيب بن كروان على آلفية العراقي في السير قسم للغازي تقديم وتحقيق.	بن جبور محمد	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 1/ 9

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
مدرسة سيدي الزوين القرآنية معقل إسلامي للقرابات السبع بالمغرب، دراسة ميدانية.	أبو رزق محمد	أ. التهامي الراحي	92/ 1/ 9
التفكير العقدي الشيعي في مبدأ التوحيد من أصول الكافي، دراسة مقارنة.	احديدان بلال	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 1/ 9
فوخ الغيب في الكشف عن فناع الربيب لشرف الدين الحسيني بن محمد بن عبد الله الطيبي (743هـ) تحقيق ودراسة (الجزء الأول).	فاضل عبد الرزاق	أ. أحمد أبوزيد	92/ 1/21
الأسباب الموجبة لاسقاط العقوبة في الشريعة الإسلامية.	الوالي محمد	أ. فاروق حمادة	92/ 1/21
الانجهايات العرية المعاصرة في كتابة السيرة النبوية.	فكر أحمد	أ. فاروق حمادة	92/ 1/21
فتح الرؤوف المنيب شرح نموذج الليب في خصائص المنيب للسبوطي تأليف محمد عبد الرؤوف المناوي (952-1031) دراسة وتحقيق.	بلغازي دنيا	أ. فاروق حمادة	92/ 1/21
أبو جعفر الطحاوي وجهوده في دراسات الحديث.	بوقبيج قواد	أ. فاروق حمادة	92/ 1/21
القواعد الأصولية في الفقه المالكي من خلال كتاب (الأشراف على مسائل الخلاف) للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي.	الشتوف محمد	أ. التهامي الراحي	92/ 1/27
إبراز الضمير من أسرار التصدير لمؤلف محمد بن عبد السلام القاسمي المتوفى سنة 1214هـ - 1800م.	أزيابط بوشتا	أ. التهامي الراحي	92/ 1/27
الدراسات الأصولية في الغرب الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس.	لخضر مصطفى	أ. التهامي الراحي	92/ 1/27
عقيدة التواب والعقاب في الكتب السماوية، دراسة مقارنة.	عيكاري المامون	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 1/27
دراسة وتحقيق خطوط في التوحيد بعنوان: تحرير المقال بنة الواحد المتعال في مسألة الكسب وخلق الأفعال.	اعوين عبد الله	أ. قاسم الحسيني	92/ 1/27
تحقيق رسالة في التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، لأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير المراكشي.	الوكيلي محمد عزيز	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 2/ 7
أثر علم المنطق في الدراسات العقيدة عند شيخ الإسلام ابن تيمية.	بطار عبد القادر	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 2/ 7
خطوط بعنوان: الحروف التي خالف فيها ابن عامر نافما طريق أبي شيط الملك ابن أبي طالب، دراسة وتحقيق.	الحشين محمد	أ. التهامي الراحي	92/ 2/ 7
منهج أبي الحجاج المكلاتي (626هـ) في الالهيات كتاب (لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول) نموذجاً.	الغازي محمد	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 2/ 7
كتاب (الارتفاق في مسائل الاستحقاق) لأبي علي الحسن بن رجال العلبي، دراسة وتحقيق.	آيت اكرام حسن	أ. التهامي الراحي	92/ 2/ 7

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
تحقيق خطوط الكوكب الذي المستخرج من كلام النبي ﷺ للإقليشي.	بهاى محمد	أ. فاروق حمادة	92/ 3/21
الجرح والتعديل في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري أعلامه ومناهجه.	شهيد عائشة	أ. فاروق حمادة	92/ 3/21
سياسة عمر مع ولاية الأمصار.	الوالى سعيد	أ. عصمت دندش	92/ 3/21
أبو بكر بن شيبه وكتابه المصنف.	الحامدي مسعود	أ. فاروق حمادة	92/ 3/21
التغريب وانكاساته على المؤسسات الاجتماعية والثقافية في المجتمع المغربي المعاصر، دراسة ميدانية، منطقة سوس نموذجاً.	ابن زاكور محسن	أ. محمد بلشير	92/ 3/21
الخطاب القرآني بين مناهج البلاغين القدماء ومناهج التحليل الحديثة.	عروي محمد	أ. أحمد أبوزيد	92/ 3/21
تفسير أبي بن كعب، جمع دراسة وتحقيق.	صمدي محمد صلاح الدين	أ. أحمد أبوزيد	92/ 3/21
تعظيم المنة بضرورة السنة للناصري دراسة وتحقيق.	الدكالي عبد الكريم	أ. التهامي الراحي	92/ 4/14
أثر الحديث في تفسير القرآن الكريم المهر المهر المهر لابن عطية نموذجاً.	فنان صالح	أ. التهامي الراحي	92/ 4/17
فرضية الدعوة على الأمة الإسلامية.	إبراهيم الحاج أبوبكر امام	أ. التهامي الراحي	92/ 4/17
فقه الأولويات، دراسة تأصيلية قانونية.	الوكيلي محمد	أ. التهامي الراحي	92/ 4/17
التراث التربوي في الإسلام: دراسة ثلاث رسائل في التربية (1) آداب المتعلمين للطوسي (ت 672هـ).	أبو الوالي محمد	أ. قاسم الحسيني	92/ 4/17
(2) تذكرة السامع والمكلم لابن جماعة (ت 733هـ).			
(3) تحرير المقال لابن حجر الميمني (ت 974هـ).			
منهج محمد لأحمد بن جزى الكلبي في الإلهيات من خلال كتابه: النور المبين في بيان عقائد الدين نموذجاً (دراسة وتحقيق).	الحسين الوزالي سيدى خالد	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 4/17
القول الكاشف عن أحكام الاستتابة في الوظائف لأبي عبد الله محمد المستاوي الدلائي تقديم وتحقيق.	منصور خديجة	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 4/17
التنظيم الاسلامي الأسري، والتخطيط الاجتماعي المغربي، دراسة وتقديم، حي البرنوصي نموذجاً.	مزينة رابحة	أ. قاسم الحسيني	92/ 4/17
مفهوم النبوة عند حسن حنفي من خلال نتاجه: من العقيدة على الثورة نموذجاً.	أجرد سيدى محمد	أ. قاسم الحسيني	92/ 4/17
منهج الإمام الطبري (310هـ) في دراسة لقضايا العقيدة (سلفية، أثر الواقع الثقافي).	ميمون عبد الرزاق	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 4/17
الاستصحاب بين الأصوليين والفقهاء.	محمد المصطفى بن محمد سالم	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 4/17

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الفنوحات الربانية في شرح المنظومة الدالية لمحمد بن مبارك السجلماسي المؤلف أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الخلوئي، دراسة وتحقيق.	لجلاوي محمد	أ. التهامي الراجي	92/ 4/17
التحيز لما أودعه الزعشمري من الاعتزال في تفسيره للكتاب العزيز تقديم وتحقيق.	الحوتاري الزهراء	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 6/16
دراسة وتحقيق حاشية أبي يعقوب يوسف بن محمد للمصممي على كتاب (أصول الدين) ل: بغوين.	حمو الشهابي	أ. محمد أمين السماعيل	92/ 6/16
جرعة الحراية بين الفقه والقانون.	الصالح المديني	أ. أحمد أبوزيد	92/ 6/16
مسألة السلطة السياسية في الإسلام من المنظور العلماني، دراسة نقاشية.	العمراني أحمد	أ. محمد بلشير	92/ 6/16
ناسخ الحديث ومنسوخه لابن شامين (ت 385هـ): عمر بن عثمان بن أحمد البغدادي، دراسة وتحقيق.	الزويدي كريمة	أ. إبراهيم بن الصديق	92/ 7/ 1
للمدرسة القرآنية فيما وراء جنوب الصحراء ودورها في نشر الإسلام انطلاقاً من المغرب الأقصى.	سيسي الشيخ	أ. أحمد أبوزيد	92/ 7/ 6
حركة انتشار الدعوة الإسلامية في العهد النبوي حولها أسبابها نتائجها.	عطري عبد العزيز	أ. محمد بلشير	92/10/20
تطور الدولة الإسلامية، بنية وفكرة من الهجرة النبوية إلى نهاية الخلافة الراشدة.	بوكير حسن	أ. محمد الروثي و.أ. أبوزيد	92/11/ 2
تحقيق مخطوط الإشارة إلى سيرة المصطفى لمغلاي بن قليج.	التجاري عبد الحفيظ	أ. عصمت دلدش	92/11/ 2
التقديم والمجدي في فقه الشافعي.	لمين التاجي	أ. محمد الروثي	92/12/16
إنارة الأذهان بسماح ما قيل في دلالة العام لأحد بن مبارك السجلماسي المصلي (ت 1156) تقديم دراسة وتحقيق.	بطان أمينة	أ. محمد الروثي	92/12/16
أحكام ابن ديبس (الجزء الأول) تقديم وتحقيق.	السلياني ادريس	أ. محمد الروثي	92/12/16
أبو عبد الله المقرئ وقواعده الفقهية.	أكلو محمد	أ. محمد الروثي	92/12/16
الثابت والمتغير في نظام الحكم الإسلامي.	محمد أحمد هلال صلف	أ. محمد الروثي	92/12/16
القواعد الفقهية من خلال كتاب المفتي لابن قدامة المقدسي.	الإدريسي عبد الواحد	أ. محمد الروثي	92/12/16
الاستقراء عند الأصوليين المخاربة وتطبيقاته الفقهية.	حذية عمر	أ. محمد الروثي	92/12/16
الأعذار الشرعية وأثرها على التكليف.	حفري عبد الرحمن	أ. محمد الروثي	92/12/16
المنهج الإسلامي مقاربة معرفية وضرورة حضارية.	التقوي السعيد	أ. محمد بلشير	92/12/16
المنطق وفقهاء الغرب الإسلامي.	باريش ميمون	أ. طه عبد الرحمن و.أ. محمد بلشير	92/12/16
تحرير مسألة القبول على ما تقتضيه قواعد الأصول والمفعول لأحد بن مبارك السجلماسي، دراسة وتحقيق.	عيادي حبيب	أ. أحمد الريسوني و.أ. أحمد أبوزيد	92/12/16

موضوع البحث	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
التأليف في مصطلح الحديث عند المغاربة من القرن 3هـ إلى القرن 13هـ.	ضمنان بوشعيب	أ. إبراهيم بن الصديق وأ. فاروق حمادة	92/12/16
الأحكام الوسطى لعبد الحق الاشبيلي تحقيق ودراسة من باب الجهاد إلى آخر الكتاب.	ناجي راشد حسن العربي	أ. إبراهيم بن الصديق وأ. فاروق حمادة	92/12/16
الأحكام الوسطى لعبد الحق الاشبيلي تحقيق ودراسة من أول الكتاب إلى آخر باب الحج.	إبراهيم الشيخ راسة المريخي	أ. إبراهيم بن الصديق وأ. فاروق حمادة	92/12/16
الإمام البيهقي (ت 458هـ) محدثا وفقها.	صابر عبد الهادي	أ. إبراهيم بن الصديق وأ. فاروق حمادة	92/12/17
تميز الضعيف من الصحيح فيما روي من الأحاديث في فضائل الفاتحة وسور المفصل.	خلديد فاطمة	أ. أحمد أبوزيد	92/12/22

الأنشطة والتظاهرات العلمية في الكلية

السنة الجامعية 92 - 1993

إعداد : محمد معتصم

كلية الآداب — الرباط

عرفت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، خلال الموسم الدراسي الجامعي 92-93، مجموعة من الأنشطة العلمية والثقافية والاجتماعية، شاركت فيها فعاليات متنوعة من داخل الكلية، بما في ذلك الأساتذة الجامعيون — من مختلف الشعب والتخصصات — والموظفون المهتمون والطلبة الباحثون ؛ كما ساهم فيها من خارجها أساتذة محاضرون وباحثون مشاركون في الندوات واللقاءات العلمية والثقافية، ومبدعون (من رسامين ومخرجين وشعراء وروائيين)، ونقاد ودارسون، سواء من داخل المغرب أم من خارجه.

ولإدخال بعض التنظيم على هذا الركام من الأنشطة (التي لم تتوصل إلا بأهمها)، نورد هنا مرتبة حسب نوعها وتاريخ وقوعها كما يلي :

• الندوات الوطنية والدولية :

«دراسة مقارنة للمصالح المشتركة الكبرى»: ندوة مغربية هولندية رابعة نظمتها الكلية بتعاون مع جامعات هولندية بتاريخ 7-10/9/92، وشارك فيها أساتذة مغاربة من الكلية وباحثون من جامعات هولندية مختلفة (لايدن، أمستردام، نيميكن، ماستريخت، روتردام). وقد انصبت أشغال الندوة على هجرة المغاربة إلى هولندا وآثارها المجتمعية والثقافية واللغوية والاقتصادية والتربوية في البلدين. وللإشارة، فإن هذه الندوة جرت وقائعها في هولندا.

«طنجة : المجال والاقتصاد والمجتمع» هي الحلقة الثالثة للملتقى العلمي لمدينة طنجة التي نظمتها كلية الآداب بالرباط بتعاون مع مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، وذلك بتاريخ 21-23/10/92 ؛ وقد انصبت على محاور هي : السكان والمجال الحضري ؛ الأنشطة الاقتصادية ؛ البنيات والتغيرات الاجتماعية والثقافية ؛ طنجة في محيطها الجهوي والوطني والدولي ؛ وشارك فيها باحثون وأساتذة من المغرب وخارجه (وقد صدرت في شهر نونبر 1993).

«الرحلات العربية : السرد وصورة العالم» : ندوة نظمتها كلية الآداب، بدعم من مؤسسة كونراد أديناور، بتاريخ 16-18/12/92، وشارك فيها أساتذة وباحثون من داخل الكلية وخارجها. وقد تطرقوا فيها للرحلة في علاقتها بالنظرية الأدبية والتاريخ والشعر، كما تطرقوا للرحلات المغاربية بالمقارنة مع الرحلات الأوروبية.

« ندوة حول تحليل الخطاب بأنواعه، من خطاب مدرسي (ل. أمرشي، أ. أكواو)، وخطاب محادثة (س. غوتي)، وخطاب صحفي (خ. زيزي)، وخطاب سياسي (الحلو)، وخطاب ديني (بناني)، وخطاب أدبي (ر. العروي ؛ أ.م. شادلي ؛ أ. ركام)، وخطاب غير لفظي (زيزي ؛ م. ينشوخ ؛ ف. بنزاكور ؛ ه. الحلو، أ. مدغري علوي): ندوة نظمتها كلية الآداب بالرباط بتنسيق مع شعبة الفرنسية، بتاريخ 93/1/12.

«الملتقى العلمي الجامعي الأول ما بين المغرب وبلجيكا» : ندوة نظمتها الكلية بتاريخ 7-9/4/93، وشارك فيها أساتذة وباحثون من البلدين ؛ وقد تناولت محاور الندوة العلاقات الدبلوماسية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية ماضيا وحاضرا، فضلا عن مواضيع جانبية أخرى.

«السينما والتاريخ والمجتمع» : ندوة نظمتها كلية الآداب بتاريخ 15-17/4/93، وشارك فيها أساتذة من المغرب والجزائر وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ؛ وتناولوا فيها محاور تعامل السينما الأوروبية مع التاريخ المغاربي والإفريقي، وعلاقة وسائل الاتصال الجماهيري بالمجتمع، وصورة المرأة في السينما المغاربية والألمانية والإيطالية، وتاريخ السينما وسينما التاريخ، والسينما في علاقتها بالتعليم والحقوق.

• «الثقافة الشفوية والثقافة المكتوبة» : ندوة نظمها كلية الآداب بتعاون مع جمعية موظفيها، وذلك بتاريخ 21-23/4/93 ؛ وقد أسهم فيها أساتذة الكلية بعروض في الموضوع.

• الموائد المستديرة والأيام الدراسية :

• «المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية» : مائدة مستديرة نظمها كلية الآداب بالرباط بتعاون مع مجلة المناظرة، وذلك بتاريخ 12-15/11/92. وقد تناول الأساتذة المشاركون المصطلح في حقول معرفية متعددة كاللغة والفلسفة واللسانيات وفلسفة العلوم والمنطق وعلم الاجتماع وعلم النفس.

• «التأويل والتلقي» : مائدة مستديرة نظمها كلية الآداب بدعم من مؤسسة كونراد أديناور، بتاريخ 26-29/11/92 ؛ وقد شارك فيها ثلة من أساتذة كليات الآداب المغربية بحضور شرفي للمنظر الأدبي الألماني فولفكانك إيزر. وقد تدورست في هذه المائدة بعض الإشكالات النظرية والتطبيقية للتلقي والتأويل. (وتوجد وقائع هذه المائدة المستديرة قيد الطبع ضمن منشورات الكلية).

• «المهدوية : الأزمة والتغير في تاريخ المغرب» : مائدة مستديرة نظمها كلية الآداب بالرباط، بتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور، بتاريخ 12-13/2/93، وتنصب محاورها على المهدوية (نسبة إلى المهدي المنتظر) مقارنة بنزعات كونية مماثلة، وعلى مهدوية السعديين. وقد شارك في هذه المائدة باحثون مغاربة وأجانب (من فرنسا وإسبانيا وهولندا وألمانيا). وستصدر وقائع هذه المائدة المستديرة ضمن مطبوعات الكلية.

• يوم دراسي عن أحمد الصغريوي، نظمته كلية الآداب بالرباط، بتنسيق مع شعبة الفرنسية، وذلك بحضور الكاتب ومشاركة أساتذة مغاربة وأجانب ؛ وقد تضمنت تلك المشاركات دراسات عن أدبه وتأملات في سيرته وتمحيصات ذاتية لبعض الدراسات السابقة عنه (وكان ذلك بتاريخ 15/10/92).

• يوم تربوي نظمته شعبة الفرنسية في كلية الآداب بالرباط، وذلك بتاريخ 14/11/92 ؛ وقد تناول فيه أساتذتها قضايا تربوية مهمة كالتنسيق بين السنوات الدراسية، وتقييم بعض الممارسات (من قراءة، وتقنية تعبير، و...)، وإبراز الهدف

من التعليم في السلك الأول الجامعي الذي يتمثل أساساً في استعمال اللغة الأجنبية (الفرنسية في هذه الحالة) استعمالاً صحيحاً.

• يوم دراسي مُخصَّص لكثابريل جيرمان، نظمته كلية الآداب بالرباط بتعاون مع الرابطة الفرنسية المغربية بالرباط وجمعية أبي رقرق، وذلك بتاريخ 93/1/14. وقد شارك فيه أساتذة مغاربة وأجانب وتضمَّن دراسات وشهادات عنه وزيارة لبيته في سلا.

• يوم دراسي نظمته شعبة التاريخ 93/5/24 عمل فيه أساتذتها على تقويم السير التربوي للسنة الجامعية 92-93 وعلى عرض أعمال اللجن المتفرَّعة عن هيئة الشعبة وتوزيع الدروس والتحضير للامتحانات، فضلاً عن بعض القضايا الأخرى.

• اللقاءات العلمية والحلقات الدراسية :

• لقاء بكلية الآداب بالرباط في شهر أبريل 93 بين الشاعر العربي أدونيس وطلبة استكمال الدروس (تخصّص الشعر الحديث) ؛ وقد قدّم له الدكتور محمد بنيس بإثارة مجموعة من القضايا الأساسية، كالعلاقة بين المناهج النقدية و«أسرار» النص الشعري، وأساسيات تكوين قارئ الشعر العربي الحديث، والشعر العربي الحديث بين المشرق والمغرب. وقد أبدى الشاعر أدونيس وجهة نظره في تلك القضايا المطروحة، مقدّماً عرضاً نظرياً موسعاً عن مفهوم البحث الجامعي الخاص بالشعر العربي الحديث، عبر الجامعة العربية، وما تم إنجازها من دراسات وفق مناهج حديثة. وقد تلت ذلك كله أسئلة الطلبة المعنيين واستفساراتهم.

• «الدراسات النسوية في سياق البحر الأبيض المتوسط» : حلقة دراسية نظمتها كلية الآداب بالرباط وجامعة غرناطة بإسبانيا وجامعة تيسالونيكي باليونان وجامعة تولوز لوميراي بفرنسا، وذلك بتاريخ 93/5/26-25. وقد تمت هذه الحلقة الدراسية في إطار برنامج «ميد كافيوس» المخصَّص لموضوع «النساء في بلدان البحر الأبيض المتوسط : التقاليد والحداثة». وفيها عرضت باحثات مغربيات وإسبانيات وباحث مغربي واحد قضايا البحث في المرأة من خلال تجارب بعض المؤسسات النسوية.

وبالموازاة مع ذلك، جرى لقاء في قاعة الأساتذة بالكلية بين الأستاذتين كنديدا

مارتينيث لوبيث وبيلاز بالآرين (من جامعة غرناطة) من جهة وأساتذة كلية الآداب بالرباط وبعض ممثلات الجمعيات النسوية من جهة أخرى.

• الدورات التكوينية في المنهجية :

واصلت الكلية، بتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور الألمانية وإشراف أساتذة الكلية المشرفين على الرسائل الجامعية والأطروحات، تنظيم دورات تكوينية في المنهجية لفائدة الطلبة الباحثين في مختلف التخصصات وعلى مستوي دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة. وقد نظمت خلال هذه السنة أربع دورات نقدتها ضمن الجدول الآتي :

الدورة	التخصص	المشرفون	المكان	التاريخ
28	اللسانيات	عبد القادر الفاسي الفهري	مراكش	92/11/15-12
29	الأدب العربي علم الاجتماع	أحمد شوقي بنين رحمة بورقية	مراكش	92/11/29-26
30	الجغرافية الطبيعية الجغرافية البشرية التاريخ الحديث	عبد الله لعويطة محمد بلفقيه محمد حجي	مراكش	93/ 2/ 7- 4
31	الأدب المنطق والفلسفة	عبد الفتاح كيايطو طه عبد الرحمن	مراكش	92/ 2/14-11

• المحاضرات العمومية :

• «الأدب الفرنسي في عهد الثورة الفرنسية، القنصلية والامبراطورية»
(92/10/27) و«موزار، أنوارضون جوان» (92/10/28)، محاضرتان ألقتهما السيدة بياتريس ديدبي أستاذة الأدب في باريس 8.

• محاضرة في قضايا متعلقة بمسرح القرن 17 و 18 ألقها السيدة مارتين ده روجون، الأستاذة في معهد الدراسات المسرحية بباريز 3، وذلك بتاريخ 92/10/29.

• «بنى الخطاب وبنى السلطة»، «الخطاب وإعادة إنتاج العنصرية» (92/12/3)، «النص والسياق المعرفي»، «تحرير الخيلة : الخطاب والعنصرية» (92/12/4): محاضرات ألقها الأستاذ تيرين ثان دايك تحت شعار «مجالات جديدة في تحليل الخطاب».

• «السرد الإسباني في السنوات الأخيرة»: محاضرة ألقها الكاتب الإسباني خوليو ياماثاريس بتاريخ 92/12/11.

• «معركة الملوك الثلاثة، ذاكرة برتغالية»: محاضرة ألقها الأستاذة لويسيت فالنسي، من مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريز، وذلك بتاريخ 93/2/4.

• محاضرتان ولقاء حول «الحدائق والأوضاع الراهنة في العالم العربي» من إنجاز الأستاذين بسام طيبي وأرنولد هوتينجر، بتاريخ 93/2/5-4.

• «الشعر والأشعر عند ياهلونيرودا ونيكانورپارا»: محاضرة ألقها الأستاذة الأمريكية مارلين غوتليب.

• «التاريخ والحكاية»، «قراءة النصوص المكرسة لمقدمة كتاب «تاريخ فرنسا» لجول ميشليه»، «القدماء والمحدثون والمتوحشون»، «قراءة النصوص المخصصة لدياجة كتاب «التواريخ» لهيرودوت»: مجموعة محاضرات ألقها الأستاذ فرانسوا هارتوك، أستاذ بمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريز، وكان ذلك بتاريخ 93/2/20-17.

• «الأدب الفلسطيني»: محاضرة ألقها الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي بتاريخ 93/2/23.

• «وضع الشعرية الراهنة» و«الشعرية والدلائليات»، و«الشعرية والذاتية»، و«التحليل النصي للإيقاع»، و«الشعرية المفتوحة»، و«شعرية ترجمات القرآن»:

محاضرات ألقاها السيد هنري ميشونيك بتاريخ 17-21/5/93، وكانت تتلو كل تلك المحاضرات مناقشات من بعض الأساتذة والطلبة الحاضرين.

• المعارض : الكتب، الأشرطة السينمائية.

• «طبول النار» للمخرج السينمائي سهيل بنبركة : شريط عُرض بكلية الآداب، وذلك بتاريخ 31/10/92.

• معرض للكتب افتتح بإشراف قيود كلية الآداب بالرباط ومدير مطابع بريل بلايدن ومدير المكتبة الدولية بالرباط، وذلك بتاريخ 1/12/92 ؛ وقد ضم المعرض 170 عنواناً همت العالمين العربي والإسلامي من جهة وميدان اللسانيات من جهة أخرى ؛ واستمر إلى يوم 4 دجنبر.

• مساهمة أساتذة الكلية على المستويين الوطني والدولي :

التاريخ	المكان	المساهمة	الأساتذة
92/12/30-28 أكتوبر 92 نوفمبر 92 92/10/25-23	الجزائر كلية الآداب بفاس كلية الآداب بأكادير مراكش	محمد الأعرج ومؤلفاته (1) أهل الذمة في الأندلس الإسلامية (2) نوازل ابن هلال السجلماسي (1) تساؤلات حول الموقف الغلالي من غزو السودان (2) الهويات المتعددة: الرحالون المغاربة إلى المشرق من القرن 16 إلى القرن 18. (3) السفراء المغاربة في اسطنبول، والسفراء الخثانيون في الرباط في القرن 18. (4) الذكريات المتنافسة: الذكرى المغربية والذكرى التركية للحدثين البارزين في القرن 16 المغربي. L'expédition du Soudan, discours et historiographie	علال الحفصي عمر بنموة عبد الرحمن المودن عبد المجيد القدوري
93/ 3/31-21	بياريز	محمد حمام علي صلفي محمد التولي	محمد حمام علي صلفي محمد التولي
92/10/25-23	مراكش	نقوة درعة (1) البيمارستانات بالمغرب. (2) مفارقات المصادر المكتوبة والمصادر الأدبية للخط الممتد من الصورة إلى وادي درعة.	محمد حمام علي صلفي محمد التولي بلكامل البيضاء
93/ 1/29 93/ 2/ 9	كلية الطب بالدار البيضاء كلية الآداب بالخميلة		

عبد الأحد السبتي	المناقب والثقافة والسلطة.	معهد الدراسات العربية والإسلامية التابعة لجامعة بوردو III بفرنسا	مارس 93
عمد صالح	(1) اللغة والثقافة الإيبانيين في الجامعة المغربية. (2) مساهمة الثقافة العربية في الثقافة الأمريكية اللاتينية عبر شبه الجزيرة الإيبيرية.	المستشارة الثقافية الإسبانية بالرباط	92/11/10
سيمون ليفي	(1) تدخل واستجاب. (2) الصوائت المقارنة للهجات اليهودية المغربية. (3) جلالة الملك الحسن II يستثمر العبقريّة المغربية في البحث عن السلام. (4) Judéo-espagnol et Judéo arabe marocain: le sort des morphèmes de pluriel et d'emprunts au terme de quatre siècles de plurilingues. (5) الإبداع في خيمة التسامح. (6) «chebra» أو العيش مع الموت. (7) De certaines étymologies historiques en judéo-arabe marocain (8) الربف : شروط تنمية مستمرة.	نوأكشوط المجلس القومي للثقافة مدرسة اللغات الشرقية (INALCO) بباريس Infocom YOD, N°33-34	93/ 3/30-28 93/ 1/13-12 93/ 1/30-27 أبريل 93
		استنبول (تركيا) JURS بالرباط ضمن مصنف جماعي نشر في برلين. جامعة الشرف الإدريسي المفتوحة (الحسيمة)	93/ 4/24-17 93/ 5/ 8- 6 93/ 8/25-22

• أنشطة جمعية الطلبة الباحثين في الأدب واللغة :

نظمت جمعية الطلبة الباحثين في الآداب واللغة خلال الموسم الجامعي 92-93 مجموعة من اللقاءات الداخلية، أو مع أساتذة مغاربة وأجانب، نوردها حسب تاريخ وقوعها :

• «الجاحظ وشعريات الازدواجية : ملاحظات عن كتاب «البغلاء»: درس افتتاحي قدّمه الأستاذ عبد الفتاح كيليطو بتاريخ 92/11/3.

• لقاء مع الأستاذ سعيد يقطين جرى بتاريخ 92/12/9، وذلك لمناقشة كتابه الجديد «الرواية والتراث السردية»، بمشاركة الطلبة الباحثين : إدريس الغندور، محمد التعمري، سعيد جبار.

* «الشعر العربي — وخصوصاً المغربي — الحديث في الثقافة العالمية»: لقاء مفتوح مع د. زجائي بصيلة (أستاذ الأدب الإنكليزي بجامعة انديانا بالولايات المتحدة الأمريكية)، جرى بتاريخ 92/12/18.

* لقاء مع الأستاذ محمد بنيس جرى بتاريخ 93/1/28، وذلك لمناقشة كتابه «الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها»؛ وقد شارك فيها خالد بلقاسم، العربي الذهبي وفاطمة الزهراء العماري، يوسف النوري، محمد الصالحي والحسين سكنفل.

* لقاء مع الأستاذ محمد القاسمي حول معرضه: «كهف الأزمنة الآتية» بمشاركة الأساتذة محمد بنيس ومحمد الشرقي ونور الدين أفاية ور. بلباه، وذلك بتاريخ 93/6/28.

* الأمسية الإبداعية الختامية بمشاركة الفنان التشكيلي محمد القاسمي، حيث ساهم كل من بلال احديدان وحسن الوزاني ومحمد الصالحي وحسن برادة في القراءة الشعرية، لتختتم بالإعلان عن الفائزين بجائزة الجمعية للإبداع القصصي والشعري (93/7/8).

كلمة شكر

تشكر هيئة التحرير السادة الأساتذة الذين ساهموا في مراجعة بعض المواد من ملف هذا العدد، وهم:

محمد الأوراغسي	عبد المجيد الصغير	مصطفى حدية
إدريس بلمايخ	فاطمة طحطح	عبد العالي الدوغيري
عبد الباقي بنجامع	ابراهيم المزدالي	إبراهيم حركات
سعيد بنسعيد	محمد المنوني	سالم يفوت
عبد السلام بنميس	المختار المراس	إدريس السغروشني

رحيل

فقدت كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، خلال 1993 — 1994 ثلاثة من أعلام الفكر البارزين في ميادين الأدب والحضارة والفكر والتاريخ، ينتمون جميعهم إلى جيل من المثقفين المغاربة الذين أعطوا للثقافة الوطنية، في الفترة المعاصرة، بعداً متميزاً ؛ هؤلاء أفنوا حياتهم في خدمة وطنهم، كل في مجاله، بعد أن أسهموا في تأسيس البحث العلمي الجامعي واغنائه وتوسيع نطاقه. لقد قاموا رحمهم الله بدورهم كاملاً في مجال التأطير، تشهد بذلك أفواج الخريجين الباحثين الذين لاحتلوا منهم جامعة من جامعات هذا البلد العزيز.



الأستاذ محمد بن تاويت

• فني ميدان الأدب والحضارة ترك الأستاذ محمد ابن تاويت أثراً سيظل شاهداً له على سبقه العلمي في أكثر من ميدان : فقد كان له الفضل في فتح مجال البحث في الأدب المغربي وإمالة اللثام عن بعض كوامنه، كما عرّف بالحضارات الشرقية عبر تدريس بعض لغاتها وبالتحديد الفارسية والتركية في كل من جامعة القرويين، ومحمد بن عبد الله، ومحمد الخامس ؛ وقد خلف الفقيد، رحمه الله، في هذه المجالات العديد من التأليف والنصوص المترجمة.

• وفي ميدان الفكر كما في الأدب برز الأستاذ محمد عزيز الحبابي علماً تجاوز اشعاعه حدود وطنه، وتمثلت بصماته في كثير من المؤسسات الثقافية : كعميد لكلية الآداب، ومؤسس لاتحاد كتاب المغرب وجمعية الفلسفة بالمغرب. وقد غرس الفكر الفلسفي بالخصوص في الجامعة المغربية وجعل منه مشروعاً شخصياً للبحث عن الحقيقة. ومما تميز به فكره، رحمه الله، أنه كان ذا نزعة انسانية حضارية، متفتح الآفاق، كما كان مؤمناً



الأستاذ محمد عزيز الحبابي
بفكرة قيام الحوار بين الحضارات باعتبار وحدة مصدرها هو الانسان.

إلى جانب ما خلفه الفقيد الحبابي من كتابات فلسفية — ساهمت في رسم مسار فلسفي أثرى الثقافة المغربية — فإنه ترك العديد من المؤلفات في ميدان الإبداع الأدبي باللغتين العربية والفرنسية.

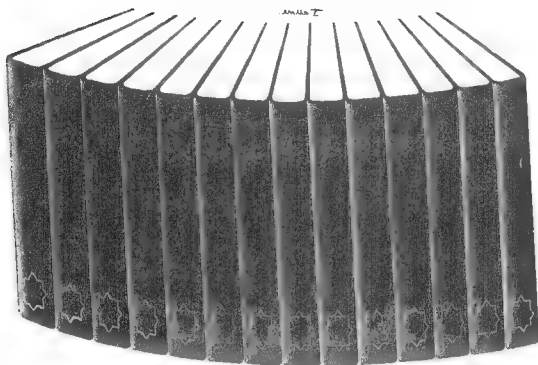


• أما في ميدان التاريخ والحضارة فقد أسس الأستاذ محمد زبير جيلا قويا من الباحثين ضمنهم استمرارية اشعاع البحث العلمي في الجامعات المغربية، وسعى بالخصوص — إلى جانب جملة من اساتذة كلية الآداب — في تأسيس المدرسة التاريخية المغربية، سواء بتكوين الطلبة والتفكير في قضاياهم التربوية، أو برئاسة شعبة التاريخ وترسيخ أعرافها، أو برئاسة قسم الدراسات في السلك الثالث بنفس الكلية، ويتميز الراحل في ثقافته بالشمولية، فقد ساهم في العديد من المجالات : فبالإضافة إلى الكتابات التاريخية ساهم بأعمال إبداعية شملت القصة والمسرح والموسيقى الأندلسية والمقالة، وقد ترك المرحوم محمد زبير مكتبة علمية غنية في مجالات مختلفة.

تغمده الله الجميع بواسع رحمته.

معلمة المغرب

تصدرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر^(*)



معلمة المغرب : قاموس موسوعي مرتب على حروف الهجاء، صدرت منها لحدّ الآن المجلدات الستة الأولى، وتضمّ ما يقرب من أربعة آلاف مادّة، تضم المواد المبدوعة بحروف الألف والباء والتاء. وستُدرج بقية الحروف على امتداد العشرين جزءاً التي تصدر بوتيرة جزعين كل سنة. والمؤمل بعون الله أن ينتهي المشروع كله بنهاية العام المكمل لهذا القرن.

وقد استهدف منهاج المعلمة أن يحيط في مجلّداته بقدر وافر من المعارف المتعلقة بمختلف الجوانب الجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب. وقد بني جرد مواد هذا القاموس على عشرة جوانب أساسية هي :

(*) 53، شارع علّال بن عبد الله، الرباط.

(1) طبيعة المغرب من أرض وتربة وتضاريس وبحار وبحيرات ومجار مائية ومظاهر مناخية،

(2) ثروات المغرب المعدنية والنباتية والحيوانية،

(3) سكان المغرب ومعاله العمرانية من مدن وقبائل وبيوتات وأسر وجماعات،

(4) أنشطة المغرب الإنتاجية من فلاحية وصناعية،

(5) المواد التاريخية في ما سبق من المداخل وفي ما يخص تراجم الرجال والنساء من ذوي الآثار الجهادية والعلمية والتربوية والفنية والسياسية والاجتماعية وذواتها، وكذا الأحداث والوقائع من معارك ومعاهدات وأزمات وتحولات، كل ذلك في سياق تفاعل المغرب مع العالم في الجوانب السياسية والفكرية والحضارية،

(6) التعريف بالمواقع المذكورة في كتب التاريخ أو التي تحفظ الذاكرة وقائع متعلقة بها،

(7) المؤسسات والنظم الحضارية في الماضي والحاضر سواء في ما يخص السياسة أو الإدارة أو الاقتصاد أو المجتمع أو الثقافة،

(8) التيارات والمذاهب السياسية والفكرية والأدبية والفنية،

(9) العلوم والمهارات،

(10) معالم التراث الشعبي في أنماط تعبيره المتنوعة.

إن مشروع معلمة المغرب ماض — بعون الله — في طريق إنجازهِ مستنداً إلى المشاركة الواسعة للأساتذة الباحثين — إذ ساهم في الجزعين الآخرين وحدهما أزيد من مائة وسبعين باحثاً — ومستنداً قوة نفسه من التقدير الجيد الذي يلقاه في الأوساط الأكاديمية داخل المغرب وخارجه.

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية — الرباط

Thèses et Mémoires : جامعية : رسائل وأطروحات

- أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (ابنولتان 1912/1850) طبعة جديدة، جزعان في مجلد واحد، 1983.
- نعيمة هراج التوزاني : الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن (1290 — 1311 / 1873 — 1894) مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، يناير 1979.
- سعيد بنسعيد : دولة الخلافة، دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي، 1980.
- سالم يفوت : مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر.
- عبد اللطيف الشاذلي : الحركة المياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، 1982.
- محمد مزين : فاس وباديتها (1549 — 1637م) جزعان، 1986.
- مبارك ربيع : مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، 1991.
- محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
- أحمد أبو زيد : التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، 1992.
- فاطمة طحططح : الغربية والحنين في الشعر الأندلسي، 1993.
- Abderrahmane Taha : Langue et Philosophie, essai sur les structures linguistiques de l'ontologie. Janvier 1979.
- Ali Oumlil : L'histoire et son discours, essai sur la méthodologie d'Ibn Khaldoun, 1979.
- Abdellatif Bencherifa : Chtouka et Massa, étude de géographie agraire, 1980.
- Abdelkader Fassi Fehri : Linguistique arabe : forme et interprétation, 1982.
- Ahmed Moutaouakil : Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe, 1982.

- Aziza Bennani : Monde mental et monde romanesque de Carlos Fuente, 1985.
- Larbi Mezzine : Le Tafilaït, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e et XVIII^e siècles, 1987.
- Hassan Benhalima : Petites Villes Traditionnelles et Mutations Socio-Economiques au Maroc, le cas de Sefrou, 1987.
- Mohamed Berriane : Tourisme national et migrations de loisirs au Maroc (étude géographique), 1992.
- Ahmed Chouqi Binbine : Histoire des bibliothèques au Maroc, 1992.

Textes et documents : نصوص ووثائق

- محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، 1980.
- محمد بن تايوت : جهار مقالة (أربع مقالات مترجمة عن الفارسية)، 1982.
- أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، 1984.

Traductions نصوص مترجمة

- جورج ماطوري : منهج المعجمية، ترجمة وتقديم عبد الحلي الودغيري، 1993.

Essais et Etudes : بحوث ودراسات

- محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية (صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، 1991.
- أحمد الطريسي أعراب : الإبداع الشعري والتحول الاجتماعي والفكرية بالمغرب، من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين للميلاد، 1992.
- أحمد التوكل : آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، 1993.
- عمر أفا : النقاد المغربية في القرن الثامن عشر، 1993.
- أحمد شوقي بنين : دراسات في علم المخطوطات والبحث البليوغرافي، 1993.
- El Mostafa Haddiya : Processus de la socialisation en milieu urbain au Maroc, 1991.
- El Mostapha Chadli : Sémiotique : vers une nouvelle sémantique du texte (Problématique, enjeux et perspectives théoriques), 1994.

ببليوغرافيا : Bibliographie

- محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، جزآن : 1983 ، 1989.
- لجنة من أساتذة الكلية : مرشد الباحثين في قواعد إعداد النصوص للطبع وتصحيحها، 1986.
- لجنة من أساتذة الكلية : ببليوغرافية الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، 1990.

أعمال الندوات : Colloques

- اللقاء المغربي الأول للسانيات والسيميائيات، عروض ومناقشات، 1979.
- أعمال ندوة ابن رشد، 1981.
- أعمال ندوة ابن خلدون، 1981.
- أعمال ندوة البحث اللساني والسيميائي، 1984.
- أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية، 1985.
- أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن XIX، 1986.
- أعمال ندوة المغرب وهولندة، دراسات في التاريخ والهجرة واللسانيات وسميائيات الثقافة، 1988.
- أعمال ندوة الإمام أبي حامد الغزالي، 1988.
- أعمال ندوة العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، 1988.
- أعمال ندوة في الاقتصاد الإسلامي، 1989.
- أعمال ندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب :
الجزء الأول : السوسيولوجيا المغربية المعاصرة، حصيلة وتقييم 1988.
الجزء الثاني : البحث الجغرافي بالمغرب، تقويم أولي، 1989.
الجزء الثالث : البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقييم، 1989.
الجزء الرابع : اللسانيات الاجتماعية (Langues et société)، (باللغات الأجنبية) 1989.
- الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، 1991.
- الملتقى العلمي لمدينة طنجة :
طنجة في التاريخ المعاصر (1800 — 1956)، 1991.
طنجة في الآداب والفنون، 1992.

- ☐ التاريخ واللسانيات، النص ومستويات التأويل، (مائدة مستديرة)، 1992.
- ☐ الفكر الفلسفي بالمغرب المعاصر، 1993.
- ☐ نظرية التلقي : إشكالات وتطبيقات، 1993.
- ☐ علم النفس وقضايا المجتمع المعاصر، 1993.
- ☐ دراسات فلسفية (أعمال مهداة إلى الأستاذ الطاهر وعزيز)، 1993.
- ☐ التحولات الاجتماعية المجالية الحديثة في الأرياف المغربية، 1993.
- ☐ الركة وانعكاساتها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، 1994.
- ☐ مجالات لغوية : الكليات والوسائط، 1994.
- ☐ في ذكرى جرمان عياش، 1994.
- ☐ Actes 6° colloque international de linguistique fonctionnelle S.I.L.F, 1979.
- ☐ Le Maroc et la Holande : Etude sur l'histoire, la migration, la langue et la culture :
Volume 1 : Première rencontre universitaire : 1988.
Volume 2 : Deuxième rencontre universitaire : 1990.
Volume 3 : Troisième rencontre universitaire : La recherche scientifique au service
du développement, 1992.
- ☐ Le Maroc et l'Allemagne : première rencontre universitaire, 1991.
- ☐ Identité culturelle au Maghreb, 1991.
- ☐ Le Maroc et l'Atlantique (Table ronde), 1992.
- ☐ Westernmarck et la société marocainè, 1993.
- ☐ Montagnes et Hauts-Pays de l'Afrique, 1993.

المجلات : Revues

- ☐ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية : من العدد الأول 1977 إلى العدد الثامن عشر 1993.
- ☐ Langues et Littératures. du vol. I 1981 au vol. XI, 1993.
- ☐ Hespèris Tamuda : du Vol I 1960 au Vol. XXXI, Fascicule unique, 1993, Vol de l'année 1921 (réédition).

MAJALLAT KULLIAT AL ADAB

Parution annuelle

Directeur : Abdelwahed Bendaoud

Comité de Rédaction :

Omar Afa

Abdellatif Bencherifa

Mohamed Maniar

Ahmed Al Yabouri

Mohamed Miftah

Allal Ghazi

Kacem Hssaini

Mokhtar Al Harras

Mohamed Louzi

Les opinions et la terminologie exprimées dans cette revue
n'engagent que leurs auteurs



مجلس الشورى الإسلامي
العدد ١١٦٠

رقم الإيداع بالخزانة العامة 1977/1
الرقم الدولي الموحد : 1160 — 0851